



# رعاية البيئة في شريعة الإسلام

**الطبعة الأولى**

١٤٢١ - ٢٠٠١ م

جيتبع جلائق الطبع محفوظة

© دار الشروق  
أ. سيدا محمد المعتمد عام ١٩٦٨

القاهرة: ٨ شارع سيف بويه المصري -  
رابعة العدوية - مدينة نصر  
ص. ب: ٣٣، البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩  
فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)  
البريد الإلكتروني: [dar@shorouk.com](mailto:dar@shorouk.com)

د. يوسف القرضاوى

رعاية البيئة  
في شريعة الإسلام

دار الشروق

## من الدستور الالهي

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿ادْعُوا رَبّكُمْ تَضَرِّعاً وَخُلْفَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾٥٥ ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ  
بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمْعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾٥٦ ﴿ وَهُوَ  
الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيِ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا ثُقَالاً سَقَنَاهُ لَبَلْدٌ مَيِّتٌ  
فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الشَّمَراتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ  
﴿ وَالْبَلْدُ الطَّيِّبُ يُخْرِجُ نَبَاتَهُ يَأْذِنُ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبِثَ لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ  
نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾٥٨ ﴿ (الأعراف: ٥٥-٥٨).

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقُهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا  
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم: ٤١).

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آتَيْنَا وَأَنْقَوْنَا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ  
كَذَّبُوا فَأَخْذَنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (الأعراف: ٩٦).

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾٧ ﴿ أَلَا تَطْغُوا فِي الْمِيزَانِ ﴾٨ ﴿ وَأَقِمُوا  
الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾٩ ﴿ (الرحمن: ٩-٧).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

الحمد لله وكفى، وسلام على رسله الذين اصطفى، وعلى خاتمهم محمد المجتبى، وعلى آله وصحبه أئمة الهدى، ومن بهم اقتدى فاختدى.

(أما بعد) ،

فقد أصبحت قضية البيئة، ومشكلات البيئة، وتلوث البيئة، واستنزاف البيئة، واحتلال التوازن في البيئة، بل التوازن في الكون.. أصبح هذا كله حديث المثقفين والمفكرين والعلماء في العالم كله. بل أصبح هذا هم الجماهير الغفيرة من الناس، لأن فساد البيئة واستنزاف مواردها يهدد الجميع. حتى قال بعض الباحثين: لو كان للبيئة لسان ينطق، وصوت يسمع لصكت أسماعنا صرخات الغابات الاستوائية التي تُحرق عمداً في الأمازون، وأنين المياه التي تخنقها بقع الزيت في الخليجان والبحار، وحشرجة الهواء الذي يختنق بغازات الدفيئات والمصانع والرصاص في مدن العالم الكبرى.

لقد بات للبيئة (علمٌ) خاص، يبحث في قضاياها، ويفصل موضوعاتها، ويعالج مشكلاتها، ألفَ فيه عدد كبير من الكتب في أنحاء العالم، وبختلف اللغات. ومنها في لغتنا العربية العزيزة.

ولا عجب أن تنشأ للبيئة وحمايتها في كل الدول مؤسسات رسمية وشعبية، علمية وعملية، إلى جوار المؤسسات الإقليمية والمؤسسات الدولية،

وأن تعقد الندوات العلمية، والحلقات الدراسية، والمؤتمرات العامة، لمواجهة هذه القضية الكبيرة بما تستحقه.

ويطبيعة الحال لا بد في هذا الموقف من بروز سؤال كبير يقول: ما موقف الدين بصفة عامة، والإسلام بصفة خاصة من قضايا البيئة؟

ولقد كتب عدد من الإخوة الفضلاء مثلياً لهذه الوجهة الإسلامية، ولا يسعنا إلا أن نشكر لهؤلاء الإخوة بحوثهم وجهودهم، ولكن لا يزال في المجال متسع لقول قائل، ولكل شيخ طريقة، ولكل مجتهد نصيب. وإنما لكل امرئ مانوي.

هذا، وقد انتشرت كلمة (حماية البيئة) حتى غدت شبه مصطلح فيما ينبغي عمله نحو البيئة. ولكنني آثرت عليها كلمة أراها أحق وأولى في هذا المقام من كلمة (الحماية) وهي كلمة (الرعاية) فكما تقول: (رعاية الطفولة) أو (رعاية الأمة) أو (رعاية الأسرة) تقول أيضاً: (رعاية البيئة).

ذلك أن كلمة (الحماية) تقتضي المحافظة على البيئة من جهة العدم أو السلب، بمعنى المحافظة عليها من كل ما يفسدها أو يضر بها ويلوتها.

أما كلمة (الرعاية) فهي تقتضي المحافظة على البيئة من جهة الوجود، ومن جهة العدم جميماً. وبعبارة أخرى: من جهة الإيجاب، ومن جهة السلب.

فمن جهة الإيجاب أو الوجود: ينبغي العناية بالبيئة من جهة ما يرقى بها ويصلحها وينميها، ويصل بها إلى غايتها المرجوة.

ومن جهة السلب أو العدم: ينبغي حمايتها من كل ما يعود عليها بالضرر والتلوث والفساد. وكل هذا يدخل تحت مفهوم العناية.

ولهذا آثرت أن أسمي كتابي هذا: (رعاية البيئة في شريعة الإسلام).

ولقد طلب مني المنتدى العالمي للبيئة من منظور إسلامي، الذي انعقد في جدة في الفترة ما بين ٢٦ و٢٨ رجب ١٤٢١ هـ الموافق ٢٧ - ٢٤ / ١٠ / ٢٠٠٠ م

وشاركت فيه عدة مؤسسات محلية وعربية وإسلامية وعالمية: أن أكتب بحثاً عن موقف الشريعة الإسلامية من قضايا البيئة، فتوكلت على الله، وشرعت في كتابة هذا البحث الذي أردته أن يكون قصيراً، فطال مني، نظراً لاتساع أطراف الموضوع، وحاجته إلى الإشباع، فكان هذا الكتاب الذي أرجو أن يسهم مع كتب أخرى في تجلية النظرة الإسلامية إلى البيئة وإصلاحها والمحافظة عليها: فقهاً وسلوكاً، أو فكراً وتطبيقاً.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

الفقير إليه تعالى

الدوحة في : شعبان ١٤٢١ هـ

يوسف القرضاوي

نوفمبر ٢٠٠٠ م

**تمهيد  
البيئة ومكوناتها**

## البيئة ومكوناتها

### ما المراد بالبيئة؟

البيئة - بعيداً عن التعريفات اللغوية والاصطلاحية - هي المحيط الذي يعيش فيه الإنسان، و (بيو) إليه إذا سافر أو اغترب بعيداً عنه. فهو مرجعه في النهاية ومثابته، شاء أم أبي.

وهذه البيئة تشمل البيئة الجامدة والحياة.

والبيئة الجامدة تشمل (الطبيعة) التي خلقها الله، و (الصناعية) التي صنعها الإنسان.

كما تشمل البيئة (الأرضية)، والبيئة (الفلكلية) أو (السماوية) من الشمس والقمر والنجوم.

والبيئة الصناعية تشمل: ما يحفره الإنسان من أنهار، وما يغرسه من أشجار، وما يعبّده من طرق، وما ينشئه من أبنية، وما يصنعه من أدوات وآلات، تصغر أو تكبر، للسلم أو للحرب.

والبيئة الحية تشمل الإنسان والحيوان والنبات.

وهذه البيئة الطبيعية - كما خلقها الله تعالى - تتميز بأمرتين أساسين: الأمر الأول: أن هذه البيئة مهيأة بكل ما فيها لمصلحة الإنسان، وخدمة الإنسان، وتوفير حاجات الإنسان.

فقد كان الإنسان في الجنة - قبل أن يهبط إلى الأرض - مكفول الحاجات،

مؤمن المطالب، دون أن يجهد جهده في تحصيلها، كما قال تعالى لأدم وزوجه ماحدر الله من عدوه إبليس اللعين : « يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ۝ إِنَّ لَكُمَا أَلَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝ » (طه : ١١٧-١١٩).

ولكن حين خرج آدم من الجنة ، وهبط إلى الأرض ، التي استختلف فيها ، كان عليه أن يسعى إلى رزقه ، ويشقى - كما ذكر القرآن - في تأمين معيشته .

ومن فضل الله على الإنسان أنه حين حمله عبء تأمين عيشه بالكد وال усили ، قد هيأ له كل الأسباب التي تعين على ذلك .

فالأرض قد هيئت لتكون مستقراً ومتاعاً للإنسان ، فجعلها الله ذلو لا له « وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَرَ فِيهَا أَفْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ » (في أربعة أيام) (فصلت : ١٠) وقال تعالى : « وَالْأَرْضَ مَدَدَنَا هَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ۝ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ۝ » (الحجر : ٢٠ ، ١٩) وفي سورة أخرى يقول : « وَلَقَدْ مَكَّنْنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ۝ » (الأعراف : ١٠).

ومن لوازمه ذلك : أن الله جعل تربة الأرض خصبة قابلة للزراعة والإنبات ، فلو كانت الأرض كلها من الصخر الجامد أو من الفضة أو الذهب ، أو الماس ، ما أمكن الإنسان زراعتها ، وهذا معنى جعلها ذلو لا .

ثم هيأ الله الماء الذي يحيي الأرض بعد موتها ، وهو أساس الحياة للإنسان والحيوان والنبات ، كما قال تعالى : « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۝ » (الأنبياء : ٣٠) وقال تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۝ لِتُحْيِيَ بِهِ بَلَدًا مَيْتًا وَتُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَّاسِيَ كَثِيرًا ۝ » (الفرقان : ٤٨-٤٩).

وكما أنزل الله الماء من السماء . وهو المطر . سخر للناس الأنهر تجري من تحتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ ( إبراهيم : ٣٢ ) .

ومن ذلك تسخير الشمس والقمر للإنسان قال سبحانه : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ ( إبراهيم : ٣٣ ) .

الأمر الثاني : أن هذه البيئة كلها بجوانبها المختلفة ، يتفاعل بعضها مع بعض ، ويتكامل بعضها مع بعض ، ويتعاون بعضها مع بعض ، وفق سنن الله تعالى في الكون .

فالشمس في السماء تعطي الأرض من ضوئها وحرارتها ما لا تقوم الحياة بدونه ، وهي تعطي هذا العطاء بلا توقف ولا مَنْ ولا أذى ، وفق نظام لا يتبدل .

وكذلك القمر يعطي نوره - الذي يستمد من الشمس - للأرض ، كما يؤثر في ظاهرة المد والجزر ، وكل هذا لخدمة الإنسان .

وبهذا امتن الله على عباده بقوله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ ( إبراهيم : ٣٣ ) وتأمل قوله تعالى ( لكم ) التي كررها في الآية ، ليدلنا على أن هذه الأجرام العظيمة هيئت لمصلحة الإنسان المستخلف في الأرض . وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدْرَةً مَتَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّنَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ( يوئيس : ٥ ) .

والأرض بخلافها الجوي ، قد هيأها الله تعالى لسكنى الإنسان ، منذ أهبط إليها آدم وزوجه ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقْرٌ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ ( الأعراف : ٢٤ ) .

وقد جعل الله هذه الأرض ذلولا للإنسان ليمشي في مناكبها ، ويأكل من رزقه تعالى ، وجعلها للإنسان مهادا وفراشا وبساطا ، فهي - مع كرويتها -

ممدودة للإنسان، يمكن أن يصل إلى فيها ويجول، ويزرع ويغرس، ويبني ويصنع، فقد وضع الله فيها من العناصر الالزمة لحياة الإنسان، وهيأ فيها من الأسباب المعينة له على القيام بمهامه في الأرض، فهي مهيبة لإنبات النبات، وإعاشه الحيوان، وحياة الإنسان.

ومن قديم قال نوح لقومه ما حكاه عنه القرآن: ﴿أَلَمْ ترَوا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طَبَاقًا ﴾١٥﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾١٦﴿ وَاللَّهُ أَنْتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾١٧﴿ ثُمَّ يُعِدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾١٨﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾١٩﴿ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُّلًا فِي جَاجَاتٍ ﴾٢٠﴾ (نوح: ١٥ - ٢٠).

وقال تعالى ممتنا على خلقه: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾٢١﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرَّعَاهَا ﴾٢٢﴿ وَالْجِبالَ أَرْسَاهَا ﴾٢٣﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلَا نَعِمْكُمْ ﴾٢٤﴾ (النازعات: ٣٠ - ٣٢).

وفي الآية إشارة إلى أن ماء الأرض مخرج أساساً من الأرض، أي من بحارها وجوفها.

وقال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَتَّقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾٢٥﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَّ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِي جَاجَاتٍ سُبُّلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾٢٦﴾ (الأنبياء: ٣٠ - ٣١).

وقال سبحانه ﴿وَالْأَرْضَ مَدَّنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَّ وَأَنْبَتَنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾٢٧﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾٢٨﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نَنْزِلُهُ إِلَّا بِقِدْرٍ مُعْلُومٍ ﴾٢٩﴾ (الحجر: ١٩ - ٢١).

وفي هذه الآيات إشارتان في غاية الأهمية:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ فهي حقيقة علمية، دلت

عليها حقائق العلم الحديث: أن كل نبات مكون من عناصر محددة من المعادن والأملاح والماء وغيرها وهي موزونة بالجرام والملي جرام.

والثانية: أن هذا الكون لا يسير جزافاً، ولا يضي اعتبرطاً، بل كل شيء فيه بقدار وحساب وميزان، ولو زادت كمية الماء في البحار عما هي عليه، أو نقصت، ولو زاد حجم الكرة الأرضية عما هو عليه، أو نقص، ولو زادت سرعة دوران الأرض حول نفسها أو حول الشمس أو نقصت، ولو زادت كمية الأكسجين عما هي عليه أو نقصت.. إلخ هذه الاحتمالات.. لو حدث ذلك ما قامت الحياة على الأرض.

وقال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَّنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتَنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ  
بِهِيجٌ ﴾ تَبَصِّرَةٌ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾١﴾ وَتَرَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مَبَارِكًا فَأَنْبَتَنَا  
بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾٢﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾٣﴾ رِزْقًا لِلْعَبَادِ﴾  
(ق: ٧-١١).

ولا ينافي تنزيل الماء المبارك من السماء أنه مخرج أصلاً من الأرض. فهو يخرج ويتبخر ويصعد إلى أعلى، ويكون السحاب المسخر بين السماء والأرض، ومن هذا السحاب يتزل الماء، وهو من جهة السماء، لا من السماء نفسها، كما هو معلوم اليوم لتلاميد المدارس.

وقد قال الشاعر العربي قدیماً في مدوحة:

فَضَلَّ عَلَيْهِ وَمَا لَهُ كَالْبَحْرِ يُطْرِه السَّحَابُ

وقد امتن الله تعالى في آيات عدة بتسيير البحر للإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ  
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي  
ذَلِكَ لَا يَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾٢﴾﴾ (الجاثية: ١٢، ١٣).

والبحر في اللغة يشمل العذب والمالح، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَّ  
بِالْبَحْرِينِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أَجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾  
(الفرقان: ٥٣).

وبهذا نرى التكامل والتعاون بين السماء والأرض في خدمة الإنسان: السماء بشمسها وقمرها ونجومها، والأرض بما فيها وبحارها وأنهارها ونباتها وحيوانها. كما قال الله تعالى ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلَا تَنْعَامُونَ﴾ (النازعات: ٣٣).

واقرأ هذه الآيات التي بين فيها القرآن كيف يهياً الطعام للإنسان، والمكونات الأساسية لإعداده له، يقول تعالى: ﴿فَلَيَنْظِرِ الإِنْسَانَ إِلَى طَعَامِهِ﴾  
﴿أَنَا صَبَّيْتَا النَّمَاءَ صَبَّا﴾ ٢٥﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقَّا﴾ ٢٦﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبَّا﴾ ٢٧  
﴿وَعِبَّا وَقَضَبَ﴾ ٢٨﴿وَزَيَّتُنَا وَنَخْلًا﴾ ٢٩﴿وَحَدَّاتِنَّ غُلْبًا﴾ ٣٠﴿وَفَاكِهَةَ وَآبًَا﴾ ٣١  
﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلَا تَنْعَامُونَ﴾ ٣٢ (عبس: ٢٤ - ٣٢)

ولقد عرَّفنا العلم الحديث كيف تتكامل الملكة الحيوانية، وكيف تصدر إحداها إلى الأخرى ما تستغني عنه، وتستورد منها ما تحتاج إليه، فهذه تتنفس ثاني أكسيد الكربون، وتفرز الأكسجين، ولا تقوم حياتها بغير ذلك، والأخرى عكسها تماماً، فلو كان الجميع يحتاج الأكسجين مثلاً، لنفتد الكمية المخلوقة منه، وهلكت الملكتان معاً، ولكن الله الذي خلق الجميع،نظم التعامل بين الملكتين على هذا النحو الرائع.

والأمر المهم والضروري في البيئة أن تظل عناصرها ومكوناتها الأساسية والكبرى متكاملة متعاونة فيما بينها، يؤدي كل منها دوره الذي خلقه الله له، دون أن يجور على غيره، ولا يجور عليه غيره، ويعطي غيره، كما يأخذ منه، وبهذا يأخذ حقه، ويؤدي واجبه.

وما أجمل ما قاله العلامة المناوي في (فيض القدير) في شرح حديث «مانع الزكاة يوم القيمة في النار»<sup>(١)</sup>.

«واعلم بأن الوجود كله متبعد لله على أداء الزكاة. انظر إلى الأرض التي هي أقرب الأشياء إليك تجدها تعطي أقرب الخلق إليها. وهم من على ظهرها. جميع برkatاتها، لا تبخل عليهم بشيء مما عندها، وكذا النبات يعطي ما عنده، وكذا الحيوان والسماء والأفلاك، الكل متعاون بعضه لبعض، لا يدخل شيئاً مما عنده في طاعة الله؛ لأن الوجود كله فقير بعضه إلى بعض، قد لزم الفقر وشملته الحاجة، فعطى بعضه على بعض. وإعطاؤه ما عنده هو زكاته. فمانع الزكاة قد خالف أهل السماء والأرض وجميع الموجودات، فلذلك وجب قتاله وقهره في الدنيا وأدخل النار في العقبى»<sup>(٢)</sup>.

---

(١) رواه الطبراني في الصغير عن أنس بن مالك وقال الهيثمي فيه سعد بن سنان وفيه كلام كثير وقد وثقه ورواه عنه أيضاً الرازبي في مشيخته. قال ابن حجر: إن كان هذا محفوظاً فهو حسن. وفيه رد على قول ابن الصلاح: لم يجد له أصلاً. انظر: فيض القدير للمناوي (٥٠٥/٥) ط: دار المعرفة بيروت.

(٢) انظر: فيض القدير (٥٠٥/٥).

(١)

### **التأصيل الشرعي لرعاية البيئة**

- ١ - علم أصول الدين ورعاية البيئة.
- ٢ - علم السلوك ورعاية البيئة.
- ٣ - علم الفقه ورعاية البيئة.
- ٤ - علم أصول الفقه ورعاية البيئة.
- ٥ - حلوم القرآن والسنة ورعاية البيئة.

## **التأصيل الشرعي لرعاية البيئة**

إن رعاية البيئة وحمايتها وإصلاحها والمحافظة عليها، ليست أمراً دخيلة على علوم الإسلام، والثقافة الإسلامية، وليس من ابتكار الغرب في هذا العصر، كما قد يتواهله من لم يتعمق في معرفة تراثنا العلمي والحضاري الإسلامي.

بل الحقيقة الجلية: أن رعاية البيئة تتصل بعدد من علومنا الإسلامية الأصيلة، كما سنكشف عنه النقاب في هذا الفصل من كتابنا.

فهي تتصل بعلم أصول الدين، أو علم التوحيد.

وتحتتصل بعلم السلوك والتزكية أو علم التصوف.

وتتحتتصل كذلك بعلم الشريعة أو علم الفقه.

وتتحتتصل أيضاً بعلم أصول الفقه ومقاصد الشريعة.

وتتحتتصل أخيراً بعلوم القرآن والسنة.

## ١- علم أصول الدين ورعاية البيئة

أما علم أصول الدين، فيحصل برعاية البيئة، من حيث إنه يجعل كل مكونات البيئة وعناصرها الجامدة والживة، العاقلة وغير العاقلة: كلها مخلوقات ساجدة لله تعالى، مسبحة بحمده.

فهي تشارك مع الإنسان في المخلوقية لله تعالى، كما قال سبحانه في كتابه: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفَنٌ وَمَنَافِعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ولهم فيها جمال حين تريهون وحين تسرحوه ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلْدَةٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيْرِ إِلَّا بِشَقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ والنحل: ٣-٨).

وهي تشارك مع الإنسان في سجودها لله تعالى، والانقياد لأمره، والإذعان لستته في الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغَدُوِّ وَالآصَابِ﴾ (الرعد: ١٥) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ (٤٨) ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكِبُرُونَ﴾ (النحل: ٤٩).

وهي كذلك تشارك مع الإنسان في تسبيحها لله رب العالمين، وإن كنا لا نفقه تسبيبها، كما قال تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ

**الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴿الْحَسْرٌ : ١﴾ ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿التَّغَابِنُ : ١﴾.

وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ﴿الْإِسْرَاءُ : ٤٤﴾.

ولكن الله تعالى ميز الإنسان على سائر مكونات البيئة بما وهبه من العقل والملكات الروحية، التي أهلها بها ليكون خليفة في الأرض، حاملاً أمانة التكليف فيها، وهي الأمانة التي صورها القرآن بقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيَّنَ أَنَّ يَخْمِلُنَّهَا وَأَشْفَقُنَّ مِنْهَا وَحَمَلَنَّهَا إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ﴿الْأَحْزَابُ : ٧٢﴾.

ولقد خلق الله الإنسان على طبيعة مزدوجة، ففيه العنصر الطيني الذي يجعله أهلاً لعمارة الأرض، وفيه العنصر الروحي الذي جعله يستحق التكريم والخلافة، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ (ص: ٧٢، ٧١) ﴿ص: ٧٢﴾ ﴿وَلَقَدْ كَرِمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيَّابَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمْنُ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ ﴿الْإِسْرَاءُ : ٧٠﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَتَحْنَ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿الْبَقْرَةُ : ٣٠﴾.

وقد عقد الله امتحاناً لأدم والملائكة ثبت فيه تفوق آدم في المجال العلمي على الملائكة، وبذلك استحق أن يكون خليفة في الأرض. ﴿وَعَلِمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلُّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالُوا أَنْبِئُنَا بِاسْمَاءِ هؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ

بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ اللَّمَّا أَقْلَعْتُكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ  
وَأَعْلَمُ مَا تَبَدُّونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٢﴾ (البقرة: ٣١-٣٣).

### دور الإنسان في البيئة،

ودور الإنسان هنا هو الدور الأساسي والرئيس، فكل ما في البيئة من مكونات مسخر له، وعليه أن يتعامل معها بما لا يجافي سنن الله في خلقه، ولا أحكام الله في شرعه، فيأخذ منها ويعطيها، ويرعى لها حقها، لتوتي له حقه، ويتمثل هذا الدور الإنساني في مهام ثلاثة، تعتبر هي الأهداف الكبرى للحياة الإنسانية، أو كما عبر الإمام الراغب الأصفهاني<sup>(١)</sup>، هي مقاصد الله تعالى من المكلفين:

المقصد الأول: عبادة الله تعالى، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّةِ  
وَالْإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦) والعبادة تشمل كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال، فهي تستوعب كل مجالات الحياة.

ومقصد الثاني: الخلافة لله في الأرض، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنِّي  
جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠) وخلافة الله إنما تتم بإقامة الحق والعدل، ونشر الخير والصلاح، كما قال الله لداود: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ  
خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلُّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾  
(ص: ٢٦).

ومقصد الثالث: عمارة الأرض، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ  
مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١) ومعنى (استعمركم): طلب إليكم أن تعمروها.

(١) في كتابه (الذرية إلى مكارم الشريعة) تحقيق الدكتور أبو اليزيد العجمي.

وعمارة الأرض إنما تتم بالغرس والزراعة والبناء، والإصلاح والإحياء،  
والبعد عن كل فساد أو إخلال.

وهذه المقاصد كلها متداخلة ومتكاملة ومترابطة، فعمارة الأرض تدخل في  
الخلافة، وكلتا هما ضرب من العبادة لله تعالى، كما أن العبادة تدخل في  
الخلافة، فلا خلافة بلا عبادة.

فلو قام الإنسان بهذا الدور، وحقق هذه المقاصد، لسعد الإنسان وأسعد  
من حوله، وأكل الناس من فوقهم ومن تحت أرجلهم، كما قال الله تعالى:  
**﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَأَتَقْرَبُوا لِفَتْحِنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾**  
(الأعراف: ٩٦) وقال: **﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكْرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْبِطَنَّ حَيَاةَ طَيِّبَةٍ﴾** (النحل: ٩٧).

## ٢- علم السلوك ورعاية البيئة

وأما علم السلوك والتزكية أو علم التصوف، وصلته بالبيئة ورعايتها، فلأن هذه الرعاية تدخل في دائرة (الخلق) الذي هو أحد ركني التصوف. كما عرفه أحدهم فقال: هو الصدق مع الحق، والخلق مع الخلق.

ولا ريب أن البيئة من جملة الخلق.

وقال بعض المتقدين من المشايخ: التصوف كله خلق، فمن زاد عليك في الخلق، فقد زاد عليك في التصوف.

وعلق على ذلك الإمام ابن القيم فقال: بل الدين كله خلق، فمن زاد عليك في الخلق، فقد زاد عليك في الدين.

وقال الكتاني: التصوف هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق، زاد عليك في التصوف<sup>(١)</sup>.

ولعل مما يؤيد هذا الحديث النبوي القائل: «إِنَّمَا بَعَثْتُ لِأَنْتَمْ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ (أو) مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»<sup>(٢)</sup>.

وقال بعضهم: الدين كله في قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ» (النحل: ١٢٨).

(١) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (٣٠٧/٢) بتحقيق الشيخ محمد حامد الفقي، طبعة السنة المحمدية.

(٢) رواه ابن سعد والبخاري في الأدب المفرد والحاكم والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة. انظر: صحيح الجامع الصغير (٢٣٤٩).

فالدين مجموع هذين الأمرين : التقوى مع الله ، والإحسان مع خلقه .

على أن كلا من التقوى والإحسان يمكن أن تكون مع الله ، ومع الناس . فالمكلف عليه أن يتقي الله في كل شيء ، وفي التعامل مع كل شيء ، ومنه البيئة بجميع عناصرها . كما أن عليه الإحسان في كل شيء ، كما في الحديث الصحيح «إن الله كتب الإحسان على كل شيء»<sup>(١)</sup> . ومنه الإحسان مع الله تعالى ، كما وصفه النبي صلى الله عليه وسلم ، كما في حديث جبريل : «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»<sup>(٢)</sup> .

ومن أعظم التوجيهات الإسلامية بالنسبة إلى البيئة : الإحسان بالبيئة بكل عناصرها : الإحسان بالإنسان ، والإحسان بالحيوان ، والإحسان بالنبات ، والإحسان بالماء ، والإحسان بالهواء ... إلخ . كما سنوضح ذلك بعد .

#### الدين المعاملة :

لقد شاعت عند جماهير المسلمين هذه الكلمة التي غدت عندهم من الحقائق الدينية ، وهي : الدين المعاملة ، حتى جعلها بعضهم حديثا نبويا ، وما هي بحديث ، ولكن معناها صحيح ، دل عليه القرآن والسنة .

وهم يريدون بهذه الكلمة : أن الدين ليس مجرد أداء الشعائر العبادية المعروفة ، ثم تسيء بعد ذلك معاملتك مع الخلق ، مع الإنسان والحيوان ، ومع الكون كله .

ومعنى أن الدين المعاملة : أن تحسن معاملتك في كل شيء : بدءا من المعاملة مع ربك ، والمعاملة مع نفسك ، أي ذاتك بكيانها الجسدي والعقلي والروحي ، ومعاملتك مع الناس من حولك قربهم وبعيدهم ، مسلمهم وكافرهم ، ومع الكائنات من حولك : جامدتها وحيتها ، صامتتها وناطقتها ، عاقلها وغير عاقلها .

---

(١) رواه مسلم عن شداد بن أوس ، وهو من أحاديث الأربعين النووية .

(٢) رواه مسلم عن عمر بن الخطاب برقم (٨) .

وقد رأينا القرآن الكريم يرد على اليهود دعواهم في حقيقة (البر) وهو يعني (التدین) حين أقاموا الدنيا وأقعدوها، من أجل تحويل المسلمين قبلتهم من القدس إلى مكة ، أو من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام ، وقالوا : ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ وأثاروا الشبهات والأقوایل حول القضية ، ونزلت فيها آيات طويلة في سورة البقرة ، كان فيها آية البر : ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَن تُؤْلِمَا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَ الْبِرُّ مَنْ أَمْنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حِبَّهِ ذُوِيِّ الْقُرْبَىِ وَالْيَتَامَىِ وَالْمَسَاكِينَ وَآتَى السَّبِيلَ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٧).

فيین في هذه الآية : بر العقيدة ، وبر العبادة ، وبر الخلق والسلوك ، وأن هذا هو حقيقة الصدق وحقيقة التقوى . وليس مجرد التوجه إلى مشرق أو مغرب .

وفي القرآن تقرأ سورة الماعون : ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتَيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمُسْكِنِينَ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصْلِكِينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يَرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ (الماعون: ١ - ٧) .

فيبيت السورة أن المكذب بالدين هو ذلك الإنسان الذي لا قلب له ، والذي يسيء التعامل مع الضعفاء من الناس : الذي يدع اليتيم ، يدفعه بعنف ويقهره ، ولا يبحث الناس على طعام المسكين ، فلم يكتفى الإسلام من الإنسان أن يطعم المسكين ، بل عليه واجب اجتماعي آخر ، وهو حضن الآخرين وتحريضهم على إطعام المسكين . وإطعام المسكين : كناية عن رعاية ضروراته وحاجاته الأساسية كلها ، فلا يقبل أن تطعمه وتدفعه عارياً أو مشرداً لا مأوى له .

وفي السنة النبوية، نجد تأكيد هذا المعنى في مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»<sup>(١)</sup>.

وفي الحديث الآخر: «رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر»<sup>(٢)</sup>.

وهذا إذا لم يشمر الصيام والقيام في نفسه تقوى الله، وحسن التعامل مع خلقه، فدل ذلك أن عبادته مدخلة، ولم تستكمل شرائطها.

ومن المعلوم لدى المسلمين: أن الإنسان المسلم يستطيع أن يحول أعماله كلها - حتى المباحثات منها - إلى عبادات وقربات إلى الله تعالى، وذلك بالنسبة الصالحة. بمعنى أن ينوي بعملة ابتغاء وجه الله تعالى ومثوابته في الآخرة، فهذا هو الذي يجعل عمله الدنيوي من زرع وغرس وعمارة للأرض، وقيام بصنعة واحتراف: عبادة لله تعالى إذا أتقن عمله ووفاه حقه، ولم يشغله عن واجب<sup>(٣)</sup>.

بل يمكنه أن يجعل من أكله وشربه ومبادرته لزوجته: طاعة وعبادة لله تعالى، إذا صحت نيته. كما جاء في الحديث الصحيح: «وفي بعض أحدكم صدقة. قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدهنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟ قال: أليس إذا وضعها في حرام كان عليه وزر، فكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر» رواه مسلم.

وبهذه الروح، وبهذه النية، يتعامل المسلم مع البيئة ومكوناتها من حوله، فهو يتبع لله سبحانه برعايتها، ويقترب إليه بكل ما يقدمه صيانة لها، ورفقا

(١) رواه البخاري في كتاب الصوم عن أبي هريرة.

(٢) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة وذكره الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣٤٨٨) وروى الطبراني نحوه عن ابن عمر، وأحمد والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة، نفسه (٣٤٩٠).

(٣) انظر: كتابنا (العبادة في الإسلام) فصل (مجال العبادة في الإسلام).

بها وإصلاحها . من كل ما مستحدث عنه : من التشجير والتخصير ، ومن الإحياء والتعمير ، ومن النظافة والتطهير ، ومن الرفق والإحسان ، ومن المحافظة على موارد البيئة وثرواتها ، والمحافظة عليها من كل أنواع الإضاعة والإتلاف ، والإفساد في الأرض .

ولذا قال تعالى : ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمْعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: ٥٦) .

فقرن في الآية الكريمة النهي عن الإفساد في الأرض - مثل تلويث البيئة والإخلال بتوازنها - بدعاة الله تعالى خوفاً وطمعاً ، وهو ربط للعبادة بالمعاملة ، ثم بينت الآية أن رحمة الله قريب من المحسنين ، سواء كان إحسانهم في إصلاح الأرض وعمارتها أم في حسن الدعاء لله والتعبد له . فهو لاء المحسنون هم الذين تقترب منهم رحمة الله عز وجل .

#### الود والحب للبيئة :

ومن أجمل ما جاء به الإسلام في علاقة الإنسان بالبيئة وبالكون عامة من حوله : إنشاء عاطفة الود والحب لما حول الإنسان من كائنات جامدة أو حية ، فالأشياء من الدواب والطيور يراها أنها أمثلنا ، لكل أمة خصائصها وطرائقها ، كما نبه على ذلك القرآن الكريم بقوله : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحِيهِ إِلَّا أُمَّةٌ أَمْتَلُكُمْ﴾ (الأنعام: ٣٨) .

وغير الأحياء من الكائنات يراها ساجدة مسبحة لله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ (الحج: ١٨) .

وقال سبحانه : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء: ٤٤) .

فلا عجب أن يضمر لهذه الكائنات الساجدة المسبحة لله: الود والحب، لأنها تعبد الله تعالى، كما يعبده هو.

وقد عبر النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا الود وهذا الأنس بهذه المخلوقات بهذا الحديث الرائع الذي قاله وهو عائد إلى المدينة من غزوة تبوك، وقد أشرف على المدينة، ولاح له جبل أحد، فقال: «هذه طابة، وهذا أحد، جبل يحبنا ونحبه»<sup>(١)</sup>.

هذا مع أن هذا الجبل وقعت بجواره غزوة أحد، التي استشهد فيها سبعون من المسلمين، على رأسهم عمّه حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله، وربما لو كان أحد غيره لتشاءم من هذا الجبل، ولكنه عبر عن عاطفته نحوه بهذه الجملة المبينة الرائعة «يحبنا ونحبه» فكأنما جعل من الجبل كائناً حياً عاقلاً له قلب يحس ويحب، فلم يكتف بأنه يحب أحداً، بل قال عن الجبل «يحبنا» فما أجملها وأروعها وأصدقها من علاقة.

فأي أنس بالبيئة، وأي إيناس لها أوضح مما دل عليه هذا التعبير النبوى الجميل.

وكان الصحابة رضي الله عنهم، يتعاملون مع البيئة بهذا الود والحنين، كما نرى في حنين بلال إلى مكة وأوديتها ومياهها وجبالها ونباتاتها، وشوقه إليها، وإنشاده في ذلك:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بoward، وحولي إذخر وجليل؟

وهل أردن يوماً مياء مجنة؟ وهل يبدون شامة وطفيل؟

وكل هذه الأشياء في مكة كون هذا الصحابي الجليل عاطفة نحوها كأنها عاطفة المحب العاشق لمن يهواه.

---

(١) متفق عليه عن أبي حميد كما في المؤلو والمرجان (٨٨٠) وطابة: اسم من أسماء المدينة.

**علاقة المسلم بالكون من حوله:**

وإن علاقة المسلم بالكون من حوله لهي علاقة متميزة.

**الكون آية:**

فهو ينظر إلى الكون بوصفه آية من آيات الله جل جلاله ، فكل ما فيه يدل على الله تعالى دلالة الصنعة على الصانع ، والأثر على المؤثر ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لُّؤْلُؤَى الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران : ١٩٠).

وقال تعالى : ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَى وَالَّذِي قَدَرَ فَهَدَى﴾ (الأعلى : ٣ - ١) وهذه الأعمال الأربع وأثارها من أدل الدلائل على الله تبارك وتعالى : الخلق ، والتسوية ، والتقدير والهداية ، وال الحديث عن كل منها يطول<sup>(١)</sup>.

وقد قال علماؤنا قدسوا : الكون هو المصحف الصامت ، والقرآن هو المصحف الناطق . أو الكون هو الكتاب المنظور ، والقرآن هو الكتاب المسطور .

**وقال الشاعر :**

تأمل سطور الكائنات ، فإنها من الملأ الأعلى إليك رسائل  
وقد خط فيها لو تأملت سطرها : إلا كل شيء ماخلا الله باطل  
وعلاقة المسلم بالكون هنا ، تتمثل في (الاعتبار والتأمل والنظر والتفكير)  
كما قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ افْتَرَبَ أَجَلَهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف : ١٨٥).

(١) انظر حديثنا عن هذه الشعوب الأربع في كتابنا : (وجود الله) - (دليل الكون).

﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّدُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس: ١٠١).

الكون نعمة

ويينظر المسلم إلى الكون أيضاً بوصفه نعمة من الله تعالى عليه، أو قل: إنه حافل بنعم الله التي أسبغها على الإنسان ظاهرة وباطنة. كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَةً ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان: ٢٠).

وفصل بعض هذه النعم في بعض الآيات، كما في قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿الَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي التَّبَغْرِيَ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۚ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ ۚ ۚ وَأَتَكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصِنُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۚ ۚ ۚ﴾ (إبراهيم: ٣٤ - ٣٢).

فيإذا كان الغربيون يعتبرون أساس المشكلة الاقتصادية هو قلة الموارد في مقابل كثرة البشر المتزايدة، فإن القرآن يرى أن نعم الله لا يمكن إحصاؤها، وأن موارده في الكون غزيرة، ولكن المشكلة تكمن في الإنسان الظلم والكفار.

فهو الذي يمكن أن يسبب الخلل في الكون وفي أرزاق الخلق بظلمه وتجاوزه، أو بيطره وكفرانه بالنعمة.

ومن هنا لا يمكن علاج ضعف التربة أو نقص الموارد أو غير ذلك ما مالم تعالج ضعف الإنسان من داخله، ودخوله الظلم والكفران عليه.

وفي القرآن سورة تسمى (سورة النحل) وقد سماها بعض السلف (سورة النعم) لأن الله تعالى ذكر فيها كثيراً من نعمه على عباده، منها: الأنعام ﴿وَالأنعامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفَءٌ وَمَنَافِعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيَحُونَ وَحِينَ تَسْرِحُونَ﴾ ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلْدِ لَمْ تَكُونُوا بِالغَيْرِ إِلَّا بِشِيقَةِ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (النحل: ٥-٧).

ومنها: دواب الركوب ﴿وَالخَيْلَ وَالبَيْغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكِيْوْهَا وَزِيَّنَةَ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٨).

ومنها: الماء الذي به حياة الإنسان والحيوان والنبات. ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ ﴿يُبَتِّلُكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الْثَمَرَاتِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَا يَةٌ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ١٠-١١).

ومنها: ما سخر الله للإنسان من عالم الأفلak وعالم الأرض ﴿وَسَخَرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿وَمَا ذَرَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَةٌ لِقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ١٢-١٣).

ومنها: عالم البحار الذي يشمل ثلاثة أرباع الكره الأرضية ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخِرُجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبِسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَاطِرًا فِيهِ وَلِتَبَتَّغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشَكُّرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصِّنُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النحل: ١٤-١٨).

وهنا تجمع هذه السورة فيما ذكرت بين اعتبار هذه الأشياء (آية) دالة على

الله تعالى ، لقوم يتفكرُون ، أو لقوم يعقلُون ، أو لقوم يذكرون ، وبين اعتبارها نعمة تستوجب الشكر (ولعلكم تشکرون).

فالمسلم يتعامل مع الكون بالاعتبار تارة ، وبالشکر تارة أخرى . يقول تعالى في نعمة النبات والزرع : « وَآتَيْنَا لَهُمُ الْأَرْضَ الْمِيَّةَ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فِيمِنْهُ يَأْكُلُونَ ٢٣ » وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ تُخْيِلُ وَأَعْنَابٍ وَفَجَرْنَا فِيهَا مِنَ الْعَيْوَنِ ٢٤ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلْتُهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ٢٥ » (يس : ٣٣ - ٣٥).

وفي نفس السورة يذكر نعمة الأنعام : « أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلْتُمْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَا لَكُونُ ٧١ » وَذَلِكُنَا لَهُمْ فِيمِنْهَا رُكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ٧٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ٧٣ » (يس : ٧١ - ٧٣) وتكرار هذه الفاصلة (أفلا يشکرون) لتأكيد طلب الشکر ، والحضور عليه.

وشکر النعمة هو استخدامها فيما خلقت له ، وهو ما يعين الناس على تحقيق أهدافهم الدنيوية والأخروية ، وهو الذي يؤدي إلى حفظ النعم ، بل زيايتها وثائقها ، وفق سنن الله تعالى .

يقول تعالى : « وَإِذْ تَأْذَنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَا زِيَادَكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ » (إبراهيم : ٧)

وهذه النظرة إلى الكون لها أهميتها في نفس الإنسان وفکره ووجوداته ، فالكون ليس إله ، يرجى ويخشي ، كما تصوره بعض الديانات ، التي تؤلهه أو تؤله أجزاء منه ، مثل الشمس والقمر والنجوم في السماء ، ومثل بعض الجبال أو الأنهار ، أو الأشجار ، أو الحيوانات في الأرض .

والكون ليس عدوا للإنسان يريد أن (يقهره) ، كما يعبر الغربيون عادة عن (قهر الطبيعة) .

بل هو مخلوق مسخر للإنسان، ولخدمة الإنسان، ومنفعة الإنسان ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (البقرة: ٢٩) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ (الجاثية: ١٣) .

فهو يشترك مع الإنسان في مخلوقيته لله تعالى ، ويشارك مع المسلم في سجوده وتسبيحه لله جل شأنه ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التغابن: ١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُ وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ﴾ (الحج: ١٨) فهذه المخلوقات كلها في العالم العلوي والعالم السفلي ، ساجدة لربها سبحانه . ما عدا الناس فكثير منهم الساجد ، ومنهم من لا يسجد ، ومنهم من لا يسجد له تعالى ، جاحدا أو مشركا . وقد نقلنا في الفصل السابق عن الإمام المناوي أن الكون كله متبع لله تعالى .

#### الاستمتاع بالجمال في الكون :

ومن روائع التعاليم الإسلامية : التنبية على (الجانب الجمالى) في هذا الكون ، ليستمتع الإنسان به ، ويغذي وجدانه ، كما يستمتع بـ (الجانب النفعي) الذي يغذى جسمه ، ويحقق مصلحته .

فمن الطيبات التي أحلها الله لعباده وامتن بها عليهم في كتابه : طيبات الجمال والزينة .

فقد قال تعالى في معرض الإنكار على الذين حرموا الزينة والطيبات من الرزق : ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا مِنْ رِزْقِنَا مَا شَاءَتُمْ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُ الْمُسْرِفِينَ ﴿٢١﴾ قُلْ مَنْ حَرَمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الأعراف: ٣٢ ، ٣١).

أمر الله ببني آدم بأخذ الزينة، كما أمرهم بالأكل والشرب، ليتحقق في الحياة عنصر الجمال بالزينة، وعنصر البقاء بالطعام والشراب، فلم يقصر الإسلام اهتمامه على ما ينفع، بل شمل ما ينفع وما يلذ معا.

وقد لفت القرآن الأنظار إلى عنصر الجمال والزينة في الحياة في أكثر من موضع، كقوله تعالى في معرض الامتنان بفوائد الأنعام: ﴿وَالأنعامَ خلقُهَا لَكُمْ فِيهَا دِفَءٌ وَمَنَافِعٌ وَمِنْهَا تَأْكِلُونَ﴾ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْيَحُونَ وَحِينَ تَسْرِحُونَ﴾ (النحل: ٦، ٥) إلى أن يقول عن دواب الركوب: ﴿وَالخَيْلَ وَالْبَغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكِبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٨).

فانظر كيف اهتم كتاب الله بذكر الجمال والزينة، في سياق ذكر المنافع المادية المباشرة، ليرقى بالذوق الإنساني، ويغرس في وجدان المسلم الشعور بالجمال، والإحساس بنعمة الله تعالى فيه.

وبعد ذلك بآيات قليلة في السورة نفسها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكِلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبِسُونَهَا﴾ (النحل: ١٤)، فالخلية شيء جميل لا شيء نافع كأكل لحم السمك الطري. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةً أَوْ مَتَاعً زِيَّدَ مِثْلَهُ﴾ (الرعد: ١٧)، فالمعدن يطرق أو يصهر أو يصلب بواسطة النار ابتغاً أمررين: إما الانتفاع به في صناعة أو زراعة أو حرب ونحو ذلك وهذا هو المتاع، وإما ابتغاً التجمل والتزيين كالسوار والطوق والخاتم والقرط وغيرها، وهذا هو الخلية، ومثاله دلالة هنا: أن القرآن قدم الخلية على المتاع.

إن القرآن في عرضه لخصائص الأشياء، وما تقدمه من خدمة للناس، يعني بعنصر الجمال مع عناصر النفع الاقتصادي، كقوله تعالى في معرض الامتنان بالماء وما يحيى به من الزرع والنبات والشجر: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ

بَهْجَةٌ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ﴿النَّمَلُ: ٦٠﴾، ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا  
أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَرَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهْجَةً ﴿الْحِجَّةُ: ٥﴾، ﴿وَالنُّخْلَ  
بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَصِيدٌ﴾ (ق: ١٠)، فالبهجة في الخدائق، وفي أزواج النبات،  
وفي طلع النخل المنضد، كلها عناصر جمال ينبع عليها القرآن المجيد، ويوجه  
إليها المشاعر والأحساس، لتدرك من ورائها جمال صانعها وكماله: ﴿صُنْعَ  
اللَّهِ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (النَّمَلُ: ٨٨)، ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾  
(السجدة: ٧).

والكواكب يذكر القرآن منافعها من الهدایة للسارين، والرجم للشياطين،  
ولا ينسى عنصر الجمال فيها، حين يذكر في غير سورة أن الله قد زين بها  
السماء: ﴿إِنَّا زَيَّنَاهُ السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَافِكِ﴾ (الصفات: ٦)، ﴿وَزَيَّنَاهَا  
لِلنَّاظِرِينَ﴾ (الحجر: ١٦)، ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَاهُ السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ (الملك: ٥).

فإذا كان الشاعر يرى الجمال في كل شيء بحساسته الشاعرية الفنية، فإن  
المؤمن يرى الجمال في كل شيء، بحساسته الإيمانية الروحية، التي يرى بها  
جمال الصانع فيما صنع ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (النَّمَلُ: ٨٨).

## ٤- علم الفقه ورعاية البيئة

وأما علم الفقه وعلاقته برعاية البيئة وحمايتها والمحافظة عليها من كل ما يضر بها ويفسدها، فهي علاقة واضحة المعالم.

فعلم الفقه هو العلم الذي ينظم علاقة الإنسان بربه، وعلاقة الإنسان بنفسه، وعلاقة الإنسان بأسرته ومجتمعه، وعلاقة الإنسان بالكون من حوله، وفق الأحكام الشرعية الخمسة المعروفة، وهي: الوجوب والاستحباب، والحرمة، والكراهية، والإباحة.

ومن ثم قرر فقهاء الإسلام: أن الشريعة الإسلامية حاكمة على جميع أفعال المكلفين، بحيث لا يخلو فعل من الأفعال عن حكم من هذه الأحكام الشرعية. فلا غرو أن تستوعب شئون الدنيا والآخرة، وتضم العبادات والمعاملات، وتشمل العلاقة بالخلق وال العلاقة بالخلق، وتضم في رحابها الاقتصاد والسياسة والاجتماع والتربية والثقافة، وكل ما يتصل بالحياة الإنسانية.

وقد سألني أحد الناس، وأنا متوجه إلى المنتدى العالمي الأول للبيئة من منظور إسلامي، وقلت له: إنني عضو في اللجنة الاستشارية العليا لهذا المنتدى، وإنني أعددت بحثاً في هذا الشأن، أرجو أن أوسعه حتى يكون كتاباً، فقال لي في عجب ودهشة: وهل للإسلام دخل في البيئة وحمايتها؟ قلت له: نعم، له دخل كبير، ولهم أحكام وتعاليم شتى. وأشارت له إلى شيء من هذه التعاليم، وبعضها في غاية الوضوح، فعجب كيف جهل هذا؟ وكيف لا يعلم هذا لأنينا وبناتنا؟

والواقع أن كل من له خبرة بالفقه الإسلامي، واطلاع على مصادره، سواء الفقه المذهبي أم الفقه العام أو المقارن، يتبين له أن للبيئة صلة عميقة وواسعة بهذا الفقه، وبكثير من أبوابه.

فأول ما يتصل بالبيئة من الفقه تجده في كتاب (الطهارة) كما يتضح ذلك في جملة أحكام ثبتت بالقرآن الكريم والسنّة النبوية، وإجماع الأمة.

ونجد للبيئة ورعايتها علاقة بالصلة وأحكامها، وعلاقة بالزكاة والصدقات والأوقاف .. وما إليها.

ونجد للبيئة ورعايتها علاقة بالحج والحرم والإحرام، وتحريم الصيد وقطع النباتات ونحوها مما يتصل بما يسمى (البيئة المحمية).

ونجد للبيئة علاقة بـ (إحياء الموات) في فقه المعاملات.

ونجد للبيئة ورعايتها علاقة بالزراعة والغرس والمزارعة والمساقاة.

ونجد للبيئة ورعايتها علاقة بالبيوع وما يتصل بها، وبيع الماء ونحوه، وتملك الماء والكلأ والنار والملح وما فيها من أحكام.

ونجد للبيئة علاقة بكتاب النفقات، وخصوصاً على البهائم وما لها من حقوق على ملوكها، وما الواجب إذا أضاعوها وأهملوا فيها.

ونجد للبيئة علاقة بالجهاد، وماذا يباح فيه من إتلاف وما لا يباح.

إلى آخر هذه الأبحاث المتصلة بالبيئة، وتدخل في أبواب متفرقة من أبواب الفقه، الذي ينظم الحياة الإسلامية كلها بأحكام الشرع، ويقود الدورة الحضارية للأمة المسلمة، باعتبارها أمة صاحبة رسالة ومنهج متميز.

على أن الفقه لا يتصل بالبيئة بوصفه (أحكامًا) فقط، بل يتصل بالبيئة اتصالاً وثيقاً بوصفه (قواعد كافية) كذلك.

فمما لا يرتاب فيه فقيه: أن القواعد الفقهية الشهيرة التي ألفت فيها كتب

كثيرة، قديمة وحديثة، يدخل كثير منها في أمر البيئة، وينظمها ويحميها، ويوفر لها الرعاية المنشودة.

ومن أشهر هذه القواعد: قاعدة (لا ضرر ولا ضرار) وهي مأخوذة من نص حديث نبوي، صصححه العلماء بمجموع طرقه، ولكن الحديث نفسه مقتبس من نصوص آيات قرآنية عدّة، تبني الضرر والضرار، كقوله تعالى في نفي الضرر: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء: ٢٩) وقوله: ﴿وَلَا تُنَقِّرُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلِكَةِ﴾ (البقرة: ١٩٥) وفي نفي الضرار قال تعالى: ﴿لَا تُضَارُّ وَالَّذِي بُولَدَهَا وَلَا مَوْلُودٌ لُّهُ بِوَلَدِهِ﴾ (البقرة: ٢٣٣) ﴿وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ (البقرة: ٢٨٢) ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ (البقرة: ٢٣١).

وهذه القاعدة الكلية يتفرع عنها قواعد جزئية شتى قررها الفقهاء. مثل قولهم:

الضرر يزال بقدر الإمكان (ولا سيما الضرر الفاحش).

الضرر لا يزال بضرر مثله (بله بما هو أكبر منه).

الضرر يدفع بقدر الإمكان.

يتحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى.

يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام.

الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف.

إذا تعارض مفسدتان روعي أعظمهما ضررا بارتكاب أخفهما.

يختار أهون الشرين.

درء المفاسد أولى من جلب المنافع.

وهذه من القواعد الشرعية التي اعتمدتها (مجلة الأحكام العدلية) وجعلتها في مقدمة موادها التي قننت بها جوانب المعاملات في الفقه الحنفي ، ورتبت عليها أحكاماً شتى .

ومثل ذلك قاعدة (الضرورات تبيح المحظورات) وهي قاعدة مستنبطة من نصوص القرآن الكريم في خمس آيات ، بعضها في القرآن المكي ، مثل قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَقَدْ فَصَلَ لَكُمْ مَا حَرَمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضطُرْرُتُمْ إِلَيْهِ ﴾ (الأنعام: ١١٩) .

وقوله في السورة نفسها : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مِيتَةً أَوْ دَمًا مُسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ حِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَكَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغِرٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الأنعام : ١٤٥) .

وجاء هذا التحرير واستثناء حالة الضرورة في سورة النحل المكية أيضاً .

وجاء التحرير والاستثناء في سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَكَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغِرٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمٌ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة : ١٧٣) .

وكذلك جاء في سورة المائدة وهي من أواخر ما نزل من القرآن .

وقد تفرع عن هذه القاعدة عدة قواعد أخرى منشقة منها .

مثل قاعدة : (الضرورات تقدر بقدرها). وبعضهم يصوغها بقوله : (ما أبىح للضرورة يقدر بقدرها).

وكذلك قاعدة : (الاضطرار لا يبطل حق الغير).

وقاعدة : (الحاجة تنزل منزلة الضرورة ، خاصةً كانت أو عامة).

وقاعدة : (ما جاز لعذر بطل بزواله).

وقاعدة: (إذا زال المانع عاد الممنوع).

وهذه كلها أيضاً من قواعد المجلة، وهي منصوص عليها في كتب الأشباء والنظائر للسيوطى الشافعى وابن نجيم الحنفى.

وهذه القواعد وأمثالها، وهي كثيرة معروفة، لها وزنها وأهميتها حينما نريد أن نقنن الأحكام المتعلقة برعاية البيئة والحفاظ عليها، فسنرى أننا في أشد الحاجة إليها عند إصدار تقنين حديث للعناية بالبيئة من منظور إسلامي.

ومن المعلوم: أن العقوبات في الشريعة نوعان: عقوبات محددة منصوص عليها في جرائم معينة، وهي المعروفة في الفقه باسم الحدود والقصاص.

وعقوبات غير منصوص عليها، وهي العقوبات (التعزيرية). وهي المفروضة إلى رأي الإمام أو القاضي، وهذه العقوبة في كل معصية لا حد فيها ولا كفاره. وهي تشمل معاصي كثيرة، وخصوصاً ما يتعلق بحقوق العباد ومصالحهم، فيدخل فيها الحفاظ على البيئة دخولاً أولياً.

ويكتننا أن نقنن العقوبات التعزيرية في عصرنا هذا، ولا سيما في حق من يسيئون إلى البيئة، ويتجاوزون الحدود في التعامل معها، من أصحاب المصانع والشركات الكبيرة، التي لا تبالي -في سبيل مكاسبها- أن تضر المجتمع كله.

والشريعة الإسلامية -بجميع مذاهبها وإجماع فقهائها- توجب حماية المجموع من تجاوزات الأفراد، وإن كان في ذلك حجر على حرياتهم الفردية، فإن حرياتهم ليست مطلقة، بل هي مقيدة بأن لا تضر الآخرين.

وأصل هذا: الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره عن النعمان بن بشير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مثلكم القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها،

فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبتنا خرقة ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم كجوا ونجوا جميعاً»<sup>(١)</sup>.

فلم يعذر الذين في أسفل السفينة بحسن نيتهم، وأنهم قالوا: «لو أنا خرقنا في نصيبتنا خرقة، ولم نؤذ من فوقنا! لأن عملهم هذا يؤدي إلى غرق السفينة وأهلها جميعاً، فوجب الأخذ على أيديهم حفاظاً على مصلحة المجموع، ودفعاً للضرر عنهم».

---

(١) رواه البخاري في كتاب الشرك برقم (٢٤٩٣).

#### ٤. أصول الفقه ورعاية البيئة

إن المحافظة على البيئة لا يؤيدتها ويؤكدتها الفقه وحده، بل تؤيدها وتؤكدتها كذلك (أصول الفقه). وخصوصاً (مقاصد الشريعة) التي بين فيها الأصوليون: أن الشريعة إنما جاءت لإقامة مصالح العباد في المعاش والمعاد، أو في العاجل والأجل. وأن مقصود الشريعة من الخلق هي حفظ دينهم وأنفسهم ونسلهم وعقولهم وأموالهم.

وهي التي يسمونها (الضروريات الخمس) ويعنون بها: المصالح الأساسية التي لا تقوم الحياة الإنسانية إلا بها. ودونها في الرتبة (ال حاجيات) وهي المصالح التي يمكن أن يعيش الإنسان بدونها، ولكن تكون حياته في مشقة وحرج وضيق وعسر. ودونها في الرتبة (التحسينات) وهي ما نعبر عنه بلسان عصرنا بـ (الكماليات) التي بها تجمل الحياة وتخلو.

وأول من وضع اللبنات الأولى لهذا البناء الشامخ، هو حجة الإسلام أبو حامد الغزالى رحمه الله، وذلك في كتابه (المستصفى من علم الأصول) في حديثه عن المصلحة المرسلة.

وقد جاء بعده الإمام عز الدين بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ) فصنف كتابه القيم الذي سماه (قواعد الأحكام في مصالح الأنام) ليقرر ويؤكد أن الشريعة إنما جاءت لتحقيق مصالح الخلق في الدنيا والآخرة. وما قال رحمه الله في مطالع كتابه؛ وبيان مقاصده:

«والشريعة كلها مصالح: إما تدرأً مفاسد أو تجلب مصالح فإذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فتأمل وصيته بعد ندائها، فلا تجد إلا خيراً

يحدث عليه، أو شرًا يزجرك عنه، أو جمعاً بين الحث والزجر، وقد أبان في كتابه ما في بعض الأحكام من المفاسد حثا على اجتناب المفاسد، وما في بعض الأحكام من المصالح حثا على إتيان المصالح<sup>(١)</sup>.

ثم قال في موضع آخر:

لو تتبينا مقاصد ما في الكتاب والسنة، لعملنا أن الله تعالى أمر بكل خير، دقه وجله، وزجر عن كل شر، دقه وجله. فإن الخير يعبر به عن جلب المصالح، ودرء المفاسد، والشر يعبر به عن جلب المفاسد، ودرء المصالح. وقد قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يُرَأَهُ ۚ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يُرَأَهُ﴾ (الزلزلة: ٧، ٨) وهذا ظاهر في الخير الخالص، والشر المحض. وإنما الإشكال إذا لم يعرف خير الخيرين، من شر الشررين. أو يعرف ترجيح المصلحة على المفسدة، أو ترجيح المفسدة على المصلحة، أو جهلنا المصلحة والمفسدة . . . إلى أن قال :

«وأجمع آية في القرآن للحث على المصالح كلها، والزجر عن المفاسد بأسرها، قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠) فإن (الألف واللام) في العدل والإحسان للعموم والاستغراب، فلا يبقى من دق العدل وجله شيء إلا اندرج في قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ ولا يبقى من دق الإحسان وجله شيء إلا اندرج في أمره بالإحسان. والعدل: هو التسوية والإنصاف، والإحسان: إما جلب مصلحة أو دفع مفسدة . . وكذلك (الألف واللام) في ﴿الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ عامة مستخرقة لأنواع الفواحش، ولما ينكر من الأقوال والأعمال. وأفرد البغي - وهو ظلم الناس - مع اندراجها في الفحشاء والمنكر، للاهتمام به . . . كما أفرد ﴿وَإِيتَاءِ

(١) قواعد الأحكام (٩/١) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.

ذى القربى<sup>٤</sup> بالذكر، مع اندراجه في العدل والإحسان<sup>(١)</sup>. أى للاهتمام به أيضاً.

ثم جاء الأصوليون من بعد ذلك، وأكدوا ما قرره الغزالى من الضروريات الخمس، ومقدمهم في ذلك العلامة المالكى الإمام أبو إسحاق الشاطبى، الذى أفرد قسماً كبيراً من كتابه الشهير (الموافقات) أناض فيه عن مقاصد الشريعة يقول الإمام الشاطبى: «وقد اتفقت الأمة، بل سائر الملل، على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الضروريات الخمس، وهى الدين والنفس والنسل والمال والعقل»<sup>(٢)</sup>.

وفي موضع آخر قال الشاطبى:

«فأما الضرورية فمعناها أنها لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهاجر وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين».

«والحفظ لها يكون بأمرتين: أحدهما: ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود؛ والثاني: من يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم»<sup>(٣)</sup>.

وبهذا أعطانا هذا التوجيه الأصولي طريقين لإصلاح البيئة ورعايتها:

- ١ - طريق إيجابي أو علاجي أو (وجودي) بتعبير الشاطبى .
- ٢ - طريق سلبي أو وقائى بتعبير عصرنا .

وهذا ما جعلنا نختار عنوان (الرعاية) ونؤثره على عنوان (الحماية) للبيئة ليشمل الجانبيين: الوجودي والعدمي ، كما عبر الشاطبى .

(١) المصدر السابق (٢/١٦١).

(٢) المواقفات (١/٣٨).

(٣) المصدر السابق (٢/٨).

ولا ريب أن حماية البيئة والمحافظة عليها وإصلاحها ورعايتها، تدخل في (الضروريات الخمس) كلها، إذا تأملنا الأمر بعمق وتدبر.

حفظ البيئة من (المحافظة على الدين)،

فهي تدخل - أول ما تدخل - في المحافظة على (الدين). وهي الضرورية الأولى، وذلك لأن الجنائية على البيئة ينافي جوهر التدين الحقيقي، ويناقض مهمة الإنسان في الأرض، ويخالف ما أمر الله تعالى به الإنسان بالنسبة للمخلوقات من حوله.

إن الجحود على البيئة والقسوة عليها، والإساءة إليها ينافي (العدل والإحسان) اللذين أمر الله بهما في كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ (النحل: ٩٠).

وهي تنافي مهمة (الاستخلاف) التي كلف بها الإنسان في الأرض، فهذه الأرض ليست أرضه، ولا ملكه، إنما هي أرض الله تعالى وملكه، جعله خليفة فيها، يحكم فيها بأمره، ويعمل فيها وفق سنته في خلقه، وأحكامه في شرعيه. كما قال تعالى: ﴿Qُلْ يَا عِبَادَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ (الزمر: ١٠).

وقال تعالى على لسان نبيه صالح: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ (هود: ٦٤).

وقال سبحانه على لسان موسى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (الأعراف: ١٢٨).

فلا يجوز للإنسان أن ينسى أنه مستخلف في ملك الله، وأرض الله، ويتصرف كأنه هو السيد المالك الذي لا يسأل عما يفعل.

وهي أيضاً تنافي ما أمر الله به من عمارة الأرض، وإصلاحها، وما نهى عنه من إفسادها وتخريبيها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ (الأعراف: ٥٦).

وقد بين الله عز وجل أنه لا ينال مشوبته ولا رضاه في الدار الآخرة أهل العلو (أي الطغيان) والفساد في الأرض: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص: ٨٣).

حفظ البيئة من المحافظة على النفس؛

ويدخل حفظ البيئة وحمايتها وإصلاحها ضمن الضرورة الثانية، وهي (المحافظة على النفس).

ومقصود بالمحافظة على النفس: المحافظة على الحياة البشرية، وعلى سلامه البشر وصحتهم.

فلا شك أنه بات معلوماً اليوم أن فساد البيئة وتلوثها، واستنزاف مواردها، والإخلال بتوازنها، أصبح يهدد حياة الإنسان اليوم، وكلما استمر تَعَدِّي الإنسان على البيئة، ازداد الخطر على الإنسان وحياته يوماً بعد يوم.

والإسلام حريص على حياة الإنسان، ويعتبر قتل النفس التي حرم الله بغیر حق أكبر الجرائم بعد الشرك بالله تعالى.

بل قرر القرآن قيمة النفس الإنسانية، وقدسيّة الحياة في الأديان قبل الإسلام، وقرر في ذلك: ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَانَمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَانَمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة: ٣٢).

ومعنى الآية الكريمة: أن من استهان بنفس واحدة فكانما استهان بحياة البشر كلهم، إذ لا فرق بين نفس وأخرى.

وكما لا يجوز الإسلام قتل الغير، بمحنة كذلك لا يبيح قتل النفس

(الانتحار) بحال من الأحوال، ويتوعد من فعل ذلك بالنار والعقاب الشديد يوم القيمة. وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء: ٢٩).

وهناك نوع من القتل أو الانتحار البطيء، يؤذى فيه الإنسان نفسه بسوء تصرفه وهو لا يشعر، كالذي يتناول المسكرات أو المخدرات ونحوها من السموم، و قريب منها التدخين، الذي أجمع الأطباء على ضرره بالإنسان، وإصابته بكثير من الأمراض القاتلة لتعاطيه، ولكنه سبب بيئي. ومثل ذلك كثير من تلوث البيئة وإفسادها الذي نراه في عصرنا.

وإذا كان الإسلام يصون حياة الحيوان الأعجم، ويحرم قتله بغير حق، إما مباشرة أو بحبسه أو تجويشه أو غير ذلك، فلا غرو أن يحرم ويجرم بشدة الاعتداء على حياة الإنسان.

#### حفظ البيئة من المحافظة على النسل:

ويدخل حفظ البيئة في ضرورة (المحافظة على النسل) والنسل هم ذرية الإنسان التي يستمر بها، بقاء النوع الإنساني في هذه الأرض، كما أراد الله سبحانه. فالنسل يعني: جيل المستقبل.

والجناية على البيئة تهدد الأجيال المستقبلة، بما تحمله في طياتها من أسباب الهلاك والدمار، التي قد ينبع منها - إلى حد ما - أجيال اليوم، ولكن الخطر يتفاقم ويتكاثر ويتركز بالنسبة للأجيال القادمة، فنحن نستنزف الموارد المذخورة التي هي من حقوقهم، لنسرف في استهلاكها، ونحن نورثهم آفات لا يمكن لها دفعها مما تلوث به البيئة من حولهم، ونحن نخل بالتوازن الكوني، الذي يضر إخلاله بهم.

وإذا كان الآباء والأمهات مسئولين - وجوباً - عن تربية أولادهم، وحسن تنشئتهم ورعايتهم الصحية والأدبية، فهم مسئولون وجوباً أيضاً عن وقايتهم

من أخطار البيئة ، قياما بواجب الرعاية التي نوه بها الحديث الشريف «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته . . . والرجل راع في أهل بيته، ومسئول عن رعيته»<sup>(١)</sup>.

ومن المفاهيم الإسلامية المهمة ، التي سنعرض لها فيما بعد: تكافل الأجيال الإسلامية بعضها مع بعض ، بحيث لا يجوز أن يستأثر جيل بالخير والنعمـة على حساب جيل أو أجيال قادمة ، كما لا يجوز أن يطغى على حقه ، أو يستنفذ مصادر رزقه ، أو يجور على موارد معيشته ، فإن هذا من الظلم الذي حرمه الله على عباده . والله لا يحب الظالمين . ولا يهدي القوم الظالمين . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : «إنك إن تذر ورثتك أغنياء ، خير من أن تذرهم عالة يتکففون الناس»<sup>(٢)</sup> .

#### حفظ البيئة من المحافظة على العقل،

ويدخل حفظ البيئة ضمن الضرورية الرابعة ، وهي (المحافظة على العقل) الذي هو مناط الخطاب والتکلیف في الإسلام . فمن فقد العقل فلا تکلیف عليه ، والقلم مرفوع عنه .

وحفظ البيئة - بمعناه العام - يقتضي المحافظة على الإنسان ، بكيانه كله ، الجسدي والعقلي والنفسي ، ولا معنى للمحافظة على الإنسان إذا لم تحافظ على عقله ، الذي ميزه الله به عن الحيوان .

ويعض ما يقوم به الإنسان المعاصر اليوم من إفساد للبيئة وتعريضها وتعريض نفسه معها للخطر ، يعد ضربا من الجنون . وفي مثله يخاطب القرآن المكلفين بقوله : (أفلا تعقلون) . من أجل ذلك حرم الإسلام الخمر ، وأوجب فيها عقوبة زاجرة؛ لأنها تزيل العقل ، وحرم المخدرات؛ لأنها شقيقة الخمر ، أو هي منها ، إذ الخمر ما خامر العقل ، كما قال سيدنا عمر .

(١) متفق عليه عن ابن عمر . اللؤلؤ والمرجان (١١٩٩) .

(٢) متفق عليه عن سعد بن أبي وقاص . اللؤلؤ والمرجان (١٠٥٣) .

فمن حفظ البيئة أن نحافظ على التفكير السوي في الإنسان الذي يوازن بين اليوم والغد، وبين المصالح والمفاسد، وبين المتعة والواجب ، وبين القوة والحق. ولا يتعامل مع البيئة تعامل المخمور السكران أو المخدر التائه ، الذي ألغى عقله باختياره ، فلم يعد يعرف ما ينفعه مما يضره.

#### حفظ البيئة من المحافظة على المال:

ويدخل حفظ البيئة أيضا ضمن المحافظة على الضرورية الخامسة، وهي (المحافظة على المال). فمن المعلوم : أن الله قد جعل المال قواماً لعيشة الإنسان في هذه الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً﴾ (النساء : ٥).

وليس المال هو النقود أو الذهب والفضة ، كما يتوهم بعض الناس ، بل المال أعم من ذلك وأشمل ، فكل ما يتموله الإنسان ويحرص على كسبه واقتنائه مال ، فالأرض مال ، والشجر مال ، والزرع مال ، والأنعام مال ، والماء مال ، والمرعى مال ، والمسكن مال ، والثياب مال ، والأثاث مال ، والمعادن مال ، والبترول مال .

وحفظ البيئة يوجب علينا أن نحافظ على المال بكل أجناسه وأنواعه: نحافظ على موارده فلا تلفها بالسفه ، ونستنزفها بلا ضرورة ولا حاجة معتبرة ، ولا نحسن تربيتها ولا صيانتها ، فتتعرض للهلاك والضياع ، ولا نسرف في استخدامها ، فتضيعها قبل الأوان .

إن إحدى المشكلات البيئية الكبرى في عالمنا اليوم إنما هي استنزاف الموارد ، وهو ما يهدد البشرية في مستقبلها القريب .

ولهذا كان من المقاصد الشرعية ، والمصالح الضرورية : المحافظة على المال ، بحيث نحافظ على موارده ، وننمی إنتاجه ، ونرشد استهلاكه ، ونحسن توزيعه وإنفاقه .

### **إفساد البيئة إضاعة مقاصد الشريعة:**

وإذا كانت رعاية البيئة والحفاظ عليها وإصلاحها يحقق مقاصد الشريعة، وضرورياتها الخمس، فإن إفساد البيئة وتلوثها واستنزاف مواردها، والإخلال بتوازنها - وهو ما نعبر عنه إسلامياً بعبارة (الإفساد في الأرض) - يضيع هذه المقاصد، ويجهي على هذه الضروريات كلها.

وحسبي أن أذكر هنا عبارة الإمام المفسر أبي حيان في تفسيره (البحر المحيط) عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ (الأعراف: ٥٦)، قال رحمة الله:

«هذا نهي عن إيقاع الفساد في الأرض، وإدخال ماهيته في الوجود، فيتعلق بجميع أنواعه من إيقاع الفساد في الأرض: إفساد النفوس والأنساب والأموال والعقول والأديان (وهي الضروريات الخمس).»

ومعنى بعد إصلاحها بعد أن أصلح الله خلقها على الوجه الملائم لمنافع الخلق، ومصالح المكلفين.

وما روي عن المفسرين من تعين نوع الإفساد والإصلاح ينبغي أن يحمل ذلك على التمثيل إذ ادعاء تخصيص شيء من ذلك لا دليل عليه»<sup>(١)</sup>. انتهى.

---

(١) تفسير البحر المحيط (٤/٣١٢، ٣١١).

## ٥- علوم القرآن والسنّة ورعاية البيئة

وتبقى بعد ذلك علوم القرآن وتفسيره، وعلوم السنّة النبوية وشروحها، ومدى علاقتها برعاية البيئة. ونستطيع أن نقول بكل وضوح: إن كل العلوم الشرعية التي ذكرناها: من أصول الدين وأصول السلوك، ومن الفقه وأصول الفقه، إنما عمدتها هو القرآن والسنّة. ولا يقبل ما تقرره من أحكام وقواعد واستنباطات، ما لم تكن مسنودة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ومن يقرأ كتابنا هذا سيجد - بدون معاناة - عدداً كبيراً من الآيات والأحاديث، وأنه يستند أول ما يستند في بيانه وتقريره إلى نصوص القرآن والحديث الصحيح، فهما وحدهما المصادران المعصومان الملزمان لكل مسلم ومسلمة بالطاعة والامتثال، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكُمْ أَنْهَاكُمْ إِنَّمَا تَنَازَعُونَ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنَّمَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (النساء: ٥٩).

وقد أجمع المسلمون أن الرد إلى الله يعني: الرد إلى كتابه، وأن الرد إلى الرسول يعني: الرد إلى سنته.

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلُّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: ٣٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ

**لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا** ﴿٣٦﴾  
(الأحزاب: ٣٦).

فهذا واجب المسلمين أبداً إزاء القرآن والسنّة: سمعنا وأطعنا.  
ومن أبرز الأدلة على عنابة القرآن بالبيئة أسماء السور ودلائلها.

من دلائل العنابة بالبيئة:

ومن دلائل القرآن الكريم على الاهتمام بالبيئة: أن نجد عدداً من سوره يسمى بأسماء للحيوانات والحشرات وبعض النباتات والمعادن، وبعض الظواهر الطبيعية.

فنجد من أسماء السور: سورة البقرة، وسورة الأنعام، وسورة الفيل،  
وسورة العاديّات وهي الخيل، وكلها من الحيوانات.

ونجد سورة النحل، وسورة النمل، وسورة العنكبوت، وكلها من الحشرات.

وهذا ما جعل المشركين أو اليهود يعجبون من ذلك ويقولون: أي قدر للذباب وللنعنكبوت، حتى يضرب الله بهما الأمثال؟!

ورد القرآن عليهم بقوله: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا يَعْوَضُهُ فَمَا فَوْقَهَا﴾** (البقرة: ٢٦) وأراد بما فوقها: أي في الضعف والهوان. ولهذا فسره بعضهم بقوله: أي ما دونها.

ونجد في القرآن سورة التين، وهو من النباتات، وسورة الحديد، وهو من المعادن.

ونجد سورة الرعد، وهو من الظواهر الطبيعية، وسورة الداريات، وهي الرياح التي تذرو الأشياء. وسورة النجم، وقد أقسم الله به إذا هوى، وسورة

الفجر، وسورة الشمس، وسورة الليل، وسورة الضحى، وسورة العصر، وكلها ظواهر طبيعية.

ونجد سورة الطور، وهو يعني الجبل مطلقاً أو جبلاً معيناً، وسورة البلد، والمراد به مكة البلد الحرام، وسورة الأحقاف، وهي في الجزيرة العربية، وسورة الحجر، وسورة الكهف، وكلها أماكن.

فهذه التسميات للسور القرآنية لها دلالاتها وإيحاؤها في نفس الإنسان المسلم، وربطه بالبيئة من حوله، بحيث لا يكون في عزلة أو غفلة عنها.

(٢)

## الركائز الإسلامية لرعاية البيئة

- ١ - التشجير والتخصير.
- ٢ - العمارة والتشمير.
- ٣ - النظافة والتطهير.
- ٤ - المحافظة على الموارد.
- ٥ - الحفاظ على الإنسان.
- ٦ - الإحسان بالبيئة.
- ٧ - المحافظة على البيئة من الإنلاف.
- ٨ - حفظ التوازن البيئي.

## الركائز الإسلامية لرعاية البيئة

### ١- التشجير والتخصيب

من ركائز المحافظة على البيئة في الإسلام: العناية بالتشجير وتخصيب الأرض بالغرس والزرع.

نقرأ هذا في القرآن الكريم في معرض امتنان الله على خلقه بما سخر لهم من أسباب الزرع والغرس والشجر والخضرة. فيقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَنَا بِهِ نَبَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجَنَا مِنْهُ خَضْرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِباً وَمِنَ التَّخْلِي مِنْ طَلَعِهَا قِنْوَانٌ دَائِيَّةٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَالْرِّيَّـونَ وَالرُّمَـانَ مُشَتَّبِهَا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرٍ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِي إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لِآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ٩٩).

وفي نفس السورة يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكَلُّهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَـانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُّهُ مِنْ ثَمَرٍ إِذَا أَثْمَرَ وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأنعام: ١٤١).

وفي سورة أخرى يقول تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعَةً مُتَجَاوِراتٍ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٌ صَنْوَانٌ وَغَيْرُ صَنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضِيلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لِآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الرعد: ٤).

وفي سورة أخرى يقول سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ [١] يُبَثِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثُّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [٢] ﴾ (النحل : ١٠ ، ١١).

وقد تكرر هذا المعنى كثيرا في القرآن الكريم في سور شتى ، ونبه فيها على عنصريين مهمين من فوائد الزرع والشجر والخضرة :

العنصر الأول: عنصر المنفعة. كما في قوله ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ وقوله تعالى ﴿فَلَيَنْظُرُ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾٢٦﴿ أَنَا حَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾٢٧﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴾٢٨﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا جَبًا ﴾٢٩﴿ وَعَنْبًا وَقَضْبًا ﴾٣٠﴿ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴾٣١﴿ وَحَدَائقَ غَلْبًا ﴾٣٢﴿ وَفَاكِهَةً وَآبًا ﴾٣٣﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلَا نَعِمْكُمْ ﴾٣٤﴾ (عيسى: ٢٤ - ٣٢).

فانظر كيف جعل في هذه النباتات عنصر الماء أي المنفعة للناس ولأن عاهم  
التي تخدمهم أيضاً.

وقال تعالى : ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجَرِزِ فَتُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يَتَسْرُونَ﴾ (السجدة: ٢٧).

فأرشد إلى منفعة الأكل من الزرع لهم ولأنعامهم معهم ، بل قبلهم .

والعنصر الثاني: هو عنصر (الجمال). وهذا ما قد يتصور بعض الناس أن الإسلام لا يهتم به، ولا يجعل له اعتباراً، وهو وهم لا أساس له في القرآن ولا في السنة، فإن الله تعالى جميل يحب الجمال، كما علمنا رسول الله صلي الله عليه وسلم.

وقد وضح هذا في آيات كثيرة من كتاب الله عز وجل ، كما في قوله تعالى : ﴿أَمْنَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتَنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾

**ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تَبْتُوا شَجَرَهَا إِلَهٌ مُّعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ** ﴿النَّمَلٌ: ٦٠﴾.

فانظر إلى هذا التعبير المبين (حدائق ذات بهجة) أي ذات حسن وجمال، تبهج النفس والخاطر، وتسر العين والقلب.

وقوله تعالى: **﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾** (الحج: ٥) والبهيج هو الحسن الجميل.

وقوله **﴿وَالْأَرْضَ مَدَّنَاهَا وَأَنْقَبَنَا فِيهَا رَوَاسِيًّا وَأَنْبَتَنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾** (ق: ٧).

وقد ذكرنا قوله تعالى بعد الامتنان بذكر الزرع والنخيل والأعناب والزيتون والرمان: **﴿اَنظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا اثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾** (الأنعام: ٩٩). فأمرنا أن ننظر إلى الثمر اليانع ، لنستمع بمنظره الجميل.

وقال الإمام القرطبي في تفسيره: الزراعة من فروض الكفاية، فيجب على الإمام (ولي الأمر) أن يجبر الناس عليها، وما كان في معناها من غرس الأشجار<sup>(١)</sup>.

الستة تأمر بالغرس والزرع،

والآحاديث النبوية تؤكّد هذا الأمر، وتزيد على ما في القرآن بما ورد فيها من الأوامر النبوية، والتوجيهات المحمدية بالغرس والزرع في جملة من الآحاديث الصحاح.

منها: ما رواه الشیخان عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه

(١) تفسير القرطبي (٣٠٦/٢) وانظر: أحكام القرآن للجصاص (٤/٣٧٣).

وسلم : «ما من مسلم يغرس غرسا ، أو يزرع زرعا ، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة ، إلا كان له به صدقة»<sup>(١)</sup> .

وروى مسلم عن جابر مرفوعا : «ما من مسلم يغرس غرسا ، إلا كان ما أكل منه له صدقة ، وما سرق منه له صدقة ، وما أكل السبع منه فهو له صدقة ، وما أكلت الطير فهو له صدقة ، ولا يرزأه أحد (أي لا ينقصه ويأخذ منه) إلا كان له صدقة» .

وفي رواية له : «إلى يوم القيمة»<sup>(٢)</sup> .

وما يلفت النظر هنا : أن تكتب الصدقة والمشوبة للغارس والزارع ، على ما أخذ من زرعه وثمره ، وإن لم تكن له فيه نية ، مجرد اتجاهه إلى الغرس والزرع ، فكل ما يستفاد منه لكاين حي له فيه ثواب .

وعن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذني هاتين يقول : «من نصب شجرة ، فصبر على حفظها ، والقيام عليها حتى تثمر ، فإن له في كل شيء يصاب من ثمرها صدقة عند الله عز وجل»<sup>(٣)</sup> .

وروي أن رجلاً من بني الدرداء رضي الله عنه ، وهو يغرس جوزة (شجرة جوز) فقال : أتغرس هذه وأنتشيخ كبير ، وهي لا تثمر إلا في كذا وكذا عاماً؟ فقال : أبو الدرداء : ما على أن يكون لي أجرها ، ويأكل منها غيري؟<sup>(٤)</sup> .

وروى ابن جرير عن عمارة بن خزيمة بن ثابت قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول لأبي : ما يمنعك أن تغرس أرضك؟ فقال له أبي : أناشيخ كبير

(١) متفق عليه ، كما في المؤلّق والمرجان فيما اتفق عليه الشیخان ، حديث رقم (١٠٠١) .

(٢) رواه مسلم في كتاب المسافة برقم (١٥٥٢) .

(٣) رواه أحمد ، وفيه قصة (٤/٦١) و (٥/٣٧٤) .

(٤) انظر : كتابنا (الحلال والحرام) الاكتساب عن طريق الزارعة ص ١٢٣ وما بعدها .

أموت غدا! فقال عمر: «أعزم عليك لتغرسنها»، فقد رأيت عمر بن الخطاب يغرسها بيده مع أبي<sup>(١)</sup>. فعمراً الخليفة الرايعي المسؤول يرى ألا تترك أرض صالحة للغرس والزرع دون أن يستفاد منها، وينبه أصحابه على ذلك، ويساعد بنفسه على ذلك. وهذه قمة الشعور بالمسؤولية.

وروى البخاري في (الأدب المفرد) عن نافع بن عاصم أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول لابن أخي له خرج من (الوهط): أيعمل عمالك؟ قال: لا أدرى! أما لو كنت ثقفيماً لعلمت ما يعمل عمالك. ثم التفت إليينا فقال: إن الرجل إذا عمل مع عماله في ماله كان عاملاً من عمال الله عزوجل<sup>(٢)</sup>.

والوهط في اللغة هو البستان، ويطلق على أرض عظيمة كانت لعمرو بن العاص بالطائف، ويبدو أنه خلفها لأولاده، وقد روى ابن عساكر في تاريخه (١٣ / ٢٦٤) بسند صحيح عن عمرو بن دينار، قال: دخل عمرو بن العاص في حائط له بالطائف يقال له: (الوهط) فيه ألف ألف خشبة (مليون) اشتري كل خشبة بدرهم! يعني ليقيم بها الأعناب.

فهذه عنابة الصحابة بالغرس والتشجير، بفضل هذه التوجيهات القرآنية والنبوية التي حفزتهم إلى أن يخضروا الأرض، و يجعلوا منها حدائق ذات بهجة، تنبت من كل زوج بهيج.

وروى الإمام أحمد في مسنده والبخاري في (الأدب المفرد) عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن قامت الساعة، وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها»<sup>(٣)</sup>.

وليس هناك حث وتحريض على الغرس والتشجير أقوى من هذا الحديث،

(١) انظر: الأحاديث الصحيحة للألبانى ج ١ ص ١٧ وقد نسب الأثر (الجامع الكبير) للسيوطى.

(٢) رواه البخاري في (الأدب المفرد) برقم (٤٤٨) وقال الألبانى: وسنه حسن إن شاء الله تعالى.

(٣) رواه أحمد (٣/١٩١، ١٨٤، ١٨٣) والبخاري في (الأدب المفرد) رقم (٤٧٩) وذكره الألبانى وصححه برقم (٩).

لأنه يدل على الطبيعة المتجة والخبرة للإنسان المسلم، فهو بفطرته عامل معطاء للحياة، كالنبع الفياض، لا ينضب ولا ينقطع، حتى إنه ليظل يعطي ويعمل، حتى تلفظ الحياة آخر أنفاسها، فلو أن الساعة توشك أن تقوم، لظل يغرس ويزرع، وهو لن يأكل من ثمر غرسه، ولا أحد غيره سيأكل منه، لأن الساعة تدق طبولها، أو ينفح في صورها، فالعمل هنا يؤدي لذات العمل، لأنه ضرب من العبادة، والقيام بحق الخلافة لله في الأرض إلى آخر رقم.

ولقد بين لنا العلم الحديث: أن التشجير له فوائد أخرى - غير ما عرفه الناس قديماً من الشمر والظل وتخفيف الحرارة وغيرها - مثل المساعدة في حفظ التوازن البيئي، وامتصاص الضوضاء، ومقاومة الآثار الضارة للتصنيع على البيئة، أو التخفيف منها على الأقل.

## ٢- العمارة والتثمير

ومن المقومات الأساسية للمحافظة على البيئة في نظر الإسلام: ما حث عليه التوجيه الإسلامي، وقام عليه التشريع الإسلامي: من عمارة الأرض، وإحياء مواتها، وتشمير مواردها وثرواتها.

حتى إن الإمام الراغب الأصفهاني<sup>(١)</sup> اعتبر (عمارة الأرض) أحد مقاصد ثلاثة أساسية خلق لها الإنسان، مستمدًا ذلك من نصوص القرآن الكريم ذاته. كما ذكرنا ذلك من قبل. وهذه المقاصد هي :

أولاً : عبادة الله تعالى . كما قال عز وجل : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات : ٥٦).

ثانياً : خلافة الله تعالى في خلقه ، كما قال سبحانه ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة : ٣٠).

ثالثاً : عمارة الأرض ، كما في قوله تعالى على لسان نبيه صالح : ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود : ٦١) ومعنى : (استعمروا كم) أي طلب إليكم أن تعمروها.

ومن هنا كانت عمارة الأرض وإصلاحها، وحظر الإفساد فيها، مما اتفقت عليه شرائع الأنبياء ، ورسالات السماء .

ومن هنا جاء التنويه بهذا المقصد الكبير على لساننبي الله صالح عليه

(١) في كتابه (الدرية إلى مكارم الشريعة).

السلام، وهو من أنبياء العرب، وقد أرسله الله إلى ثمود، الذي بوأهم الله في الأرض وهيأ لهم أسباب التقدم والرخاء: قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثُمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرْكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ (هود: ٦١).

وفي مقام آخر ذكرهم بنعم الله تعالى وألائه عليهم، وحذرهم من الإفساد في الأرض، التي هيأها الله لهم، فيقابلون النعمة بالكفران، قال تعالى على لسان صالح: ﴿وَذَكُرُوا إِذْ جَعَلْتُمْ خَلْفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأْكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَخَذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بَيْوتًا فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثُرُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: ٧٤).

وهذا بعد أن دعاهم إلى التوحيد الذي هو الأساس الأول للدعوات الرسل جمِيعاً. ولهذا نجدهم جميعاً يقولون: ﴿يَا قَوْمَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (هود: ٦١).

يقول العلامة أبو حيان في تفسير قوله تعالى: ﴿فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثُرُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾:

«ذَكَرَ صالح قومه بما ذَكَرَ به هود قومه، فذكر أولاً نعماً خاصة، وهي جعلهم خلفاء بعد الأمة التي سبقتهم، وذكر هو لقومه ما اختصوا به من زيادة البسطة في الخلق، وذكر صالح لقومه ما اختصوا به من اتخاذ القصور من السهول، ونحت الجبال بيوتاً، ثم ذكر أنعماً عامة بقولهما: فاذكروا آلاء الله، ومعنى بوأكم في الأرض أنزلكم بها وأسكنكم إياها والمباءة المنزلي في الأرض وهو من باء أي رجع»<sup>(١)</sup>.

وفي مقام آخر حذرهم صالح من القادة والزعماء الذين يقودونهم إلى الشر

(١) انظر: تفسير البحر المحيط لأبي حيان (٤/٣٢٩).

والإفساد في الأرض، وذلك ما ذكره القرآن الكريم في قوله لقومه : «فَاتَّقُوا  
الله وَأَطِيعُونِ» (١٥٠) «وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ» (١٥١) «الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا  
يُصْلِحُونَ» (١٥٢) (الشعراء: ١٥٠ - ١٥٢).

ونجد هذا التحذير من الإفساد في رسالة نبي الله شعيب ، الذي بعثه الله إلى أهل مدين ، فبعد أن دعاهم إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة ما سواه ، دعاهم إلى إقامة العدل في معاملاتهم ، وترك الظلم والإفساد في الأرض ، حتى لا ينزل بهم عذاب الله تعالى . اقرأ هذه الآيات الكريمة من سورة هود :

«وَإِلَى مَدِينَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٌ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا  
الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ» (٨٤) «وَيَا  
قَوْمَ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ  
مُفْسِدِينَ» (٨٥) (هود: ٨٤، ٨٥).

وفي موقف آخر يقول : «قَدْ جَاءَتُكُمْ بَيِّنَةً مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكِبْلَةَ وَالْمِيزَانَ وَلَا  
تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا» ثم يقول :  
«وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثُرْتُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ» (الأعراف: ٨٦).

فحذرهم من عواقب المفسدين من قبلهم ، وكيف نزل بهم عقاب القدر الأعلى ، الذي يهلك ولا يهمل ، ويحيي للمفسدين ثم يأخذهم أخذًا أليما شديدا .

وقد ذكر ذلك بتفصيل في سورة هود : «وَيَا قَوْمَ لَا يَجْرِيَنَّكُمْ شِقَاقٌ يَأْتِي أَنْ يُصِيبُكُمْ  
مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْطٌ مِنْكُمْ بِيَعْدِهِ» (هود: ٨٩) ذلك أن قوم لوط أقرب إليهم في المكان ، وأقرب إليهم في الزمان .

وفي قصة موسى نقرأ قول الله تعالى : ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ يَعْصَاكُ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْتَانِ عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أَنَّاسٍ مُّشَرِّبِهِمْ كُلُّهُمْ كَلَّا وَآشَرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْشُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (البقرة : ٦٠).

قال أبو حيان في تفسيره : لما أمرنا بالأكل والشرب من رزق الله ، ولم يقيد ذلك عليهم بزمان ولا مكان ولا مقدار من مأكول أو مشروب ، كان ذلك إنعاماً وإحساناً جزيلاً إليهم ، واستدعي ذلك التبسيط في المأكل والمشارب ، وأنه ينشأ عن ذلك القوة الغضبية والقوة الاستعلائية - نهاهم عما يمكن أن ينشأ عن ذلك ، وهو الفساد ، حتى لا يقابلوا تلك النعم بما يكفرها ، وهو الفساد في الأرض .

وقد اجتهد بعض المفسرين أن يحددوا نوع الفساد المنهي عنه في الآية الكريمة ، فقال بعضهم معنى ﴿وَلَا تَعْشُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ : لا تظلموا؛ لأن كل سبط منكم قد جعل له شرب معلوم .

وقيل : معناه : لا تؤخروا الغداء ، فكانوا إذا أخروه فسد .

وقيل : معناه : لا تخالفوا المفسدين .

وقيل : معناه : لا تتمادوا في فسادكم .

وقيل : معناه : لا تطغوا .

قال أبو حيان : وهذه الأقوال كلها قريب بعضها من بعض <sup>(١)</sup> .  
وال الأولى عندي إبقاء اللفظ على عمومه وإطلاقه ليشمل كل فساد مادي أو معنوي ، واقع أو متوقع .

ومن ذلك ما جاء على لسان قارون في نصيحتهم له : ﴿وَابْتَغُ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَخْسِنْ كَمَا أَخْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص : ٧٧) .

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان (١/٢٣٠، ٢٣١).

ولما جاء الإسلام أكد النهي عن الفساد في الأرض بأساليب شتى . منها النهي عن الإفساد ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَرْقًا وَطَمْعًا ﴾ (الأعراف : ٥٦) .

ومنها : التنفير من النماذج المفسدة ، والتحذير منها ومن مشابهتها ، كما في قوله تعالى في وصف بعض المنافقين : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعَجِّلُكَ قَوْلَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشَهِّدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَّا يُخَاصِّمُ ﴾ (٢٤) . وإذا توَلَّ سعي في الأرض ليفسد فيها ويُهلك الحَرثَ والنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿ ٢٥﴾ . وإذا قيل له اتق الله أخذته العِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسِبَهُ جَهَنَّمَ وَلَبِسَ الْمَهَادَ ﴿ ٢٦﴾ ) (البقرة : ٢٠٤ - ٢٠٦) .

ومثل ذلك قوله في ذم اليهود : ﴿ وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (المائدة : ٦٤) .

وقوله في ذم المنافقين : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿ ١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿ ١٢﴾ ) (البقرة : ١١ ، ١٢) .

ومنها : إعلان أن الله تبارك وتعالى ﴿ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ و﴿ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ كما في الآيات السابقة . وأنه لا يصلح عمل المفسدين كما جاء في قصة موسى ﴿ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّيْرًا إِنَّ اللَّهَ سَيِّطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (يوحنا : ٨١) .

والإفساد في الأرض : يشمل الإفساد المادي ، بتخريب العامر ، وإماتة الأحياء ، وتلويث الطاهرات ، وتبديد الطاقات ، واستنزاف الموارد في غير حاجة ولا مصلحة ، وتعطيل المنافع وأدواتها .

كما تشمل الإفساد المعنوي ، كمعصية الله تعالى ، ومعاقفة أمره ، والكفر بنعمته ، والتمرد على شريعته ، والاعتداء على حرماته ، وإشاعة الفواحش ما

ظهر منها وما بطن، وترويج الرذائل، ومحاربة الفضائل، وتقديم الأشرار، وتأخير الأخيار، وتجبر الأقوياء على الضعفاء، وقسوة الأغنياء على الفقراء.

ومن ذلك: ما كان عليه قوم لوط، الذين شذوا عن الفطرة، وحدوا عن سواء السبيل، وأتوا فاحشة ما سبقوهم بها من أحد من العالمين، حيث أتوا الذكران من العالمين، وتركوا ما خلق لهم ربهم من أزواجهم، وارتکبوا هذا الإثم، حتى لم يسلم منهم ضيف ينزل عليهم.

فلا غرو أن دعا عليهم نبيهم لوط في مرارة وحرقة، إذ **﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾** (العنكبوت: ٣٠).

وأي فساد أشد من هذا الفساد الخلقي، وقد نصره الله عليهم، فأنزل عليهم نقمته، وجعل عالي قريتهم سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود **﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رِبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِيَعْلَمُ﴾** (هود: ٨٣).

#### إحياء الموات،

ومما جاءت به شريعة الإسلام من عمارة الأرض: (إحياء الموات).  
والموات: هي الأرض الدارسة الخراب، كما قال ابن قدامة في (المغني).  
وعرفها الأزهري في (الصحاح) بأنها الأرض التي ليس لها مالك، ولا ماء، ولا عمارة، ولا يتتفع بها.  
و(إحياء الموات) تعبير إسلامي مأخوذ من الحديث النبوي: «من أحيا أرضا ميتة فهي له»<sup>(١)</sup>.

(١) رواه أبو داود في سننه برقم (٣٠٧٣) والترمذى وقال: حسن غريب برقم (١٣٧٨)، وأحمد والضياء في (المختار) كما في (الجامع الصغير) للسيوطى، والنمسائى أيضا كما نبه عليه المناوى في (نيض القديرين) كلهم من حديث سعيد بن زيد، ورواه الترمذى من حديث جابر وقال: حسن صحيح برقم (١٣٧٩)، وهو في مستند أحمد (٣٦٣/٣، ٣٨١)، ورواه البخارى في صحيحه بباب المزارعة موقوفا على عمر بها اللفظ، ورواه في كتاب العمرى والرقى عن عائشة بلفظ: «من أعمرا أرضا ليست لأحد فهو أحق بها».

والأرض الميّة هي الأرض البور، التي لا زراعة فيها ولا بناء، سماها الرسول صلى الله عليه وسلم (ميّة) للإشارة إلى أن الأماكن والأراضي تموت وتحيا، كما يحيا الإنسان ويموت، و(موت) الأرض إنما يكون بتركها بوارا لا ينبع فيها نبات، ولا يغرس فيها شجر، ولا يقوم فيها بناء ولا عمران، و(حياة) الأرض بإجراء الماء فيها، وإنبات الزرع، وغرس الشجر، وإقامة أسباب السكن والمعيشة.

وقد اقتبس النبي صلى الله عليه وسلم معنى الموت والحياة للأرض من القرآن الكريم ، في أكثر من آية . كما في قوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَآخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ (يس: ٣٣) وقوله عن المطر ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيْتَانًا ﴾ (ق: ١١) ﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمْ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (فصلت: ٣٩) .

ولا شك أن من أعظم الموارد التي عنى الإسلام بالمحافظة عليها، وعمل على تنميتها ، والاستفادة من خيراتها : الأرض الزراعية التي هي مصدر القوت والطعام للإنسان ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴾ ٢٤ ، أَنَا صَبَّيْنَا الْمَاءَ صَبًّا ٢٥ ثُمَّ شَقَّقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ٢٦ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ٢٧ وَعَبَّا وَقَضَبًّا ٢٨ وَزَيَّتْنَا وَتَخَلَّا ٢٩ وَحَدَّأْنَاهُ غَلَّا ٣٠ وَفَاقِهَةً وَأَبَأً ٣١ مَعَاعِنًا لَكُمْ وَلَا تَنْعَمُ كُمْ ٣٢﴾ (عبس: ٢٤ - ٣٢) .

وقد مر بنا أن هذا يعد من أفضل الأعمال التي حدث عليها الإسلام ، ورغم فيها ، ووعد فاعليها بأعظم المثواب : استصلاح الأراضي البور ، لما فيه من توسيع الرقعة الزراعية وزيادة مصادر الإنتاج ، وقد عرف هذا الأمر في الفقه الإسلامي بعنوان معتبر جميل هو : « إحياء الموات » ، أو إحياء الأرض الميّة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أحيا أرضا ميّة فهي له ، وما

أكلت العافية (طلاب الرزق) منها فهي له صدقة<sup>(١)</sup>، قال أبو عبيد: العافية: من السباع والطير والناس وكل شيء يعتافه.

وفي الحديث الذي ذكرناه نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم قرر (ملكية الأرض) لمن أحياها ، تشجيعا على الإحياء ، وتحريضا عليه . ولا ريب أن حب التملك دافع فطري قوي في نفس الإنسان ، فإذا وجد أن كل ما يحييه ويعمره من الأرض يملكه ، دفعه ذلك إلى تحريك الهمة ، وتنمية النشاط في توسيع دائرة الإحياء وال عمران للأرض ، حتى تدخل في ملكه .

وإحياء الموات يكون : بالغرس والزراعة ، وذلك لا يكون إلا بإجراء الماء إليها من نهر أو بحيرة أو عين ، أو حفر بئر بها أو نحو ذلك ، إذ لا يحيا الغرس والزراعة إلا بالماء ، كما قال تعالى : ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج : ٥) .

ويكون الإحياء كذلك : بالبناء عليها ، وإقامة مساكن فيها للناس ، فالأرض الموات ، كما تحيى بالنبات والغرس ، تحيى بالبناء والمسكن ، ولهذا نرى الناس في عصرنا يتوجهون إلى الصحراري ليقيموا فيها المبني ، فيستفيدوا منها أمرين :

- ١ - إحياء الصحراء باليوت والمساكن ، فتدبر فيها الحياة من كل جانب .
- ٢ - توفير الأرض الزراعية التي يقتات منها الناس ، وقد أصبحت المبني تجور عليها من كل جانب ، حتى تقاد تأكلها . فمن أين يأكل الناس بعدئذ؟

ويكون الإحياء كذلك بإقامة المصانع في الأرض ، فالمصانع كالزارع ، مطلوبة لحياة الناس ، وقد قال تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ﴾ (الحديد : ٢٥) قوله : (فيه بأس شديد) إشارة إلى الصناعات الحربية ، و قوله (ومنافع للناس) إشارة إلى الصناعات المدنية .

(١) الجملة الأولى من الحديث رواها أحمد وأبو داود والترمذى عن سعيد بن زيد ، والترمذى عن جابر ، والحديث بجملته رواه أبو عبيد في الأموال ، ورواه بصيغة قريبة : أحمد والنسائي وابن حبان ، والضياء عن جابر ، وانظر صحيح الجامع الصغير من ٥٩٧٤ - ٥٩٧٦ .

ويجب أن تكون هذه المصانع بعيدة عن المناطق السكنية حتى لا تؤذى الناس بما قد يترب عليها من أدخنة أو من روائح يكرهها الناس أو من ضجيج وضوضاء نتيجة تشغيل الآلات الكبيرة، وهو ملوث آخر من ملوثات البيئة، وقد قرر الإسلام: أن «لا ضرر ولا ضرار».

وكان من سياسة النبي - صلى الله عليه وسلم - خلفائه الراشدين: الإقطاع من هذه الأراضي البور لبعض الرجال الذين أدوا خدمات ممتازة للدولة الإسلامية، فهي مكافأة لهم من جهة، وتشجيع على استصلاحها وعمارتها من جهة أخرى.

وما قرب من العامر وتعلق بمصالحة، مثل طرفه وفياته، ومسيل مائه، ومرعى أنعامه، ومحتطبه، وحربيه، ونحو ذلك من كل ما يحتاج إليه (العامر) ويعنون بالعامر: المدينة أو القرية، لعمل مدارس أو جامعات أو مصانع أو مستشفيات أو أندية أو مساحات خضراء، فلا يملك ذلك بالإحياء<sup>(١)</sup>، لأنه لا يعتبر مواطنا في هذه الحالة، لأنه لتعلقه بمصالح البلد العamer الحي، يعتبر في حكم الحي بحسبه، فلا يدخل في الحديث الشريف: «من أحيا أرضاً مواطناً فهي له» لأنها ليست ميتة. فإن ماجاور الشيء يأخذ حكمه.

بل ذهب بعض الفقهاء إلى أن القريب من العامر لا يملك بالإحياء، وإن لم يتعلق به مصالحة في الحال، إذ هو بصدق أن يحتاج إليه في المستقبل لقربه، وتنتزلا للضرر في المال متزلة الضرر في الحال، إذ هو بصدق أن يحتاج إليه في المال<sup>(٢)</sup>. وهذا هو الذي يجب أن نرجحه في عصرنا، لسرعة تطور العمران، واتساع حاجات الناس، فلا بد من ترك مساحات فسيحة حول العمران من أجل حاجات المستقبل، التي قد لا تتوقعها اليوم.

ومن تحجر مواطناً، أي شرع في إحيائه ولم يتممه. مثل أن يحيط حول

(١) انظر: المبدع شرح المقنع لابن مفلح (٥٠/٢٥٠).

(٢) المصدر السابق (٥/٢٥١).

الأرض تربا، أو بجدار صغير، أو بحفر بئر ولم يصل ماؤها - لم يملأه بذلك، لأن الملك يكون بالإحياء، ولم يتحقق. وهو أحمق به من غيره ووارثه بعده، ومن ينقله إليه بالهبة، وليس له بيعه.

فإن لم يتم إحياؤه، قيل له: إما أن تحييه وإما أن تتركه ليحييه غيرك، لأنه ضيق على الناس في حق مشترك بينهم، فلم يكن منه. فإن طلب الإمهال أمهل الشهرين والثلاثة.

ومن قطعَ له من هذه الأرض مساحة معينة، ثم تركها بغير أن يعمرها ويصلحها، كان لولي الأمر أن يتزعها منه، ويعطيها لغيره من يقوم بإحيائها.

وقد روى أبو عبيد وغيره عن بلال بن الحارث المزني : «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقطعه العقيق - أرضا بالمدينة . فلما كان زمان عمر، قال لبلال: إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يُقطعك لتحتجزه عن الناس، وإنما أقطعك لتعمل ، فخذ منها ما قدرت على عمانته ، ورد الباقى»<sup>(١)</sup>.

وعن عبد الله بن عمر قال: كان عمر بن الخطاب يخطب على هذا المنبر يقول: «يا أيها الناس؛ من أحيا أرضا ميته فهي له»، وذلك أن رجالا كانوا يحتجزون من الأرض ما لا يعمرون.

وكان من سنة عمر تشجيع الأفراد العاملين على زيادة الإنتاج كنافع أبي عبد الله الذي كتب إلى واليه بالبصرة في شأنه يقول: «أما بعد، فإن أبا عبد الله ذكر أنه زرع بالبصرة . . وافتلى أولاد الخيل (رعاها بالفلة) حين لم يقتلها أحد من أهل البصرة، وإنه نعم ما رأى، فأعنده على زرعه وعلى خيله، فإني قد أذنت له أن يزرع، وآتاه أرضه التي زرع . . ولا تعرض له إلا بخير . . .»<sup>(٢)</sup>.

(١) الأموال ص ٢٩٠.

(٢) من هامش الأموال عن البلاذري ص ٣٤٦، وفي الأموال نحوه ص ٢٧٧.

وجمهور الفقهاء لا يشترطون إذن الإمام أو ولی الأمر فيما يحييه من الأرض، ويعتبرون أن الحديث أعطى إذنا عاما بالإحياء والتملك لمن أحيا.

وذهب أبو حنيفة إلى أن الإحياء الذي به تتحقق الملكية هو الذي يكون بإذن الإمام، وأن الرسول حينما قال «من أحيا أرضا ميتة فهي له» قاله بوصفه إماما للأمة، ورئيسا للدولة.

## ٣- النظافة والتطهير

ومن الوسائل التي حرص عليها الإسلام في حفظ البيئة: العناية بالنظافة، والحقيقة أن موقف الإسلام من النظافة موقف لا نظير له في أي دين من الأديان، فالنظافة فيه عبادة وقربة، بل فريضة من فرائضه.

إن كتب الشريعة في الإسلام تبدأ أول ما تبدأ بباب عنوانه «الطهارة» أي النظافة، فهذا أول ما يدرسه المسلم والمسلمة من فقه الإسلام.

وما ذلك إلا أن الطهارة هي مفتاح العبادة اليومية «الصلاحة» كما أن الصلاة مفتاح الجنة، فلا تصح صلاة المسلم ما لم يتطهر من الحدث الأصغر بالوضوء ومن الحدث الأكبر بالغسل، والوضوء يتكرر في اليوم عدة مرات، تغسل فيه الأعضاء التي تتعرض للاتساخ والعرق والأتربة، مثل الوجه - ومنه الفم والأنف - واليدين والرجلين والرأس والأذنين، قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَيْنَا إِذَا قَمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَاقِيقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطْهُرُوا» (المائدة: ٦) وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يقبل الله صلاة بغير طهور»<sup>(١)</sup>.

ومن شرط صحة الصلاة كذلك: نظافة الثوب والبدن والمكان من الأخبات والقادورات، قال تعالى: «وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ» (المدثر: ٤) ومن ذلك: نظافة

(١) رواه مسلم وأبن ماجه عن ابن عمر، وأبن ماجه عن أنس وعن أبي بكرة، وأبو داود والنسائي وأبن ماجه عن والد أبي مليح، كما في صحيح الجامع الصغير (٧٧٤٦).

مخرج البول والبراز بالاستنجاء والغسل بالماء، إن تيسر، وإن لا فبالمسح ولو بالأحجار ونحوها في الصحراء (الاستجمار).

وفوق ذلك أشاد القرآن والسنة بالنظافة وأهلها، فقال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢) وأثنى على أهل مسجد قباء .  
فقال : ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ (التوبه: ١٠٨).  
وقال النبي صلى الله عليه وسلم : «الظهور شطر الإيمان»<sup>(١)</sup> أي نصفه ، وهو حديث صحيح .

ومن ذلك شاعت بين المسلمين هذه الحكمة التي ينطبق بها خاصتهم  
وعامتهم ولا يعرف لها مثيل عند غيرهم : وهي «النظافة من الإيمان».

وقد عني النبي صلى الله عليه وسلم بنظافة الإنسان ، فدعا إلى الاغتسال ،  
وخاصة يوم الجمعة : «غسل الجمعة واجب على كل محتلم»<sup>(٢)</sup> أي بالغ «حق  
على كل مسلم في كل سبعة أيام يغسل فيه رأسه وجسده»<sup>(٣)</sup>.

وعني بنظافة الفم والأسنان خاصة ، فرغب في السوak أعظم الترغيب  
«السوak مطهرة للضمير ، مرضية للرب»<sup>(٤)</sup> بجوار الأمر بالمضمضة والاستنشاق  
في الموضوع؛ حتى اعتبرهما المذهب الحنبلي من فرائض الموضوع .

وأمر بنظافة الشعر «من كان له شعر فليكرمه»<sup>(٥)</sup>.

(١) رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري في الطهارة (٢٢٣).

(٢) رواه مالك وأحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري (صحيح الجامع الصغير)  
(٤١٥٥).

(٣) متفق عليه عن أبي هريرة ، اللولو والمرجان (٤٩٢).

(٤) رواه أحمد عن أبي بكر ، والشافعي في مسنده وأحمد أيضاً والنسائي وابن حبان والحاكم والبيهقي عن  
عائشة ، وابن ماجه عن أبي أمامة الباهلي .. وغيرهم (صحيح الجامع الصغير: ٣٦٩٥) وعلقه  
البخاري بصيغة الجزم .

(٥) رواه أبو داود عن أبي هريرة (٤١٦٣).

وبإزالـة الفضـلات من الإـبط والـعـانـة وـتقـلـيم الأـظـافـر، وـاعتـبـرـ ذلكـ منـ سنـ الفـطـرة<sup>(١)</sup>.

وعـنـيـ بـنـظـافـةـ الـبـيـت وـسـاحـاتـه وـأـفـنيـتـهـ فـقـالـ: «إـنـ اللـهـ جـمـيلـ يـحـبـ الـجـمـالـ، طـيـبـ يـحـبـ الـطـيـبـ، نـظـيفـ يـحـبـ النـظـافـةـ، فـنـظـفـوـاـ أـفـنيـتـكـمـ وـلـاـ تـشـبـهـوـاـ بـالـيـهـودـ»<sup>(٢)</sup>.

وعـنـيـ بـنـظـافـةـ الـطـرـيقـ، وـتـوعـدـ كـلـ مـنـ أـلـقـىـ فـيـهـ أـذـىـ أـوـ قـذـراـ: «مـنـ آذـىـ الـمـسـلـمـينـ فـيـ طـرـقـهـمـ وـجـبـتـ عـلـيـهـ لـعـنـتـهـمـ»<sup>(٣)</sup>.

وعـنـ أـبـيـ هـرـيرـةـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ قـالـ: قـالـ رـسـوـلـ اللـهـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ: «الـإـيمـانـ بـضـعـ وـسـتـونـ - أوـ سـبـعونـ - شـعـبـةـ أـدـنـاهـاـ إـمـاطـةـ الـأـذـىـ عـنـ الـطـرـيقـ، وـأـرـفـعـهـاـ قـوـلـ: لـاـ إـلـهـ إـلـاـ اللـهـ»<sup>(٤)</sup>.

«أـمـاطـ» الشـيـءـ عـنـ الـطـرـيقـ: نـحـاءـ وـأـزـالـهـ، وـالـمـرـادـ بـالـأـذـىـ: كـلـ مـاـ يـؤـذـيـ المـارـ كـالـحـجـرـ وـالـشـوـكـةـ وـالـعـظـمـ وـالـنـجـاسـةـ وـالـقـدـرـ وـنـحـوـ ذـلـكـ.

وعـنـ أـبـيـ ذـرـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ قـالـ: قـالـ النـبـيـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ: «عـرـضـتـ عـلـيـ أـعـمـالـ أـمـتـيـ حـسـنـهـاـ وـسـيـئـهـاـ، فـوـجـدـتـ مـحـاسـنـ أـعـمـالـهـاـ الـأـذـىـ يـُـمـاـطـُـ عـنـ الـطـرـيقـ، وـوـجـدـتـ فـيـ مـسـاوـيـعـ أـعـمـالـهـاـ النـخـامـةـ تـكـوـنـ فـيـ الـمـسـجـدـ لـاـ تـدـفـنـ»<sup>(٥)</sup>.

وعـنـ أـبـيـ بـرـزـةـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ قـالـ: قـلـتـ: يـاـ نـبـيـ اللـهـ إـنـيـ لـاـ أـدـرـيـ نـفـسيـ تـمـضـيـ أـوـ أـبـقـيـ بـعـدـكـ؛ فـزـدـنـيـ شـيـئـاـ يـنـفـعـنـيـ اللـهـ بـهـ، فـقـالـ رـسـوـلـ اللـهـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ: «أـفـعـلـ كـذـاـ، أـفـعـلـ كـذـاـ، وـأـمـرـ الـأـذـىـ عـنـ الـطـرـيقـ».

(١) روـيـ الشـيـخـانـ عـنـ أـبـيـ هـرـيرـةـ مـرـفـوعـاـ: «خـمـسـ مـنـ الـفـطـرـةـ: الـخـثـانـ، وـالـسـتـحدـادـ (إـزـالـةـ شـعـرـ الـعـانـةـ) وـقـصـ الشـارـبـ، وـتـقـلـيمـ الـأـظـافـرـ، وـنـفـ الإـبطـ».

(٢) روـاهـ التـرمـدـيـ (٢٨٠٠) وـذـكـرـ أـنـ فـيـ روـيـاـ يـضـعـفـ، لـكـنـ قـوـلـهـ «فـنـظـفـوـاـ أـفـنيـتـكـمـ» إـلـخـ.. لـهـ طـرـيقـ أـخـرىـ عـنـ سـعـدـ يـاـسـنـادـ حـسـنـ، كـمـاـ ذـكـرـ الـأـلبـانـيـ فـيـ تـخـرـيـجـ الـحـلـالـ وـالـحـرـامـ، حـدـيـثـ (١١٣ـ).

(٣) روـاهـ الطـبـرـانـيـ عـنـ حـدـيـثـةـ بـنـ أـسـيدـ، وـحـسـنـهـ فـيـ صـحـيـحـ الـجـامـعـ الصـغـيرـ (٥٩٢٣ـ).

(٤) مـتـفـقـ عـلـيـهـ. اللـلـوـلـ وـالـمـرجـانـ (٢١ـ).

(٥) روـاهـ سـلـمـ (٥٥٣ـ).

وفي رواية قال أبو بربعة: قلت: يا نبي الله، علمني شيئاً أنتفع به، قال: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين»<sup>(١)</sup>.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «على كل ميسَّ من الإنسان صلاة كل يوم» فقال رجل من القوم: هذا من أشد ما أبأتنا به، قال: «أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صلاة، وحملك على الضعيف صلاة، وإن حاولك القدر عن الطريق صلاة، وكل خطوة تخطوها إلى الصلاة صلاة» رواه ابن خزيمة في «صحيحه».

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ليس من نفس ابن آدم إلا عليها صدقة في كل يوم طلعت فيه الشمس» قيل: يا رسول الله، من أين لنا صدقة نتصدق بها؟ فقال: «إن أبواب الخير لكثيرة: التسبيح، والتحميد، والتكبير، والتهليل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتمييز الأذى عن الطريق، وتنسم الأصم، وتهدي الأعمى، وتدل المستدل على حاجته، وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف، فهذا كلها صدقة منك على نفسك»<sup>(٢)</sup> رواه ابن حبان في «صحيحه»<sup>(٣)</sup>; والبيهقي مختصرًا، وزاد في رواية: «تبسمك في وجه أخيك صدقة، وإماتتك الحجر والشوكه والعظم عن طريق الناس صدقة، وهديك الرجل في أرض الضالة لك صدقة».

وعن بريدة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «في الإنسان ستون وثلاثمائة مفصل، فعليه أن يتصدق عن كل مفصل

(١) رواه مسلم (٢٦١٨).

(٢) هذا الحديث وما قبله وما بعده تجعل من المسلم ينبع خير للمجتمع الذي يعيش فيه، فخدمة المجتمع ومساعدة أبنائه فريضة يومية عليه، بل على كل عضو من أعضاء بدن، يتعبد بذلك لربه، ويعتبره الدين صدقة وصلاة. ولو أحسن المسلمون فهم ذلك والعمل به، لكانوا في مقدمة أم الأرض تأسكاً ورقباً في العمran والأخلاق، فلماين المسلمين من هذا الحديث؟!

(٣) وهو في «الموارد» في كتاب الزكاة (٨٦٢). وقال الشيخ شعيب: إسناده صحيح، ابن حبان (٣٣٧٧).

منها صدقة» قالوا: فمن يطيق ذلك يا رسول الله؟ قال: «النخامة في المسجد تدفناها، والشيء تنجيه عن الطريق»<sup>(١)</sup>.

ونجد آثار هذه التوجيهات النبوية في حياة جيل الصحابة وأبنائهم وتلاميذهم وأصحاب العيادة:

فعن المستنير بن أخضر بن معاوية عن أبيه قال: كنت مع معلق بن يسار رضي الله عنه في بعض الطرق، فمررنا بأذى فاماطه -أو نحاه- عن الطريق، فرأيت مثله ، فأخذته فنجيته ، فأخذ بيدي وقال: يا ابن أخي ، ما حملك على ما صنعت؟ قلت: يا عم ، رأيتك صنعت شيئاً ، فصنعت مثله ، فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من أماط الأذى عن طريق المسلمين كتب له حسنة ، ومن تقبلت منه حسنة دخل الجنة» رواه الطبراني في «الكتاب» هكذا.

ورواه البخاري في كتاب «الأدب المفرد»، فقال: عن المستنير بن أخضر بن معاوية بن قرة عن جده .

قال الحافظ المنذري : وهو الصواب<sup>(٢)</sup> .

وعن أبي شيبة الهروي قال: كان معاذ يishi ، ورجل معه ، فرفع حجراً من الطريق ، فقال: ما هذا؟ فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من رفع حجراً من الطريق كتب له حسنة ، ومن كانت له حسنة دخل الجنة»<sup>(٣)</sup> رواه الطبراني في «الكتاب» وقال الهيثمي : رواته ثقات<sup>(٤)</sup> .

(١) رواه أحمد (٥/٣٥٩، ٣٥٤)، وأبو داود في الأدب (٥٢٤٢)، وابن خزيمة في صلاة الضحى (١٢٢٦)، وهو في «الموارد» (٦٣٣) وقال الشيخ شعيب: إسناده قوي، ابن حبان (٢٥٤٠).

(٢) وكذا نقل الهيثمي عن الحافظ المزي ، وقال: فإن كان كما قال المزي فإسناده حسن إن شاء الله (٣/١٣٦، ١٣٥).

(٣) وهذا بشرط الإيمان ، وهو مفهوم ، لأن الذي تكتب له الحسنات هو المؤمن ، وهو إلى الجنة في عاقبة أمره ، وإن عذب بسوء عمله .

(٤) انظر: مجمع الزوائد (٣/١٣٥).

وعن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِّنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِينَ وَثَلَاثَمَائَةَ مَفْصِلٍ ، فَمَنْ كَبَرَ اللَّهُ ، وَحَمَدَ اللَّهُ ، وَسَبَحَ اللَّهُ ، وَهَلَلَ اللَّهُ ، وَاسْتَغْفَرَ اللَّهُ ، وَعَزَّلَ الْحَجَرَ عَنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ ، أَوْ شَوَّكَةً ، أَوْ عَظِيمًا عَنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَمْرًا مَعْرُوفًا ، أَوْ نَهَىًّا عَنْ مَنْكَرٍ ، عَدْدُ تِلْكَ السِّتِينِ وَالثَّلَاثَمَائَةِ ، فَإِنَّهُ يَسِّي يَوْمَئِذٍ وَقَدْ زَحَرَ عَنِ النَّارِ ». قال أبو توبية : وربما قال : «يَشِي»<sup>(١)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ عُصْنَ شَوْكَ فَأَخْرَهُ، فَشَكَرَ اللَّهَ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ» رواه البخاري ومسلم<sup>(٢)</sup>.

وفي رواية لمسلم قال : «لَقِدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قُطِعَتْهَا مِنْ ظَهَرِ الطَّرِيقِ كَانَتْ تَؤْذِي الْمُسْلِمِينَ».

وذكر الحافظ المنذري في كتابه (الترغيب والترهيب) أكثر من حديث في الترغيب في تنظيف المساجد وتطهيرها :

فَعَنْ أَبِي هَرِيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ امْرَأَةً سُودَاءَ كَانَتْ تَقْمِي الْمَسْجِدَ<sup>(٣)</sup> فَفَقَدَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلَ عَنْهَا بَعْدَ أَيَّامٍ، فَقَبِيلٌ لَهُ: إِنَّهَا مَاتَتْ، فَقَالَ: «فَهَلَا آذَنْتَمُونِي»<sup>(٤)</sup>? . . . فَأَتَى قَبْرَهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا . رواه البخاري ومسلم<sup>(٥)</sup>، وابن ماجه بإسناد صحيح واللفظ له ، وابن خزيمة في «صحيحه»، إلا أنه قال : إن امرأة كانت تلقط الحرق والعيدان من المسجد .

فانظر : كيف اهتم الرسول بأمر هذه المرأة والسؤال عنها ، والصلوة على قبرها ، لما كانت تقوم به من تنظيف المسجد .

(١) رواه مسلم (١٠٠٧).

(٢) البخاري (٦٥٢)، ومسلم (١٩١٤).

(٣) تقم : تجمع القمامات ، والقمامات كالكتنasa وزنا ومعنى .

(٤) آذنتموني : أعلمتموني .

(٥) البخاري (٤٦٠)، ومسلم (٩٥٦)، «اللؤلؤ والمرجان» (٥٦٠).

فالحديث يدل على اهتمام المرأة بالمسجد ونظافته في عصر النبوة. فلا عجب أن سأله الرسول صلى الله عليه وسلم عنها، حين افتقدتها، ولم أصحابه حين لم يعلموا بموتها، وصلى عليها في قبرها بعد موتها.

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن نتَّخِذ المساجد في ديارنا، وأمرنا أن ننظفها». رواه أحمد، والترمذى وقال: حديث صحيح<sup>(١)</sup>.

كما ذكر في الترهيب من البصاق في المسجد:

عن ابن عمر رضي الله عنهمَا قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب يوماً إذ رأى نُخَامَةً في قبلة المسجد. فتَغَيَّطَ على الناس، ثم حَكَّهَا. قال: وأحسبه قال: فدعها بزعران، فلطخه به. وقال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَ قَبْلَ وَجْهِ أَحَدِكُمْ إِذَا صَلَى فَلَا يَبْصُقُ بَيْنَ يَدَيْهِ». رواه البخاري، ومسلم<sup>(٢)</sup>، وأبو داود واللَّفْظُ لَهُ.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان تعجبه العَرَاجِينَ أن يمسكها بيده، فدخل المسجد ذات يوم، وفي يده واحد منها، فرأى نُخَامَاتٍ في قبلة المسجد فتحَتَهُنَّ حتى أنقاهنَ، ثم أقبل على الناس مغضباً فقال: «أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يُسْتَقْبَلَهُ رَجُلٌ فَيَبْصُقُ فِي وَجْهِهِ؟ إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ فَإِنَّمَا يُسْتَقْبِلُ رَبِّهِ، وَالْمَلَكُ عَنْ يَمِينِهِ، فَلَا يَبْصُقُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ» الحديث. رواه ابن خزيمة في «صحيحه».

(١) رواه أحمد في مسند سمرة (٥/١٧)، وأبو داود (٤٥٦)، ولم أجده في الترمذى. وقد روته نحروه في «مسند»ه عن عائشة (٦/٢٧٩)، وأبو داود (٤٥٥)، والترمذى (٥٩٤)، وابن ماجه (٧٥٨) و(٧٥٩) والمراد بالدور: مساح القبائل، كما يقال داربني فلان، وذلك ليجتمعوا فيها ويقيموا الصلاة، إذا شق عليهم الذهاب إلى المسجد الجامع.

(٢) البخاري (٤٠٦)، ومسلم (٥٤٧)، «اللؤلؤ والمرجان» (٣١٩).

ضرب النبي صلى الله عليه وسلم المثل لهم ، فحرص على إزالة الأذى والقدر بنفسه ، حتى يعلمهم العناية بالنظافة عامة ، وبالمساجد خاصة ، لأنها ملتقى المسلمين ، ومظهر حضارتهم ، ووجه دينهم ، وعلى الأخص جهة القبلة ، لما ترمز إليه من معان كريمة نبه عليها الرسول الكريم .

#### ٤. المحافظة على الموارد

المحافظة على الموارد: موضوع مهم يبحثه الاقتصاديون، كما يبحثه علماء البيئة. ولا غرو أن تحدثنا عنه في كتابنا «دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي» باعتباره قيمة من القيم الأساسية في الاقتصاد، ولا سيما في مجال الإنتاج. وهنا نتحدث عنه مرة أخرى بوصفه دعامة من الدعائم المهمة في الحفاظ على البيئة وصلاحها ونمائها وبركتها. فإن من الأصول الأخلاقية والتشريعية المهمة هنا.

المحافظة على «الموارد» باعتبارها نعما من الله تعالى على خلقه، فواجبهم أن يقوموا بشكرها، ومن شكرها المحافظة عليها من التلف أو الخراب أو التلوث أو غير ذلك، مما يعتبر نوعا من الإفساد في الأرض.

والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ (الأعراف: ٥٦).

وقال تعالى لبني إسرائيل بعد أن فجر لهم في التيه اثنين عشرة عينا: ﴿كُلُّوا وَأَشْرِبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْشُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (البقرة: ٦٠).

وقال شعيب لقومه: ﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ (الأعراف: ٨٥).

و قبل ذلك: قال صالح لقومه: ﴿فَادْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: ٧٤).

والإفساد في الأرض قد يكون ماديا، بتخريب عامرها، وتلوث طاهرها وإهلاك أحياها، وإتلاف طيباتها، أو تفويت منفعتها.

وقد يكون معنوياً، بإشاعة الظلم، ونشر الباطل، وتفوية الشر، وتلوث الضمائر، وتضليل العقول.

وكلاهما شريغه الله تعالى، ولا يحب أهله.

لهذا تكرر في القرآن أن الله ﴿لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (المائدة: ٦٤) و﴿لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ (البقرة: ٢٠٥).

وذم الله اليهود بقوله: ﴿وَيَسْعَونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (المائدة: ٦٤).

فما هي تلك الموارد الطبيعية، وهي هبات الله في الطبيعة التي يمكن أن تحول إلى ثروة: هي الغلاف الغازي بعناصره المختلفة، وهي الغلاف المائي، وهي الغطاء النباتي الطبيعي في صورة مختلفة. وبمعنى آخر: هي الموارد الزراعية- المناخ والتربة..، وهي الموارد النباتية في صورة الغابات والخواص، وهي الموارد البحرية سواء أكانت في مناطق الرصيف القاري أو في الأعماق المحيطة، وهي في النهاية: الموارد التعدينية في صخور الأرض ومعادنها المختلفة، ولعل هناك موارد أخرى لم نستطع تحويلها إلى ثروة حتى الآن، كالموارد الشمسية أو الجاذبية مثلاً<sup>(١)</sup>.

هذا ما يقرره الاقتصاديون، فإذا تأملنا في القرآن الكريم وجدناه يدفعنا دفعاً إلى استغلال هذه الموارد. إنه ينبئ عقولنا، ويلفت أنظارنا بقوة إلى هذا الكون المحيط بنا بياته وهوائه وبحاره وأنهاره، ونباته وحيوانه وجماهده، وشمسه وقمره، وليله ونهاره، كل ذلك مسخر لمنفعة الإنسان، تكريماً من الله له ونعمته عليه، فعليه أن ينتفع بما سخر الله له إن كان من أهل الفكر والعلم، نقرأ في ذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الشَّمْرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ

(١) من كتاب قواعد الجغرافية الاقتصادية ص ٢٦ ، الطبعة الثانية . للدكتور نصر السيد نصر .

وَسَخْرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخْرَ لَكُمُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٢﴾ وَاتَّاکُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصِنُوهَا﴿﴾ (ابراهيم: ٣٤-٣٢)، ﴿﴾ الْمَ تَرَوُا أَنَّ اللَّهَ سَخْرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَةً ظَاهِرَةً وَبِإِطْنَاءٍ﴿﴾ (لقمان: ٢٠)، ﴿﴾ وَسَخْرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴿﴾ (الجاثية: ١٣).

الثروة الحيوانية:

**نَبَّهَ القرآن على الثروات الطبيعية - في مختلف صورها - في كثير من آياته وسورة ٥٠.**

ففي سورة النحل تنبية على الشروة الحيوانية وما ينتج عنها من لحوم وألبان وجلود وأصوات وغيرها ، فقال تعالى : ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفَءٌ وَمَنَافِعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (النحل : ٥) ، ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامَ لِعِبْرَةً نُسْقِيْكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ قَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ (النحل : ٦٦) ، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جَلُودِ الْأَنْعَامِ بَيْوتًا تَسْتَخْفُونَهَا يَوْمَ ظُعْنَكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينَ﴾ (النحل : ٨٠) .

الثورة النباتية

وفي السورة نفسها تنبئه على الشروة النباتية بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَا يُحِبُّ لَكُمْ مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۚ ۱۱﴾ يُبَتِّلُ لَكُمْ يَهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۚ ۱۱﴾ (النحل: ١٠، ١١).

وفي صناعة الحلويات وما يتصل بها بقوله تعالى : «وَمِنْ ثَمَرَاتِ التَّعْبِيلِ

وَالْأَعْنَابِ تَعْذِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَةً لِّقَوْمٍ يَعْقُلُونَ ﴿٦٧﴾  
(النحل: ٦٧).

ويدخل في الثروة الحيوانية: النحل وما يتبع عنه يقول تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۚ ۲۸﴾ ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الشَّمَوَاتِ فَاسْلُكِي سَبِيلَ رَبِّكَ ذَلِلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۚ ۲۹﴾ (النحل: ٢٨ - ٢٩).

وفي سورة يس يقول تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَيَا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۚ ۳۳﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَرْنَا فِيهَا مِنَ الْعَيْوَنِ ۚ ۳۴﴿ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلْتُهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۚ ۳۵﴾ (يس: ٣٣ - ٣٥).

#### الثروة البحرية:

وفي السورة نفسها (النحل) لفت إلى الثروة البحرية وإمكان استغلالها في صيد الأسماك واللآلئ والانتفاع بها في التجارة المحلية والدولية، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْعَرْضَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيرًا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلْكَ مُوَâخِرَ فِيهِ وَلِتَبَغُّوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۚ﴾ (النحل: ١٤).

#### الثروة المعدنية:

ومن أبرز ما ورد في القرآن من التنبية على الثروة المعدنية قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ ۚ﴾ (الحديد: ٢٥)، وفي الآية دالة على أهمية هذا المعدن الخطيرة (الحديد) في حياة البشر في الناحيتين: العسكرية والمدنية.

وما له مغزى عميق أن تسمى السورة التي ذكرت فيها هذه الآية سورة «الحديد».

كما ذكر القرآن «القطر» في قصة السد العظيم الذي بناء ذو القرنين:  
﴿أَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفَخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلْهُ نَارًا قَالَ أَتُونِي أَفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾<sup>(١)</sup> فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهِرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا<sup>(٢)</sup> ﴿٩٦-٩٧﴾  
(الكهف: ٩٦-٩٧).

وفي معرض الامتنان على سليمان وما سخر الله له من طاقات كونية، قال تعالى: ﴿وَأَسْلَنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ (سبأ: ١٢).

#### الشمس والقمر

وأكثر من ذلك كله تصريح القرآن في غير سورة: أنه سخر للإنسان الشمس والقمر، وهذا التسخير يمد حبل الأمل للإنسان، ويشيع من طموحه في السيطرة على الفضاء وتسخيره بأمر الله والانتفاع بالطاقة الشمسية، والوصول إلى القمر بل الشمس وتسخيرهما لمنفعة الإنسان، قال تعالى:  
﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ﴾ (ابراهيم: ٣٣)، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الظَّلَلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾  
(النحل: ١٢)<sup>(١)</sup>.

#### المحافظة على الثروة الحيوانية،

ومن أهم ما جاء به الإسلام في تنمية البيئة والحفاظ عليها وعلى مواردها: عنايته بالثروة الحيوانية.

وعناية الإسلام بالثروة الحيوانية من جهتين:

(١) انظر: كتابنا (دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي) ص ١٣١ - ١٣٤ ط. وهبة.

الأولى: أنها كائنات حية تحس وتسأل، ولها حاجات وضرورات ومطالب، يجب أن تهيأ لها، ولا يحل التقصير في حقها، لأنها لا تستطيع أن تطالب به، ولا أن تسير مظاهره تضغط على الإنسان ليرعاها، ولا يمكنها رفع أمرها للقضاء.

لهذا كانت رعايتها ابتغاء وجه الله تعالى، وطلبًا لمرضاته وموبيته، وخشية من عقابه عز وجل، فهو من مراعاة المثل الأخلاقية العليا لذاتها، التي تميزت بها الشريعة الإسلامية<sup>(١)</sup>.

والجهة الثانية: أنها تمثل ثروة للإنسان، ومواردها مهما من موارد البيئة، وخصوصاً الحيوانات المستأنسة منها، والدواجن ونحوها، فإذا ضاعتها تعني إضاعة مال الإنسان، وهو منهى عنه.

لهذا جاء التوجيه النبوي الكريم يحذر من إضاعة هذه الحيوانات، أو القسوة عليها، أو العبث بها، إرضاء لنزوات الإنسان وغروره وأنانيته.

#### تعطيل الثروة الزراعية والحيوانية من عمل الشرك

ولقد حمل القرآن على نوع من الفساد شاع لدى مشركي العرب، وهو تعطيل بعض الموارد الزراعية والحيوانية، بناء على أوهام وأباطيل شركية، ما أنزل الله بها من سلطان، وناقشهم مناقشة مفصلة في سورة الأنعام كما في قوله تعالى: «وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرَثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَدْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا الْفِرَاءُ عَلَيْهِ سَيَجْزِيَهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ» (الأنعام: ١٣٨).

وفي سورة يونس خاطبهم بقوله: «فَلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً قُلْ اللَّهُ أَذْنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ» (يونس: ٥٩).

(١) انظر: كتابنا (مدخل لدراسة الشريعة) فصل (الأخلاقية) من خصائص الشريعة.

**الوعيد على قتل عصفورة عبثاً،**

**وأكدت السنةُ الأمر بالمحافظة على الموارد بأساليبٍ شتى من الترغيب والترهيب.**

من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « من قتل عصفوراً عبثاً ، عج إلى الله يوم القيمة ، يقول : يا رب ، إن فلاناً قتلني عبثاً ، ولم يقتلني منفعة »<sup>(١)</sup>.

« ما من مسلم يقتل عصفوراً فما فوقها ، بغير حقها ، إلا يسأل الله عز وجل عنها » قيل : يا رسول الله ؟ وما حقها ؟ قال : « أن يذبحها فيأكلها ، ولا يقطع رأسها ، ويرمي بها »<sup>(٢)</sup>.

والحديثان يدلان دلالة قوية على احترام كل ذي روح من الطير والحيوان ، ومنع قتلها لغير حاجة ولا منفعة معتبرة ، كما يرشدان إلى المحافظة على موارد الثروة ، وعدم تبديدها باللهو والعبث ، أي لغير منفعة اقتصادية .

بالإضافة إلى ما يدل عليه الحديثان من المحافظة على البيئة بكل ما فيها من الكائنات الحية ، التي أصبح التقدم التكنولوجي خطرًا عليها .

وفي هذا الهدي النبوى تنديد بحملات الصيد أو (القنصل) التي يقوم بها كثير من أهل الشراء ، الذين يتخلذون من الصيد وسيلة للهو ، وتزرجه أوقات الفراغ ، وصيد الغزلان وبعض الطيور في أحيان كثيرة لغير الأكل ، بل للعبث والتلهي .

---

(١) رواه النسائي (٢٣٩/٧) ، وابن حبان في صحيحه (المورد: ١٠٧١) ، وأحمد أيضاً: (٤/٣٨٩) كلهم عن الشريد الثقفي .

(٢) رواه أحمد عن عبد الله بن عمرو (٦٥٥١) ، وبأختصار منه (٦٥٥٠) ، وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح ، ورواه النسائي ص ٢٠٧ ، ٢٣٩ ، والحاكم وصححه ، وروافقه الذهبي (٤/٢٣٣) ، كما أقره المنشري في الترغيب والترهيب ، كما رواه الطيالسي والحميدي والدارمي . انظر تعليقنا على الحديثين ص ٥٧٦ ، ٥٧٧ من (المنتقى من الترغيب والترهيب) طبع دار الوفاء .

## **الحفظ على الحيوانات من العدو**

ومن التوجيهات النبوية حديث: «لا يوردن مُمْرض على مُصْحٍ»<sup>(١)</sup>.

الممرض: صاحب الإبل المريضة بداء الجرب، والمصح: صاحب الإبل الصحيحة السليمة، فعندما تورد الإبل للشرب، يجب على صاحب الإبل المريضة ألا يوردها على الإبل السليمة، فتحتى بها فتعديها، وهذا توجيه لوقايتها من المرض، فإذا أصيّبت، فيجب أن تعالج حفاظاً عليها، باعتبارها كائننا حياً من ناحية، وباعتبارها مالاً ناميَا من ناحية أخرى، ولا يتم هذا الواجب إلا بطبيب بيطري متخصص، فهو مطلوب شرعاً.

## **إياك والحلوب:**

ومن روائع ما ورد في السنة في المحافظة على الموارد: قول النبي صلى الله عليه وسلم لمضييفه الأنصاري الذي أراد إكرامه بذبح شاة: «إياك والحلوب»<sup>(٢)</sup>.

قال له حينما أخذ الرجل المدية ومضى ليذبح.

ومعنى الحديث: أنه عليه الصلاة والسلام نهى المضيّف أن يعمد إلى شاة يتتفع بدرها ولبنها، لأنها حلوب، فيذبحها، فيخسر درها وحليبها، وي الخسرها معه المجتمع، ويغنى عنها شاة أخرى غير حلوب.

وربما يقول بعض الناس: وماذا يؤثر ذبح شاة في موارد مجتمع أو أمة؟

والجواب: أن الرسول الكريم يربي الأمة على قيم وأخلاق معينة ينبغي أن يلتزم بها الجميع، ورعاية هذه القيم والأخلاقيات على مستوى الأمة ذو مردود هائل، عند من يتدبرون الأمور.

(١) متفق عليه عن أبي هريرة، اللؤلؤ والمرجان (١٤٣٦).

(٢) رواه مسلم في الأطعمة عن أبي هريرة (١٠٣٨).

### الانتفاع بجلد الميّة:

وأكثر من ذلك قوله لأصحابه، وقد رأى شاة ميّة: «من هذه الشاة؟» قالوا: إنها شاة لモلاة ميمونة - أم المؤمنين - قال: «هلا انتفعتم بجلدها؟» قالوا: إنها ميّة، قال: «إنما حرم أكلها»<sup>(١)</sup>.

فهو ينبعهم على الاستفادة بجلد الشاة - فروتها - بأن يُدْبَغَ، فيطهر بالدباغ، ويستفع به.

### المحافظة على الأجناس الحية من الانقراض:

ومن التعاليم التي جاء بها الإسلام في المحافظة على البيئة، ما سبق زمانه، حتى إن المرء في عصرنا ليدهش له، وهو المحافظة على أجناس المخلوقات الحية من الفناء والانقراض، فإن الله تعالى لم يخلقها إلا لحكمة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها.

وقد حكى القرآن عن (أولي الألباب) من أهل الذكر والفكير: أنهم حين تفكروا في خلق السماوات والأرض، قالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ (آل عمران: ١٩١).

وقد تحدثت يوما مع أحد علماء البيئة المختصين، وذكرت له مدى عناية الإسلام بالبيئة وتحسينها، والمحافظة عليها، وأوردت بعض مظاهر ذلك وأداته، فراعه ذلك وأعجبه، وسألني: هل يمكن أن نجد في النصوص الشرعية ما يؤيد فكرة المحافظة على بعض الأنواع من الحيوانات أو الطيور أو غيرها من الانقراض؟

قلت: نعم، نجد ذلك صريحا في حديث رسول الله صلى الله عليه

(١) متفق عليه عن ابن عباس، انظر: اللؤلؤ والمرجان (٢٠٥).

وسلم، الذي يقول في صراحة وجلاء: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها فاقتلو منها الأسود البهيم»<sup>(١)</sup>.

فهذا الحديث النبوي الشريف يشير إلى حقيقة كونية قررها القرآن الكريم، وهي أن الكائنات الحية الأخرى - غير العاقلة - لها كينونتها الاجتماعية الخاصة، التي تميزها عن غيرها، وترتبط بعضها ببعض. وبتعبير القرآن: كل منها أمة مثلكنا. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَبَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحِيهِ إِلَّا أُمَّةٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (آل عمران: ٣٨).

و(المثلية) التي ذكرها القرآن الكريم لا تقتضي المشابهة في كل شيء، فالمشبه لا يقتضي أن يكون كالمشبه به في جميع الوجوه بل في وجه معين يقتضيه المقام، وهو هنا (الأمية) فكل منها أمة لها كيانها واحترامها، وحكمة لله تعالى في خلقها تميزها عما سواها من الأجناس والأمم الأخرى.

فأمّة النمل غير أمّة النحل، غير أمّة العنكبوت. وأمّة الكلاب غير أمّة السناني، غير أمّة أبناء آوى.

وما دامت أمة، فلا ينبغي أن تستأصل، لأن هذا ينافي حكمة الله سبحانه في خلقها، فإن الله تعالى لم يخلق شيئاً عبثاً.

ولا غرو أن جاء هذا الحديث النبوي الشريف في شأن الكلاب، برغم تأذى بعض الناس منها، أو من بعض أنواعها على الأقل، فربما خطر ببال بعض الناس أن يجردوا حملة للقضاء عليها، والخلاص منها، فلا تبقى لها من باقية. فجاء هذا الحديث ينفي هذا الخاطر، ويعارض هذا اللون من

(١) رواه أبو داود برقم (٢٨٤٥) والترمذى (١٤٨٩) والنسائي (٤٢٨٥) وابن ماجه (٣٢٠٤) كلهم في كتاب الصيد وقال الترمذى: حديث حسن، وذكره الألبانى في صحيح الجامع الصغیر، ورواه الطبرانى في الأوسط عن عائشة وفيه ليث بن أبي سليم، وهو ثقة، ولكنه مدلس، كما قال الهيثمى، ورواه الطبرانى في الكبير وال الأوسط وأبو يعلى بن نحوه عن ابن عباس وقال الهيثمى: إسناده حسن (المجمع: ٤٣/٤).

التفكير، معللاً بهذه العلة التي تعلو على منطق العصر الذي قيل فيه الحديث،  
لولا أن قائله لا ينطق عن الهوى **«إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ»** (النجم: ٤).

يقول الإمام أبو سليمان الخطابي في شرح الحديث في كتابه (معالم  
السنن) :

«معناه: أنه كره إفناء أمة من الأمم، وإعدام جيل من الخلق، حتى يأتي عليه  
كله، فلا يبقى منه باقية، لأنه ما من خلق لله تعالى إلا وفيه نوع من الحكم،  
وضرب من المصلحة. يقول إذا كان الأمر على هذا، ولا سبيل إلى قتلهم  
كلهم، فاقتلو شرارهن، وهي السود البهائم، وأبقو ما سواها، لتنتفعوا بها في  
الحراسة، ويقال: إن السود منها شرارها وعقرها»<sup>(١)</sup> اهـ.

ذكرت ملخص هذا الكلام لأستاذ البيئة الذي سأله، فقال: عجيب أن  
يكون عندنا مثل هذه الكنوز الثمينة، ولا نطلع عليها، ولا نعرفها.

قلت له: إن عندنا من هذه الكنوز الكثير في كل جانب، ولكن هذه  
الكنوز الدفينة عادة تحتاج إلى من يفتح عنها في مظانها، ويزبح التراب  
وال أحجار عنها، كما يفعل رجال الآثار في البحث عنها في باطن الأرض،  
حتى يجدوها مطمورة تحت الشرى، أو بين الأتربة والصخور، ومن جد  
وجد، ولكل مجتهد نصيب<sup>(٢)</sup>.

يؤكد هذا التوجيه النبوى المستنبط من القرآن الكريم: ما استنبطه بعضهم مما  
أوحى الله به إلى نبيه نوح عليه السلام قبل مجيء الطوفان: أن يصنع سفيته

(١) انظر: معالم السنن للخطابي مع مختصر السنن للمتندرى وتهليبه لابن القيم بتحقيق أحمد محمد  
شاكر ومحمد حامد الفقي (١٣٢/٤، ١٣٣) ط. المكتبة الأثرية بباكستان، المchorة عن ط. السنة  
الحمدية بمصر. وقد اختلف الفقهاء في حكم قتل الكلاب، والصحيح أنه لا يجوز قتلها، إلا ما كان  
يؤذى ويضر. وقد أجازت النصوص اقتتالها للصيد والماشية والزرع، ويقاد على أنها سائر المأفعى  
المعتبرة شرعاً، كحراسة المنازل ونحوها، كما قاله ابن عبد البر وغيره. انظر: مختصر السنن المذكور.

(٢) انظر: كتابنا (السنة مصدر المعرفة والحضارة).

بأعين الله تعالى ووحيه، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، كما جاء ذلك في القرآن الكريم في سورة هود وفي سورة المؤمنون). يقول تعالى في قصة نوح في سورة هود:

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (هود: ٤٠).

وفي سورة المؤمنون قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنِعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيَنَا فِإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ (المؤمنون: ٢٧).

قال الحافظ ابن كثير: أمر الله نوحًا عليه السلام أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين من المخلوقات ذوات الأرواح (يعني من الحيوانات والطيور والحشرات والزواحف ونحوها من كل ما يعيش في البر) وقيل: وغيرها من النباتات، اثنين ذكرا وأنثى<sup>(١)</sup>.

والزوج هنا: الواحد المزدوج بآخر من جنسه، فالذكر زوج للأنثى، كما هي زوج له، والاثنان زوجان، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الرِّزْوَجَيْنِ الْذَّكَرَ وَالْأَنْثَى ﴾ (النجم: ٤٥) وكما قال تعالى ﴿ ثَمَانِيَةُ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّانِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ... وَمِنَ الْإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ﴾ (الأنعام: ١٤٣، ١٤٤).

وقد يطلق الزوج على مجموع الذكر والأنثى، وليس بمراد هنا، وإلا لزم أن يحمل من كل صنف أربعة. ولابد من هذا التوهم وصف بقوله (اثنين).

وحاصل المعنى كما قال الألوسي: احمل ذكرا وأنثى من كل نوع من الحيوانات.

قال: وأدرج فيه أناسي الهوام والطير<sup>(٢)</sup>.

(١) تفسير ابن كثير (٤٤٥/٢) طبعة عيسى الحلبي.

(٢) روح المعاني للألوسي (٥٣/١٢).

وقد سمي بعض علماء الطبيعة هذا الصنيع - من الحفاظ على الأحياء من الانقراض - (مبدأ نوح) أخذنا من عمله في السفينة<sup>(١)</sup>.

ولكن إنما يتم هذا الاستدلال إذا كان نوح قد أمر بذلك للبقاء على أجناس الأحياء، ولا دليل على ذلك في النص. وخصوصاً أن بعض العلماء قد ذهبوا إلى أن الطوفان لم يعم الأرض كلها. وهذا هو المعقول. فأمر نوح بحمل ما يحتاج إليه إذا نجا ومن معه من الغرق، لثلا يغتموا لفقدانه، ويتكلفوا مشقة جلبه من الأصياع النائية، التي لم يصلها الطوفان. فكأنه قيل: احمل فيها من كل ما تحتاجون إليه - إذا نجوت - زوجين اثنين<sup>(٢)</sup>.

فالعملة في هذه القضية إذن هو الحديث الذي ذكرناه في عدم قتل الكلاب، لأنها أمة من الأم.

#### نموذج من عناية الفقه الإسلامي بالحيوان:

ولقد قننت هذه العناية بالحيوان في فقهنا الإسلامي بكل مذاهبه، التي وضحت أن لهذه الحيوانات حقوقاً يجب أن ترعاى وتؤدى.

وأنقل هنا فقرات من كتاب فقيهي معتبر عند الحنابلة وهو «شرح غاية المنهى» قال: «وعلى مالك بهيمة إطعامها ولو عطبت (أي لم يرج منها نفع) وعلى سقيها حتى تنتهي إلى أول شبع وأول رعي دون غaitتها، لحديث ابن عمر قال: «عذبت امرأة في هرة حبسها حتى ماتت جوعاً...» (الحديث).

فإن عجز عن نفقتها أجبر على بيع أو إجارة، أو ذبح مأكول، إزالة لضررها وظلمها، لأنها تتلف إذا تركت بلا نفقة، وإضاعة المال منهيا عنه.

فإن أبي فعل شيء من ذلك فعل الحاكم الأصلح من الثلاثة، أو افترض عليه، وأنفق عليه، كما لو امتنع من أداء الدين. ويحرم لعنها - أي البهيمة - لما

(١) انظر: بحث د. كمال البشانوني المقدم للمتدى الأول للبيئة.

(٢) روح المعاني (٢٤/١٢).

روى أحمد ومسلم عن عمر: أنه صلى الله عليه وسلم كان في سفر فلعن امرأة ناقة فقال: «خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة» فكأني أراها الآن تمشي في الناس ما يعرض لها أحد.

ولهما من حديث أبي بربعة: «لا تصحبنا ناقة عليها لعنة الله»، ولمسلم من حديث أبي الدرداء أنه قال: «لا يكون اللعنون شفعاء يوم القيمة».

ويحرم تحميلاً أي البهيمة - مشقاً (ما يشق عليها) لأنه تعذيب لها. ويحرم حلبها ما يضر ولدتها؛ لأن لبنها مخلوق له أشبه ولد الأمة، ويحسن للحليب أن يقص أظفاره لثلا يجرح الضرع.

ويحرم ضرب وجه ووسم (أي كَيْ فيه) أي في الوجه لأنه عليه الصلاة والسلام لعن من ضرب أو وسم الوجه ونهي عنه، ذكره في الفروع .. ويكره جزء معرفة وناصية، وجزء ذئب، وتعليق جرس، أو وتر للخبر .. ويكره له إطعامه فوق طاقته، وإكراهه على الأكل، على ما اتخذه الناس عادة لأجل التسمين، قاله في «الغنية».

ويجب على مقتني الكلب المباح أن يطعمه ويسقيه أو يرسله، لأن عدم ذلك تعذيب له .. ولا يحل حبس شيء من البهائم لتهلك جوعاً أو عطشاً لأنه تعذيب، ولو غير معصومة لحديث: «إذا قتلتم فأحسنوا القتلة»<sup>(١)</sup> انتهى.

وهكذا نجد فقهاً إسلامياً يتعمق في القضية، حتى يدخل في هذه التفصيات الكثيرة، التي لا تكتفي برعاية الجانب المادي للحيوان، بل بالجانب الأدبي، حتى إنه يحرم لعن البهيمة، كأنما هي كائن يحس ويعقل. وهي ذروة في التعامل لم ترق إليها أي فلسفة من الفلسفات أو دين من الأديان.

وقد ذكر الفقهاء أن مما يوجب التعزير قطع ذنب الدابة<sup>(٢)</sup>، لما فيه من إيذاء وتشويه لها.

(١) مطالب أولي النهى شرح غاية المتنبي ج ٥ ص ٢٦٢ - ٢٩٤.

(٢) ذكر ذلك في (الفتاوى الهندية) ج ٢ ص ٩١. انظر: التعزير في الشريعة الإسلامية للدكتور عبد العزيز عامر ص ٢٠٦.

ومن اهتمام المسلمين بالحيوانات : اهتمام علم (الحسبة) - وقد أُلْفَ فيه عدد من الكتب في مختلف المذاهب الفقهية - بموضوع الحسبة على البياطرة، ويقصد بهم الأطباء الذين يعالجون الحيوانات، وهي - كما قالوا - أصعب علاجاً من أمراض الأدميين ، لأن الدواب ليس لها نطق تعبر به عما تجده من المرض والآلم ، وإنما يستدل على عللها بالحس والنظر ، فيحتاج البيطار إلى حسن بصيرة بعلل الدواب وعلاجهما ، فلا يتعاطى البيطرة إلا من له معرفة وخبرة ، فلا يتهم على الدواب بقصد أو قطع أو كيٌّ وما أشبه ، بغير خبرة ، فيؤدي إلى إهلاك الدابة أو عطبها ، فيلزم الضيمان من طريق الشرع ، ويعزره المحاسب من طريق السياسة .

وذكر العلماء هنا تفاصيل كثيرة مهمة ، تدل على مدى عنایتهم بهذا الأمر<sup>(١)</sup> .

#### المحافظة على الثروة النباتية:

ومن الموارد المهمة : الثروة النباتية التي يحتاج إليها الإنسان والحيوان في غذائهما ، كما قال تعالى : ﴿فَلَيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ <sup>٢٤</sup> ﴿أَنَا صَبَّيْنَا الْمَاءَ صَبَّاً﴾ <sup>٢٥</sup> ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقَّاً﴾ <sup>٢٦</sup> ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا جَبَّاً﴾ <sup>٢٧</sup> ﴿وَعَبَّا وَقَضَبَّا﴾ <sup>٢٨</sup> ﴿وَزَيْتُونَا وَنَخْلًا﴾ <sup>٢٩</sup> ﴿وَحَدَّأَتْنَا غُلْبَانًا﴾ <sup>٣٠</sup> ﴿وَفَاكِهَةَ وَأَبَا﴾ <sup>٣١</sup> ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلَا تَنْعَمُّوْكُمْ﴾ <sup>٣٢</sup> ﴿﴾ (عبس : ٢٤ - ٣٢) .

فهكذا خلق الله النباتات متاعاً ومنفعة للأدميين ولأنعامهم التي تخدمهم وهي صحيحة ، ويأكلونها وهي ذبيحة ، فهي في النهاية متاع لهم في الحقيقة .

وقال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُّلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ <sup>٥٣</sup> ﴿كُلُوا وَأَرْعُوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولَئِي النِّهَى﴾ <sup>٥٤</sup> ﴿﴾ (طه : ٥٣ ، ٥٤) .

(١) انظر : معالم القرابة في أحكام الحسبة للقرشي ص ٢٤ - ٢٧ . نشر الهيئة العامة للكتاب .

وقال سبحانه معدداً آياته في الخلق، ونعمته على الناس: «وَآيَةُ لِّهُمُ الْأَرْضُ  
الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبَّا فِيمَنْ يَأْكُلُونَ ٢٣»، وَجَعَلْنَا فِيهَا جِنَّاتٍ مِّنْ تُخْرِيلٍ  
وَأَعْنَابٍ وَفَجَرْنَا فِيهَا مِنَ الْعَيْوَنِ ٢٤ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلْتُهُ أَيْدِيهِمْ إِلَّا  
يَشْكُرُونَ ٢٥» (يس: ٣٣-٣٥).

وفي آيات أخرى لفت الأنظار ونبه العقول إلى ما في الزرع من بديع صنع الله الذي أتقن كل شيء، والذي يرى الإنسان فيه الجمال البهيج للأنفس، والذي يسر الناظر بينعه، كما قال تعالى: «وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً  
فَأَخْرَجَنَا بِهِ نَبَاتٍ كُلُّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضْرًا تُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ  
طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجِنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالرِّيَّتُونَ وَالرُّمَانُ مُشْتَبِهٌ وَغَيْرُ مُشْتَبِهٍ اَنْظُرُوا  
إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَتَمْ رَيْتُمْ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لِآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (الأنعام: ٩٩).

وقد ذكر علماء النبات المختصون والمتبعون له ولفصائله وأنواعه وألوانه في شتى بقاع الأرض: أن هناك نحو مائتين وخمسين ألفاً من أنواع النبات وألوانه! ولا يسعنا إلا أن نقول: «سَبَّحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلُّهَا مِمَّا تَبَيَّنَتْ  
الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ» (يس: ٣٦).

هذه الشروء النباتية التي توفر للإنسان الشمر الطيب، والظل الظليل، والمنظر الجميل، ومنافع كثيرة بದأنا ندركها اليوم، إنما هي نعم من الله تبارك وتعالى يجب أن تقابل بالشكر للمنعم جل شأنه، ومن شكره سبحانه عليها أن ننميتها ونحافظ عليها، ونقوم بحسن رعايتها، حتى تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وألا نهملها فتضيع وتهلك وتذوي، ولا نقطعها لغير حاجة أو مصلحة معتبرة، بل نزيد مساحتها بالغرس والزرع ما استطعنا، وألا نسرف في استهلاكها بغير حساب، وأن نعاملها بالإحسان والرفق، كما سنين ذلك بعد. فإن لم نفعل ذلك، فقد كفربنا نعمة الله تعالى، ومن كفر نعمة الله فإن الله شديد العقاب.

وما ذكره القرآن عبرة لنا: قصة قوم أضاعوا ثروتهم النباتية الطيبة العظيمة، بسوء ما صنعوا، فقد منَ الله تعالى عليهم بشروة زراعية هائلة، ولكنهم لم يقوموا بحق شكرها، والمحافظة عليها، فسلبوا هذه النعمة، جراء وفاقاً.

وهؤلاء هم قوم سباً باليمن، الذين قص الله علينا قصتهم في سورة سميت باسمهم: سورة سباً، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسْبَاً فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينِ وَشَمَائِلِ كُلُّوْ مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكَرُوا لَهُ بَلْدَةً طَيِّبَةً وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ (١٥) ﴿فَأَغْرَضُوْا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتِهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِيْ أَكْلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ (١٦) ﴿ذَلِكَ جَزِيَّتَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهُلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ﴾ (١٧) (سباً: ١٥-١٧)

لقد انهار سدهم العظيم الذي أقاموه، فانهارت حياتهم بسببه، وتفرقوا وتمزقوا «شر ممزق» كما قال القرآن، وضرب بهم المثل، فقيل: تفرقوا تفرق أيدي سباً.

#### قاطع السدر في النار،

يؤكد هذا التوجه الحديث الشريف: «من قطع سدراً صوب الله رأسه في النار»<sup>(١)</sup>.

قال أبو داود بعد أن روى هذا الحديث: يعني من قطع سدراً في فلة، يستظل بها ابن السبيل والبهائم، عبثاً وظلمما، بغير حق يكون له فيها، صوب الله رأسه في النار<sup>(٢)</sup>.

(١) رواه أبو داود في الأدب (٥٢٣٩)، عن عبد الله بن حبشي وذكره في صحيح البخاري الصغير (٦٤٧٦)، والمراد بالسدرة: شجرة السدر (البنق) التي يكثر وجودها في البراري.

(٢) انظر سنن أبي داود (٣/٤٠٤).

وفي هذا الوعيد الشديد توجيهه إلى المحافظة على الأشجار، ومنها أشجار البر والغابات، لما فيها من نفع كبير للبيئة، فلا يجوز أن تقطع إلا بقدر وحساب، بحيث يغرس مكانها غيرها، مما يقوم بوظيفتها.

#### المحافظة على الثروة المائية:

ومن أهم الموارد التي تجب العناية بها، والمحافظة عليها: الماء، أصل الحياة للإنسان والحيوان والنبات، كما قال تعالى: «وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلُّ شَيْءٍ حَيٌّ» (الأنباء: ٣٠).

الماء ثروة غالبة نفيسة، ولكن الناس لا يقدرونها حق قدرها، لأن الله تعالى هيأها للناس بالمجان، في الأنهر والبحيرات والأمطار، كما قال تعالى: «وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الْثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ» (إبراهيم: ٣٢).

وقال تعالى: «وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ٢١٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ٢١١ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ٢١٢ مَتَاعًا لَكُمْ وَلَا تَنْعَمُ كُمْ ٢١٣» (النازعات: ٣٣-٣٠).

ومن فضل الله تعالى على عباده أن جعل الأشياء الضرورية للناس أرخص الأشياء، لأنه هيأها للناس بوفرة، مثل الماء والهواء والحرارة والضياء. وهذا ما جعل كثيراً من الناس للأسف لا يحسون بقيمة هذه النعم إلا إذا فقدوها أو حرموا منها ولو جزئياً أو نسبياً، فيدركون حينئذ قدرها وفائتها. وبصدقها تميز الأشياء.

ولكن مما ينبغي أن يعلم أن الماء خاصة لا يقبل الزيادة والنماء، مثل الثروة النباتية، أو الثروة الحيوانية. كما أشار إلى ذلك القرآن بقوله «وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدْرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ» (المؤمنون: ١٨).

وإذا كانت الكائنات الحية - وعلى رأسها الإنسان - لا تستطيع أن تعيش بغير

الماء، والماء محدود، فالواجب على البشر أن يحافظوا على هذا الكثر النفيس، ولا يسيئوا إليه، بتلوينه أو إفساده أو إصواته في غير وجهه، أو الإسراف في استهلاكه لغير حاجة حقيقة أو مصلحة لها اعتبارها عند العقلاء من الناس.

ولقد نبه علماء البيئة والبيولوجيا وغيرهم على أن الماء من أهم مكونات البيئة، وأن الحاجة إليه عامة، وأن البشرية مقبلة على أزمة في المياه، توشك أن تكون من أسباب الحروب بين الناس بعضهم وبعض، وأن الماء في المستقبل سيكون أهم وأغلى من النفط، وربما ظهرت بوادر ومؤشرات لهذه الأزمة المخوفة للحظها اليوم.

ونحن إذا أنعمنا النظر في تعاليم الإسلام وأحكامه نجد أنه يعني عنابة باللغة بالحفظ على الشروء المائية، وتقدير نعمة الله فيها، وذلك من خلال عدة أحكام وتوجيهات ملزمة للمسلمين، بعضها تلزمهم أخلاقياً، وبعضها تلزمهم قانونياً. منها:

#### النهي عن تلويث الماء:

من هذه التوجيهات الإسلامية: النهي عن تلوث الماء بأي سبب من أسباب التلوث، مثل البول أو البراز فيه.

اقرأ معي هذه الأحاديث الشريفة:

«اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد (موارد الماء) وقارعة الطريق والظل»<sup>(١)</sup>.

«لا يبولن أحدكم في الماء الدائم، (أي الراكد) الذي لا يجري، ثم يغتسل منه»<sup>(٢)</sup>.

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم والبيهقي عن معاذ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١١٢).

(٢) رواه البخاري في كتاب الوضوء ومسلم في الطهارة (٢٨١) عن أبي هريرة.

«لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يتوضأ منه»<sup>(١)</sup>.

«لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ولا يغتسل فيه من الجنابة»<sup>(٢)</sup>.

«لا يبولن أحدكم في مستحمه»<sup>(٣)</sup>.

والتلويث في عصرنا لم يعد مقصورا على البول والبراز ونحوها من الحاجات البشرية التي يفعلها الدهماء من الناس ، بل غدت هناك أنواع أشد خطرا ، وأبعد أثرا ، وأوسع نطاقا ، من هذا كله ، وهي التلوث بمخلفات الصناعة ، والمواد الكيماوية ، ومنها مواد سامة وقاتلة ، ومخلفات النفط والبواخر التي تغرق في البحار ويسيل ما فيها ، فتلوث المياه ، وأنار الحروب وما ترکه من المواد المشعة ، التي تكون خطرا على الأسماك والأحياء المائية ، وبالتالي تصبح خطرا على الإنسان نفسه حين يأكلها .

#### خطرا الإسراف في الماء:

وهناك خطرا آخر يتجسد في سوء استهلاك الماء ، والإسراف في استخدامه ، واعتباره مادة رخيصة الثمن ، مع ماله من قيمة لا يعرفها إلا أولو الألباب من البشر .

ولقد روی ابن ماجه أن النبي صلی الله عليه وسلم مر بسعد بن أبي وقاص وهو يتوضأ فقال له: لا تصرف. فقال: أَوْفِي الماء إِسْرَافاً؟ قال: نعم، وإن كنت على نهر جار<sup>(٤)</sup>.

ظن سعد بحكم نشأته ومقتضى ثقافته الموروثة: أن الإسراف إنما يكون

(١) رواه أحمد والترمذى والنسائى عن أبي هريرة، كما في صحيح البخارى الصغير (٧٥٩٤).

(٢) رواه أبو داود في الطهارة (باب البول في الماء الراكد) برقم (٧٠) وابن ماجه في الطهارة أيضا (٣٤٣) ولفظه «لا يبولن أحدكم في الماء الراكد» كلامهما عن أبي هريرة. ورواه أيضاً أحمد وابن حبان والبيهقي كما في صحيح البخارى الصغير (٧٥٩٥).

(٣) رواه أحمد وأصحاب السنن وابن حبان والحاكم عن عبد الله بن متفقل، المصدر المذكور (٧٥٩٧).

(٤) رواه ابن ماجه عن سعد، وفي سنته ضعف، وسيأتي تخریجه.

في المال والنفقة فيه، أما أن يكون في الماء، فلم يكن يتصور ذلك، فقال ما قال مستغرباً ومستعماً، فكان جواب الرسول معلماً ومصححاً: «نعم وإن كنت على نهر جار» ومعنى هذا: أن الاقتصاد يجب أن يكون خلقاً للمسلم، لا تدفعه إليه حاجة ولا ضيق يد، بل يجب أن يتتجنب الإسراف، ولو كان على نهر جار.

وروى أبو داود عن عبد الله بن مغفل قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنه سيكون قوم من أمتي يعتذرون في الطهور والدعاء»<sup>(١)</sup>.

وقد روى أبو داود هذا الحديث في كتاب الطهارة في (باب الإسراف في الماء).

ومعنى الاعتداء في الطهارة (أي الطهارة): تجاوز الحد المعقول في استعمال الماء، والخروج من الاعتدال إلى الإسراف المحظور.

ومن المعروف شرعاً: أن استعمال الماء للشرب مقدم على استعماله للطهارة والوضوء. وما يشير إلى ذلك ما رواه أبو هريرة أن رجلاً سأله النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله؛ إِنَّا نرْكِبُ الْبَحْرَ، وَنَحْمَلُ مَعْنَا الْقَلِيلَ مِنَ الْمَاءِ، فَإِنْ تُوْضِّنَا بِهِ عَطَشْنَا، أَفَتَوْضِّنَنَا بِمَاءَ الْبَحْرِ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هُوَ الطَّهُورُ مَا ظَاهِرُ الْخَلْ مِيتَتِهِ»<sup>(٢)</sup>.

يفيد سؤالهم أن إرواء العطش مقدم على الوضوء. وهو ما قرره الفقهاء في أن خوف العطش يبيح لل المسلم أن يتيمم مع وجود الماء المحتاج إليه للشرب. كما أجاز ابن قدامة في (المقنع) التيمم لعطش يخافه على نفسه أو على رفيقه في السفر أو بهيمته.

---

(١) رواه أبو داود في الطهارة (٩٦) كما رواه أحمد وابن ماجه وابن حبان والحاكم كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢٣٩٦).

(٢) رواه أبو داود في الطهارة (٨٣) والترمذى (٦٩) قال: حسن صحيح، والنسائي وابن ماجه (٣٧٦) ومالك في الصلاة.

قال في (الشرح الكبير) : وإن خاف على رفيقه أو بهائمه ، فهو كما لو  
خاف على نفسه . . . فجاز له التيمم كالمريض .

وإن وجد عطشانا يخاف تلفه ، لزمه سقيه ويتيتم . قيل لأحمد : رجل معه  
إداوة من ماء الوضوء ، فيرى قوما عطاشا : أحب إليك أن يسقيهم أو يتوضأ ؟  
قال : لا ، بل يسقيهم . ثم ذكر عدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه  
 وسلم يتيممون ، ويحبسون الماء لشاهدهم .

وقال أبو بكر والقاضي (من الحنابلة) : لا يلزم ذلك ، لأنه يحتاج إليه .

ورده في الشرح الكبير قائلا : ولنا : أن حرمة الأدمي تقدم على الصلاة .  
 بذلك مال رأى حريقا أو غريقا عند ضيق الصلاة ، لزمه ترك الصلاة ،  
 والخروج لإنقاذه ، فلأن يقدمها على الطهارة بالماء أولى . وقد روی في حديث  
 البغى أن الله غفر لها بسقي الكلب عند العطش ، فإذا كان هذا قد حصل في  
 سقي الكلب ، فالآدمي أولى <sup>(١)</sup> . انتهى <sup>(٢)</sup> .

---

(١) المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف (٢/١٧٦ ، ١٧٧) بتحقيق التركي والحلو .

(٢) انظر : مزيدا من عناية الإسلام بالثروة المائية في فصل (الإحسان بالبيئة) : الإحسان بالماء .

## ٥. الحفاظ على صحة الإنسان

إذا كان مطلوباً منا أن نحافظ على موارد البيئة وثرواتها الحيوانية والزراعية والمائية، فأولى من ذلك كله: المحافظة على الثروة البشرية، أي على الإنسان، خليفة الله في الأرض.

إذ لا ريب أن من أنفس الموارد، وأثمن الثروات، وأعلاها قيمة: صحة الإنسان، فهو الغاية من المحافظة على الموارد، المستفيد منها، وقد سخرها الله جميعاً له. وهو كذلك الوسيلة لذلك في المحافظة عليها.

وقد يظن بعض الناس أن الدين لا يلقي بالاً لصحة الإنسان، على اعتقاد أن الدين يوجه عناته للروح لا للجسم، ولآخرة لا للدنيا، وهذا إن صح في أديان أخرى - لا يصح في الإسلام بحال من الأحوال، لأن دين يجمع بين الحستين: حسنة الدنيا وحسنة الآخرة.

ولقد عني القرآن، كما عنيت السنة النبوية، بصحة الإنسان، وعافية بدنه ونفسه، عناء فائقة. وقدمت نصوصها في ذلك معارف ومفاهيم، وقيماً ومبادئ تعتبر ثروة نفيسة عند كل من يقدر الإنسان حق قدره.

ونحن هنا نحاول أن نذكر أهم هذه المبادئ أو المفاهيم التي جاء بها القرآن وفصلتها السنة فيما يتعلق بصحة الإنسان وسلامته من الأدواء، وقدرته على الإنجاز والعطاء، ومقاومته للأسمام والأوبئة التي تهدد الإنسان في عافيته. وقد اقتبسنا معظمها من كتابنا (السنة مصدر المعرفة والحضارة).

الصحة نعمة،

أول هذه المبادئ أو القيم أو المفاهيم التي اهتمت بها السنة المحمدية: اعتبار الصحة والعافية من أعظم نعم الله تعالى، التي يجب أن تقابل بالشكر، المستوجب للمزيد.

يقول تعالى: «لَئِن شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ»<sup>(1)</sup> (إبراهيم: ٧).

وشكر هذه النعمة يتم بالمحافظة عليها، وفق سنن الله في الأسباب والمسبيات، والاقتداء بالهدي النبوي في ذلك، فهو خير الهدي وأكمله.

يقول الإمام ابن القيم: ومن تأمل هدي النبي صلى الله عليه وسلم وجده أفضل هدي يمكن حفظ الصحة به، فإن حفظها موقوف على حسن تدبير المطعم والمشرب، والملبس والمسكن، والهواء والنوم، واليقظة والحركة، والسكون والمنكح، والاستفراغ والاحتباس، فإذا حصلت هذه على الوجه المعتمد الموافق الملائم للبدن والبلد والسن والعادة، كان أقرب إلى دوام الصحة أو غلبتها إلى انقضاء الأجل.

ولما كانت الصحة والعافية من أجل نعم الله على عبده، وأجزل عطايته، وأوفر منحة، بل العافية المطلقة أجل النعم على الإطلاق، فحقيقة لمن رزق حظا من التوفيق مراعاتها وحفظها وحمايتها عما يُضادها.

وقد روى البخاري في «صححه» من حديث ابن عباس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»<sup>(1)</sup>.

وفي الترمذى وغيره من حديث عبيد الله بن ممحصن الأنصارى، قال:

(1) رواه البخاري (١١/١٩٦) في الرفاق.

رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أصبح معافي في جسده، آمنا في سربه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا»<sup>(١)</sup>.

وفي الترمذى أيضاً من حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أول ما يسأل عنه العبد يوم القيمة من النعيم، أن يقال له: ألم تُصْحِّ لَكَ جَسْمَكَ، وَنَرُوكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ»<sup>(٢)</sup>.

ومن هنا قال من قال من السلف في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيم﴾ (التكاثر: ٨) قال: عن الصحة.

وفي مسنـد أحمد وغيره عن أبي بكر الصديق: قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «سلوا الله اليقين والمعافاة، فـما أوتـي أحد بعد اليقين خيراً من العافية»<sup>(٣)</sup>، فـجمع بين عـافيةـي الدين والـدنيـا، ولا يتم صـلاحـ العـبدـ فيـ الدـارـيـنـ إـلاـ بـاليـقـينـ وـالـعـافـيـةـ، فـالـيـقـينـ يـدـفعـ عـنـهـ عـقوـباتـ الـآخـرـةـ، وـالـعـافـيـةـ تـدـفعـ عـنـهـ أـمـراـضـ الدـنـيـاـ فـيـ قـلـبـهـ وـبـدـنـهـ»<sup>(٤)</sup>. اـهـ.

وروى النـسـائـيـ منـ حـدـيـثـ أـبـيـ بـكـرـ أـيـضاـ: «ـسـلـواـ اللـهـ الـعـفـوـ وـالـعـافـيـةـ وـالـمـعـافـاـ، فـمـاـ أـوتـيـ أـحـدـ بـعـدـ يـقـينـ خـيرـاـ مـنـ مـعـافـاـ»<sup>(٥)</sup>. وـهـذـهـ الثـلـاثـةـ كـمـاـ قـالـ ابنـ الـقـيـمـ تـتـضـمـنـ إـزـالـةـ الشـرـورـ الـمـاضـيـ بـالـعـفـوـ، وـالـخـاصـرـ بـالـعـافـيـةـ، وـالـمـسـتـقـلـةـ بـالـمـعـافـاـ، فـإـنـهاـ تـتـضـمـنـ المـداـوةـ وـالـاسـتـمـرارـ عـلـىـ الـعـافـيـةـ.

(١) رواه الترمذى (٢٣٤٧) وابن ماجه (٤١٤١) كلامـاـ فـيـ الزـهـدـ، وـالـبـخـارـيـ فـيـ (الأـدـبـ المـفـرـدـ) (٣٠٠) وـالـسـمـيدـيـ فـيـ (مـسـنـدـهـ) رـقـمـ (٤٣٩ـ) وـفـيـ سـنـدـهـ مـجـهـولـ، لـكـنـ لـهـ شـاهـدـ مـنـ حـدـيـثـ أـبـيـ الدـرـدـاءـ عـنـ اـبـنـ حـيـانـ (٢٥٠٣ـ) وـآخـرـ مـنـ حـدـيـثـ اـبـنـ عـمـ أـبـيـ الدـنـيـاـ، فـيـتـقـوـيـ بـهـمـاـ.

(٢) رواه الترمذى (٣٥٥٥) فـيـ التـفـسـيرـ: بـابـ وـمـنـ سـوـرـةـ الـهـاـكـمـ الـتـكـاثـرـ، وـإـسـنـادـ صـحـيـحـ، وـصـحـحـهـ اـبـنـ حـيـانـ (٢٥٨٥ـ).

(٣) رواه الحاكم فـيـ مـسـنـدـ أـبـيـ بـكـرـ (٥ـ) وـ(٧ـ) وـقـالـ شـاـكـرـ: إـسـنـادـ صـحـيـحـ، وـابـنـ مـاجـهـ (٣٨٤٩ـ) وـالـبـخـارـيـ فـيـ الأـدـبـ المـفـرـدـ (٧٢٤ـ) وـالـحـاـكـمـ وـصـحـحـهـ (٥٨٩ـ/١ـ) وـوـافـقـهـ الـلـهـبـيـ.

(٤) زـادـ الـعـادـ (٤ـ/ـ٢١٦ـ.ـ٢١٤ـ) طـ الرـسـالـةـ.

(٥) رواه النـسـائـيـ فـيـ (اعـملـ الـيـوـمـ وـالـلـيـلـةـ) (٨٨١ـ،ـ٨٨٢ـ) بـتـحـقـيقـ دـ فـارـوقـ حـمـادـهـ.

**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف،**

وكما يحب الإسلام من المسلم أن يكون جسمه سليماً معاذى من الأمراض، يحب له كذلك أن يكون جسمه قوياً مرنًا، قادرًا على الحركة والنشاط، والقيام بأعبائه الدينية والدنيوية. فالمؤمن القوي خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف.

والإسلام يحث المسلمين على كل ما يكسبهم القوة في أجسادهم. وإذا كان عصرنا قد نظم في ذلك ممارسات وتدريجات معينة تساعد على تقوية الجسم، فينبغي على المسلم أن يأخذ منها ما يناسبه ويحتاج إليه، وهو مطلوب طلب استحباب، وقد يكون طلب إيجاب، إذا اشتدت الحاجة إلى ذلك، أو كان ذلك لازماً للدفاع عن نفسه وأهله ودينه وأمته، فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وقد رغب النبي صلى الله عليه وسلم في العمل والنشاط والحركة والبكور «اللهم بارك لأمتى في بكورها»<sup>(١)</sup>. وحذر من التباطؤ والتکاسل والترهل، وكان عليه الصلاة والسلام يستعذ بالله من العجز والكسل<sup>(٢)</sup> وجعل من صفة المؤمن الملتزمه أن يصبح طيب النفس نشيطاً، وصفة غيره أن يصبح خبيث النفس كسلان<sup>(٣)</sup>

ودعا الإسلام إلى رياضة الأجسام بالسباحة والرماية وركوب الخيل، وما شابهها من ألوان الفروسية، ورغبة الآباء في تربية أولادهم على ممارستها، وشرع التنافس والمسابقات تشجيعاً على ذلك، وإغراء به. وسبق النبي صلى

(١) رواه أحمد وأصحاب السنن وأبي حبان في صحيحه عن صخر الغامدي، وأبي ماجه عن ابن عمر، والطبراني عن عدد من الصحابة كما في صحيح الجامع الصغير (١٣٠٠).

(٢) متفق عليه من حديث أنس. اللؤلؤ والمرجان (١٧٣٢).

(٣) كما يتضح ذلك من حديث: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد.. الحديث رواه البخاري عن أبي هريرة، في كتاب التهجد (٣/٢٤).

الله عليه وسلم بين الخيل، وأعطى السابق، كما شرع الم سابقة على الأقدم ونحوها.

### تقرير حق الجسد على الإنسان:

ومن المبادئ المهمة التي جاء بها الإسلام في الحفاظ على صحة الإنسان: تقريره (حق الجسد) على الإنسان.

فالأول مرة قي جو الدين والروحانيات، يسمع الناس هذا التوجيه المؤكد، الذي صدر من رسول الإسلام «إن لبدنك عليك حقا». فلم يكن أهل الأديان يعنون بشأن الجسد، كما ذكرنا، فهو هنا يقرر هذا المبدأ الكبير والأصيل: أن للجسد على صاحبه حقا. ومن حقه عليه أن ينظفه إذا اتسخ، وأن يقويه إذا ضعف، وأن يطعمه إذا جاع، وأن يسقيه إذا عطش، وأن يريحه إذا تعب، وأن يقيه من أذى الحر والبرد، وأن يداويه إذا آلت له الأمراض، إلى غير ذلك مما يعرفه الناس بالفطرة والممارسة.

ومن هنا لم يجرز للإنسان في نظر الإسلام إرهاق البدن بالعمل وطول السهر والجوع - وإن كان ذلك في صورة عبادة الله تعالى - فقد أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على رهط من أصحابه أراد أحدهم أن يقوم الليل فلا ينام، والثاني أن يصوم فلا يفطر، والثالث أن يعتزل النساء فلا يتزوج، وقال لهم: «أنا أعلمكم بالله وأخشاكם له، ولكنني أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»<sup>(١)</sup>.

وعن أنس: أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى شيخاً يهادى بين ابنيه (أي ييشي بينهما معتمداً عليهما) قال: «ما بال هذا؟» قالوا: نذر أن ي Yoshi (أي إلى الحج) قال: «إن الله عن تعذيب هذا الغني» وأمره أن يركب<sup>(٢)</sup>.

(١) رواه البخاري وغيره عن أنس.

(٢) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (٤٠٦٤).

ولم يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث في فضل الجوع م杰داً،  
إلا ما كان من جوع الصيام، بل ثبت عنه الاستعاذه بالله منه: «اللهم إني أعوذ  
بك من الجوع، فإنه بئس الضجيع»<sup>(١)</sup>.

#### تشريع الرخص والتخفيفات:

ومن عناية الإسلام بحق الجسم ما شرعته أحكامه من رخص في أداء  
الفرائض، إذا كان العمل بالعزم يؤذى الجسم؛ كأن يسبب له مرضًا، أو يزيد  
في مرض قائم، أو يؤخر الشفاء منه، أو يؤدي إلى مشقة زائدة، فهناك يدع  
الوضوء إلى التيمم، والصلوة قائماً إلى الصلاة قاعداً أو مضطجعاً، وله الفطر  
في رمضان للسفر أو للمرض: «وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةُ مِنْ أَيَّامٍ  
أُخْرَى» (البقرة: ١٨٥) ورخص السفر والمرض معروفة. إلى غير ذلك من أنواع  
التخفيف إلى بدل أو إلى غير بدل، حتى أصبح مقرراً عند عامة المسلمين: أن  
صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان. وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ يَحْبُّ  
تَوْتَى رَحْصَهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تَوْتَى مَعْصِيَتِهِ»<sup>(٢)</sup>.

وأحياناً يصبح العمل بالرخصة واجباً، كما إذا كان المرض شديداً، أو  
السفر مجدها، والجسم ضعيفاً، لشيخوخة أو نحو ذلك، فعلى مثل هذا يحرم  
الصوم، لما فيه من مشقة بالغة، كالذي رأى النبي صلى الله عليه وسلم في  
السفر، يظلل عليه رفقاؤه ويرشون عليه الماء من فرط ما به من جهد، فلما  
سأل عن ذلك قالوا: إنه صائم، فقال عليه الصلاة والسلام: «لَيْسَ مِنَ الْبَرِّ  
الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ» متفق عليه. أي في هذا النوع من السفر الذي يشق على  
صاحبها إلى هذا الحد<sup>(٣)</sup>.

ومن ذلك: ما شرعة القرآن والسنة من أحكام الضرورات، التي تباح بها

(١) رواه أبو داود والنسائي وأبي ماجة عن أبي هريرة، وحسنه في صحيح الجامع الصغير (١٢٨٣).

(٢) رواه أحمد وأبي حيان والبيهقي في الشعب عن ابن عمر، كما في صحيح الجامع الصغير (١٨٨٦).

(٣) انظر كتابنا: تيسير الفقه، «فقه الصيام» متى يكون الفطر في السفر أفضل؟

المحظورات، فمن هذه المحظورات: المحافظة على الجسم وسلامته، حتى أبيح للMuslim أكل الميتة، والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله: ﴿فَمَنِ اضطُرَّ غَيْرَ بَاغِ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمٌ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٧٣).

العناية بالطب والتدابي:

والإسلام، كما عني بالصحة، يعني بالطبع سواء كان طبا علاجيا أم وقايا، وإن كانت عنایته بالوقائي أكثر مما هو معلوم: أن درهم وقاية خير من قنطر علاج.

ومن أهم أسباب الوقاية: ترك الإسراف، والاحتماء من التخمة، فقد قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَأَشْرِبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف: ٣١).

وفي الحديث: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه». بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان ولا محالة فاعلا، فثلاث لطعامه، وثلاث لشرابه، وثلاث لنفسه»<sup>(١)</sup>.

إقرار سنة الله في العدوى:

ومن أهم ما جاء به الإسلام هنا: أنه أقر سنة الله في العدوى وأمر بالاحتراز والوقاية والعزل الصحي من الأوبئة العامة كالطاعون ونحوه، بل وسع دائرة الوقاية حتى شملت الحيوان الأعجم.

وقال: «لا يوردن مرض على مصح»<sup>(٢)</sup> والممرض: الذي إبله مراض، والمصح: الذي إبله صراح. ومعنى: لا يورد عليه: لا يخلط المريضة الجرباء بالصحيحة في أثناء ورود الماء.

(١) رواه أحمد (٤/١٣٢) والترمذني (١٣٨١) وابن ماجه (٣٣٤٩) كلهم عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه عن أبي هريرة، اللؤلؤ والمرجان (١٤٣٦).

وفي مسلم : أنه كان في وفد ثقيف رجل مجدوم ، فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم : «ارجع فقد بایعناك»<sup>(١)</sup>.

وعند ابن ماجه : «لا تديوا النظر إلى المجدومين»<sup>(٢)</sup>.

وقال في شأن الطاعون - وهو وباء عام - : «إذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فرارا منه»<sup>(٣)</sup>.

وهذا حصر للوباء في أضيق نطاق . أما حديث «لا عدوى» فهو صحيح رواه البخاري ، ولكن معناه : أن الأمراض لا تعي بطبعها وذاتها ، كما يعتقد أهل الجاهلية ، بل بتقدير الله تعالى ، وبناء على سنته الكونية .

احترام الطب القائم على العلم والتجربة،

قاوم الإسلام طب الكهنة والسحرة ، الذي قد يسمى «بالطب الروحاني» واحترم الطب القائم على الملاحظة والتجربة والأسباب والمسببات ، وأبطل ما أشاعتة الوثنية الجاهلية عند العرب وغيرهم حتى أهل الكتاب ، من اطراح الأسباب الظاهرة والستن الكونية ، والاعتماد على الأسباب الخفية ، والرقي المجهولة : من عزائم ورقى غير مفهومة ، وتمائم معلقة ، وشعوذة يروجها السحرة والدجالون ، ولم يُبق من الأدوية الروحانية إلا ما فيه ذكر الله تعالى ، والاستعاذه به ، واللجوء إليه في صورة رقى أو تعوذات أو نحو ذلك من الأدعية والأذكار . إذ لا يجحد عاقل منصف لما لهذه الأدوية الإيمانية من أثر ملموس ، في تقوية روح المريض ، وتنشيط كيانه الداخلي ، فيقوى أمله في الشفاء ورجاؤه في العافية ، ويقيمه برحمة الله ، فلا يقتنط من رحمة ربه إلا الضالون .

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم بقوله وعمله وتقريره أسوة حسنة في

(١) رواه مسلم في (السلام) برقم (٢٢٣١).

(٢) رواه ابن ماجه عن ابن عباس (٢٥٤٣) وفي الزوائد للبوصيري : رجال إسناده ثقات.

(٣) متفق عليه عن عبد الرحمن بن عوف ، وأسامة بن زيد .

الهداية إلى الطب الصحيح، القائم على العلم والتجربة، لا على التهويل والادعاء.

فهو صلٰى الله عليه وسلم تداوى لنفسه وأمر بالتداوي، لأن الذي خلق الداء خلق الدواء.

وأرسل طبيباً إلى أبي بن كعب، فقطع له عرقاً وكواه عليه<sup>(١)</sup>، أي أنه أجرى له عملية جراحية.

وعن سعد بن أبي وقاص قال: مرضت مريضاً أتاني رسول الله صلٰى الله عليه وسلم يعودني، فوضع يده بين ثديي، حتى وجدت بردتها على فؤادي، فقال: إنك رجل مفتود (أي مصاب في فؤادك، يعني صدرك) ائٌ الحارث ابن كلدة، أخا ثقيف، فإنه رجل يتطلب<sup>(٢)</sup>.

ولم يثبت أن الحارث بن كلدة أسلم، ولهذا استدل العلماء بهذا الحديث على جواز الاستعانة بأهل الكفر في الطب<sup>(٣)</sup> إذا كانوا مأمونين على المسلمين.

وأصيب أحد الصحابة بجرح فاحتقن الدم، فدعا النبي صلٰى الله عليه وسلم رجلي من بنـي أمـار، فنظرـا إلـيه فـسـأـلـهـما رسـولـالـلهـ: «أـيـكـمـاـأـطـبـ؟ـ» (أـيـ: أـحـذـقـ وـأـمـهـرـ؟ـ) فـقـالـ الرـجـلـ: أـوـفـيـ الطـبـ خـيـرـ يـاـ رـسـولـالـلهـ؟ـ فـقـالـ: «أـنـزـلـ اللـهـ الدـوـاءـ الـذـيـ أـنـزـلـ الدـاءـ»<sup>(٤)</sup>.

قال ابن القيم: في هذا الحديث: إنه ينبغي الاستعانة في كل علم وصناعة بأحد من فيها، فإنه إلى الإصابة أقرب<sup>(٥)</sup>.

(١) رواه مسلم في (السلام) عن جابر (٢٢٠٧).

(٢) رواه أبو داود في الطب عن سعد (٣٨٧٥).

(٣) التراتيب الإدارية للكتاني (١/٤٥٧).

(٤) رواه مالك في الموطأ، كتاب العين، باب تعالج المريض، ص ٩٤٤، ط، عيسى الحلبي.

(٥) زاد المعاد (٤/١٣٢) ط. الرسالة.

وجاء عنه صلى الله عليه وسلم: «من تطرب ولم يعلم عن الطب فهو ضامن»<sup>(١)</sup>.

وبهذا طارد الأدعية الذين يتزرون بهيئة أهل الطب وليسوا من أهله، وحملهم مسؤولية أخطائهم في التشخيص والعلاج، واحترم أهل الاختصاص والخبرة، فلكل علم رجاله، ولكل صناعة أهلهما، ولا ينبعك مثل خبير.

كما طارد الكهان والدجالين الذين يعالجون الناس بتعليق التمام، أو الرقى الجاهلية، التي لا تشتمل على ذكر الله تعالى وأسمائه الحسنى، وما كان من هذا القبيل الذي اعتبره من تفريغ الشرك ونتاج الجاهلية.

#### فتح باب الأمل أمام الأطباء والمرضى:

فتح الإسلام بباب الأمل على مصراعيه أمام الأطباء والمرضى معاً، في الشفاء من كل مرض، مهما طال واتصل، وقضى على اليأس المحطم، وعلى ما يسمى بالأمراض المستعصية. روى البخاري عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء»<sup>(٢)</sup>.

وروى مسلم وأحمد عن جابر: «لكل داء دواء، فإذا أصاب دواء الداء بريء بإذن الله تعالى»<sup>(٣)</sup>.

وروى أحمد عن أسامة بن شريك: «إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله»<sup>(٤)</sup>.

(١) رواه أبو داود (٤٥٨٦)، والنسائي (٤١/٨) وابن ماجه (٣٤٦٦) والحاكم: كلهم عن عبد الله بن عمر، وقال الحاكم: صحيح، ووافقه الذهبى (انظر: فيض القدير ج ١٠٦/٦).

(٢) رواه البخاري في الطب (١٠/١٣٤).

(٣) انظر: صحيح الجامع الصغير (٥١٦٤).

(٤) رواه أحمد في المسند (٤/٢٧٨) وهو فيه أيضاً عن ابن مسعود.

قال الشوكاني : فيه دليل على أنه لا بأس بالتداوي لمن كان به داء قد اعترف الأطباء بأنه لا دواء له ، وأفروا بالعجز عنه<sup>(١)</sup> .

وقال ابن القيم في «زاد المعاد» : في قوله صلى الله عليه وسلم : «لكل داء دواء» تقوية لنفس المريض والطبيب ، وحيث على طلب ذلك الدواء والتفتیش عليه ، فإن المريض إذا شعرت نفسه أن لدائه دواء يزيد تعلق قلبه بروح الرجاء ، وبرد من حرارة اليأس ، وانفتح له الرجاء ، ومتى قويت نفسه انبعثت حرارته الغرizzlyة ، وكان ذلك سببا لقوة الأرواح الحيوية والنفسانية والطبيعية ، ومتى قويت هذه الأرواح قويت القوى التي هي حاملة لها ، فقهرت المرض ودفعته ، وكذلك الطبيب إذا علم أن لهذا دواء أمكنه طلبه والتفتیش عليه ، وأمراض الأبدان على وزان أمراض القلوب ، وما جعل الله للقلب مرضًا إلا جعل له شفاء بضده ، فإن علمه صاحب الداء واستعمله ، وصادف داء قلبه ، أيرأه بإذن الله تعالى<sup>(٢)</sup> .

#### الاهتمام بالصحة النفسية :

عني الإسلام بالصحة النفسية عنابة فائقة : فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان - ولا ريب أن بين الناحية النفسية والناحية الجسمية تبادلا في التأثير ، فكلاهما يؤثر في الآخرة قوة وضعفا ، وصحة وسقما ، واعتدالا وانحرافا ، وقد أثبت ذلك علماء النفس وأطباء الجسم من قديم .

وقد رأينا في السيرة النبوية مدى قوة الروح وأثرها في قوة البدن حين كانوا يبنون المسجد ، والصحابية يحملون لبنة لبنة ، وعمار بن ياسر يحمل لبنتين لبنتين ، فرأاه النبي صلى الله عليه وسلم فجعل ينفض التراب عن

(١) انظر : نيل الأوطار ج ٩ ص ٩٠، ٩١ ط. دار الجليل ، بيروت.

(٢) زاد المعاد (٤/١٧) طبعة الرسالة.

رأسه، ويقول: «يا عمار، ألا تحمل ما يحمل أصحابك؟» قال: إني أريد الأجر من الله<sup>(١)</sup>، وقال: «إن عماراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه»<sup>(٢)</sup>.

وأشار إليها مرة أخرى حين نهاهم عن الوصال في الصيام، فقالوا له: تنهانا عن الوصال، وتواصل؟ قال: «وأيكم مثلني؟ إني أبيب يطعمني ربي وييسقيني»<sup>(٣)</sup>.

ومن مثله في قوة الروح حتى يتحمل ما يحتمله عليه السلام؟  
والمؤمن أقوى الناس روحًا، وأصحهم نفساً، فقد ملا الإيمان ما بين جوانحه أمنا وطمأنينة ورضا وأملاً وحبًا، وظهر نفسه من أدران الحقد والغل والحسد والبغضاء وأمراض القلوب الفتاكـة.

هذه هي المبادئ الخالدة التي أرسى الإسلام قواعدها، وحرص النبي صلى الله عليه وسلم على تثبيتها، وهي جديرة -إذا رواعت وطبقـت- أن تنشـئ أجيالاً من الأصحابـ الأقويـاء الذين لا يتتصـر الدين ولا ترقـي الدنيا إلا بهـم.

#### الحافظ على عقل الإنسان وتنميـته:

ويعمل الإسلام كذلك على حماية عقل الإنسان، باعتباره المميز له عن الحيوان الأعمـجـ، والمـخـاطـبـ من الله تعالى بالـتكـالـيفـ، وقد اعتبر الأصوليون (المحافظة على العـقـلـ) من الـضرـورـياتـ الـخـمـسـ التي جاءـتـ الشـرـيـعـةـ بـحـفـظـهاـ. ولـهـذـاـ حـرـمـ اللـهـ تـعـالـىـ الـخـمـرـ عـلـىـ الإـنـسـانـ ، لـأـنـهـ تـذـهـبـ بـعـقـلـهـ ، كـمـاـ تـضـرـ بـجـسـدـهـ وـعـقـلـهـ وـبـاخـلـاقـهـ وـبـعـالـهـ وـبـأـسـرـتـهـ وـبـجـمـعـتـهـ .

(١) رواه أحمد في مستند ابن عباس والبخاري في الصلاة، والجهاد، ومسلم في الفتـنـ، وهو بهذاـ الـلفـظـ في صحيح ابن حبان (١٥ : ٧٠٧٩).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١١٣٣ / ١) بهذاـ الـلفـظـ، وابن حبان بلـفـظـ: «إلى مشـاشـةـ» الحديث ٧٠٧٦ والمشـاشـ: رـؤـوسـ العـظـامـ الـلـيـنةـ.

(٣) رواه الشـيخـانـ فيـ الصـيـامـ عـنـ اـبـنـ عـمـرـ ، وـأـبـيـ هـرـيـةـ ، وـأـنـسـ ، وـعـائـشـةـ ، وـانـظـرـ: الـلـؤـلـوـ وـالـمـرـجـانـ (الأـحـادـيـثـ: ٦٧٤ـ٦٧٠).

ولم يكتف الإسلام بجذب النهي - الذي يركز عليه الأصوليون في بيان المحافظة على العقل - بل شرع من الأحكام، وأرسى من التوجيهات، ما ينهض بالعقل، ويرى به، من ذلك فرضه لطلب العلم على كل مسلم ومسلمة، ومقاومته للتقليد والجمود على ما كان عليه الأجداد والأباء، أو ما كان عليه السادة والكباراء. كما رفض الظن في موضع طلب اليقين، وأنكر اتباع الهوى والعواطف في طلب الحقيقة، ودعا إلى النظر والتفكير في ملوك السموات والأرض وما خلق الله من شيء، كما اعتمد وجوب البرهان في العقليات، والشاهد في الحسيات، والتوثيق في النقليات... وهذا كله مما يدلنا على احتفاء القرآن بضرورة (تكوين العقلية العلمية)<sup>(١)</sup> التي ترفض الخرافات، ولا تقبل دعوى إلا بدليل.

وبهذا ننشئ الإنسان الذي يتعبد لله بالنظر والتفكير، كما يتعبد له بالصلة والصيام، وهو ما جعل كاتباً كبيراً مثل عباس العقاد يؤلف كتاباً عنوانه: (التفكير فريضة إسلامية) وصدق، فإن الله كما أمرنا بالعبادات، أمرنا بالتفكير ﴿فَلَمَّا أَعْظَمْنَاكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مُشْتَنِي وَفِرَادَى ثُمَّ تَفَكَّرُوا﴾ (سبأ: ٤٦).

والعلم الذي فرضه الإسلام على المسلم منه ما هو فرض عين، ومنه ما هو فرض كفاية.

ففرض العين هو: ما لا بد منه للمسلم في تحرير عقيدته، وتصحيح عبادته، وضبط سلوكه وفق أمر الله ونهيءه، وتحري الحلال واجتناب الحرام، وإعطاء كل ذي حق حقه.

وأرى أن محو الأمية في عصرنا فريضة على أبناء الأمة، حتى تستطيع أن تتبوأ مكانتها بين الأمم، إذ لا يمكنها ذلك إذا تفشت الأمية بين أفرادها، فلا يمكنها أن تنافس الأمم التي تعلم أبناؤها وتتقنوا.

(١) انظر: فصل (تكوين العقلية العلمية) في كتابنا (العقل والعلم في القرآن) نشر مكتبة وهبة.

وفرض الكفاية: هو ما يجب على الأمة بالتضامن فيما بينها، وذلك بأن يكون لديها من العلماء والخبراء في كل تخصص في علوم الدين أو علوم الدنيا - مما تحتاج إليه الأمة - ما يسد الشغرة، ويلبي الحاجة، ويحقق للأمة الاكتفاء الذاتي، والاستغناء عن غيرها. فلا يجوز للأمة الوسط التي جعلها الله شهيدة على البشرية: أن تكون عالة على غيرها في العلوم المدنية والعسكرية، فإذا قام بهذا الفرض عدد كافٍ من أبنائها برئ الأمة من الإثم والخرج، وإنما أثمت الأمة كلها، وبخاصة أولو الأمر فيها.

#### العناية بالطفولة:

وإذا كان الإسلام يعني بالإنسان، وبصحته، وبكتابه كله: النفسي والعقلي البدني، فإنه يوجه عناية أكبر إلى الإنسان الطفل، لأمرتين مهمتين:

١- أنه مخلوق ضعيف في حاجة إلى مزيد من الرعاية، والإسلام يهتم عادة برعاية الضعفاء.

٢- أن طفل اليوم هو رجل المستقبل، فهو يمثل غد الأمة، فإذا أحسنا رعايته وتربيته وتوجيهه، تفألهنا خيراً بمستقبل المجتمع، وإذا أضعناه فقد أضمننا المستقبل.

ولا يتسع المقام هنا للحديث عن موقف الإسلام من الطفولة، التي يرعاها الإسلام منذ الولادة، بل منذ يبدأ الإنسان التفكير في الزواج.

وفصلت الشريعة أحكام الرضاع والحضانة وحسن التنشئة والملاءبة وتعليم الصلاة والتآديب المناسب، مالا يخفى على مسلم حريص على دينه، وما يمكن تعلمه بسهولة من أهله.

وأعطى الإسلام عناية أبلغ وأوسع للأطفال الذين لا عائل لهم، مثل (اليتامي) الذي إذا أهملوا أو قسا المجتمع عليهم، قد يصبحون في الغد

جرثومة فساد فيه، وإذا رعيت حقوقهم، ولم تظهر شخصيتهم، أو شكوا أن يكونوا أعضاء صالحين في جسم المجتمع.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمُ فَلَا تُقْهِرْ﴾ (الضحى: ٩) ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَلِّبُ بِالدِّينِ﴾ ﴿فَلَدِيلُكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ (الماعون: ١، ٢).

وجعل لهؤلاء اليتامى حظا في أموال الغنائم والفيء، مع المساكين وابن السبيل.

كمال متن الشريعة الإسلامية للأطفال الذين لم يعرف لهم آباء ولا أمهات، فهو لاء لا ذنب لهم، فمن الواجب القيام برعايتهم وحسن تربيتهم. ولا غرو أن في كل كتب الفقه الإسلامي باباً لـ(اللقيط) يفصل أحکامه وماليه من حقوق على المجتمع.

## ٦- الإحسان بالبيئة

الإسلام يربى المسلم على التعامل مع كل ما حوله بإحسان، كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن شداد بن أوس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء».

ومعنى: أنه كتبه أي فرضه فرضية مؤثرة، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ (البقرة: ١٨٣) ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ (البقرة: ١٧٨) وقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرُّحْمَة﴾ (الأنعام: ٥٤) فإذا أدينا ما كتبه الله علينا، أدى الله ما كتبه على نفسه، فغمزنا برحمته وبركته.

والإحسان كلمة قرآنية نبوية تتضمن معنيين:

الأول: معنى الأحكام والإتقان، كما في الحديث الذي ذكرناه، وكما في حديث جبريل الشهير بالإحسان: أن تعبد الله كما تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وهو يفسر معنى الإحسان في العبادة.

والثاني: معنى الإشفاق والحنان والإكرام، كقوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدِينِ إِحْسَانًا وَبِدِيِ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾ (النساء: ٣٦).

والمعنيان مطلوبان هنا في التعامل مع البيئة، فيجب أن تعاملها بإحكام وإتقان، لا بإهمال وغفلة وإضاعة.

كما يجب أن تعاملها برفق وإشفاق وحنان.

وفي الحديث الصحيح : «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله»<sup>(١)</sup>. «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»<sup>(٢)</sup>. «إن الله رفيق يحب الرفق ، وإن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف» .<sup>(٣)</sup> «من يحرم الرفق يحرم الخير»<sup>(٤)</sup>.

ويتمثل هذا الرفق مع كل عناصر البيئة ، جامدة كانت أم حية ، عاقلة أم غير عاقلة . فيشمل هذا الرفق الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، والجماد .

#### الإحسان بالإنسان :

فاما الإحسان بالإنسان فهو أمر مفروغ منه ، ولا ريب فيه ، رحمة له ، وتلطفا به ، سواء كان مسلما أم غير مسلم .

يقول الله تعالى لرسوله : «فِيمَا رَحْمَةٌ مِّنَ اللَّهِ لِئَنَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظُلُّاً غَلِيلُهُ الْقُلُوبُ لَانْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ» (آل عمران : ١٥٩).

ويقول : «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنْتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ» (التوبه : ١٢٨).

وقال تعالى في شأن غير المسلمين «لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبْرُوْهُمْ وَتَقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» (المتحنة : ٨) والقسط : هو العدل ، والبر فوق العدل وهو الإحسان . القسط أن تعطيهم حقهم ، والبر أن تزيد على ذلك .

**ويتأكد الإحسان بالضعفاء من الناس : من اليتامي والمساكين وأبناء**

(١) رواه البخاري (٦٩٢٧) ومسلم (٢٥٩٣) عن عائشة .

(٢) رواه مسلم عن عائشة أيضا (٢٥٩٤) .

(٣) هوروایة مسلم في الحديث السابق (٢٥٩٣) .

(٤) رواه مسلم عن جرير بن عبد الله (٢٥٩٢) ورواه أبو داود وقال : «يحرم الخير كله» .

السبيل، والأرامل، وكل ضعيف في المجتمع، سواء كان ضعفه من فقد الأب كاليتيم، أو فقد المال كالمتسكين، أو فقد الوطن كابن السبيل، أو فقد الحرية كالرقيق، أو فقد الزوج كالأرملة.

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله» وأحسبه قال: «كالقائم لا يفتر، والصائم لا يفتر»<sup>(١)</sup>.

قال تعالى في آية الحقوق العشرة: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدِينِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ (النساء: ٣٦).

وأمر الإسلام بالرحمة بخلق الله جميما، كما قال عليه الصلاة والسلام: «الراحمون يرحمهم الرحمن. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»<sup>(٢)</sup> «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله»<sup>(٣)</sup> «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»<sup>(٤)</sup>.

وقال: «لن تؤمنوا حتى ترحموا. قالوا: كلنا رحيم يا رسول الله؟ قال: أما أنه ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة العامة»<sup>(٥)</sup>.

#### الإحسان بالحيوان:

ومن أروع ما جاء به الإسلام هنا، هو الإحسان والرفق بالحيوان، في عصر ما كان يعتبر أن لهذه الحيوانات قيمة أو حقا، وأن في الإحسان إليها أجرا.

لقد امتن الله تعالى على الإنسان بتسيير الحيوانات له، وببعضها أقوى منه

(١) متفق عليه، كما في المؤلو والمرجان (١٨٧٨).

(٢) رواه أبو داود (٤٩٤١) والترمذى (١٩٢٥) وقال: حديث صحيح، كلاما عن ابن عمرو.

(٣) رواه البخارى (٧٣٧٦) ومسلم (٢٣١٩) عن جرير بن عبد الله.

(٤) رواه أبو داود (٤٩٤٢) والترمذى وحسنة (١٩٢٤) عن أبي هريرة.

(٥) رواه الطبرانى عن أبي موسى، وذكره المنذري في الترغيب وقال: رواه رواة الصحيح (المتنى: ١٣٢٢) ونحوه قال الهيثمى (٧٨/٨).

وأكبر حجماً، فالواجب عليه أن يرفق بها، ويشكر الله تعالى على إنعامه بها، ولا يقسوا عليها ويعذبها بغير حق. يقول تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكِبُوا مِنْهَا مِنْهَا تَأْكُلُونَ ٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ وَلَتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صَدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَكِ تُحْمَلُونَ ٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَإِيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنَكِّرُونَ ٨١﴾ (غافر: ٧٩-٨١).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوَا أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلْتُ أَنِيدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَا لِكُونَ ٧٦﴾ وَذَلِكَنَا لَهُمْ فِيمَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ٧٧﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ٧٨﴾ (يس: ٧٣-٧١).

وجاءت الأحاديث النبوية المستفيضة تحرّض على الرحمة بالحيوان، وترهيب من القسوة عليه، أو إصاعته وإهماله، منذرة بوعيد شديد لمن اقترف شيئاً من هذه الأعمال. كما تنبئ بجزيل المثوبة عند الله من أحسن إلى هذه المخلوقات العجماء.

اقرأ معي هذه الأحاديث لترى كيف حفل هذا الدين بهذا الأمر، وهي مما اتقيناها من كتاب (الترغيب والترهيب) للمحافظ المنذري.

عن معاوية بن قرّة عن أبيه رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني لأرحم الشاة أن أذبحها، فقال: «إن رحمتها رحمك الله» رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد<sup>(١)</sup>.

وقد تقدم حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن رجلاً أضيق شاة، وهو يحد شفرته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أتريد أن تميتها موتين؟ هلا أحذدت شفرتك قبل أن تضيقها؟!» رواه الطبراني في «الكبير»، و«الأوسط» والحاكم واللفظ له، وقال: صحيح على شرط البخاري<sup>(٢)</sup>.

(١) ورواه الفقه الذهبي (٤/٢٣١).

(٢) قال المنذري: رجال الطبراني رجال الصحيح، ونحوه قال الهيثمي (٤/٣٣).

وعن ابن عمرو رضي الله عنهمَا، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «ما من إنسان يقتل عصافوراً فما فوقها بغير حقها إلا يسأله الله عنها يوم القيمة» قيل : يا رسول الله وما حقها؟ قال : «حقها أن تذبحها فتأكلها ولا تقطع رأسها فترمي به» رواه النسائي ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد<sup>(١)</sup>.

وعن ابن سيرين أن عمر رضي الله عنه رأى رجلاً يسحب شاة برجلها ليذبحها ، فقال له : ويلك قدتها إلى الموت قوداً جميلاً ، رواه عبد الرزاق موقوفاً<sup>(٢)</sup>.

وعن ابن عمر رضي الله عنهمَا ، أنه مر بفتیان من قريش قد نصبوا طيراً - أو دجاجة - يترامونها ، وقد جعلوا الصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم ، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا ، فقال ابن عمر : من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرْضاً . رواه البخاري ، ومسلم<sup>(٣)</sup>.

«الغرض» - بفتح العين المعجمة والراء - : هو ما ينصبه الرماة ، يقصدون إصابته ، من قرطاس وغيره .

وعن أبي مسعود رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ، فانطلق لحاجته ، فرأينا حمرَّةً معها فَرَّخَانٌ ، فأخذنا فرخيها ، فجاءت الحمرَّة فجعلت تعرش ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال : «من فجمع هذه بولديها؟ ردوا ولديها إليها». ورأى قرية مثل قد حرقتها فقال : «من حرق هذه؟» قلنا : نحن ، قال : «إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار». رواه أبو داود<sup>(٤)</sup>.

(١) ووافقه الذهبي (٤/٢٣٣) ورواه أحمد في المسند (٦٥٥١) وصححه الشيخ شاكر.

(٢) المصنف (٨٦٠٥).

(٣) البخاري (٥٥١٥) ، ومسلم (١٩٥٨) ، «اللؤلؤ والمرجان» (١٢٧٩).

(٤) رواه في كتاب الجهاد (٢٦٧٥) وهو من حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه . وقد رجح البخاري وأبن أبي حاتم سماعه منه . وصحح الترمذى حديثاً عنه . والرواية فيه «تفرض» بدل «تعرض» والتفسير مأخوذ من فرش الجناح وبسطه ، والمعنى أن يرتفع فوقهما ويظلل عليهما .

«قرية نمل»: هي موضع النمل مع النمل.

قال العلامة ابن رجب: وأكثر العلماء على كراهة التحريق بالنار حتى للهوا.

وقال إبراهيم النخعي: تحريق العقرب بالنار مثلاً. ونها أم الدرداء عن تحريق البرغوث بالنار. وقال أحمد: لا يشوى السمك بالنار، وهو حي.

وفي الصحيحين عن أنس: أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن تصبر البهائم<sup>(١)</sup>. (أي تخس وتصبر بالنبل ونحوه حتى تموت).

وخرج الإمام أحمد وابن ماجه من حديث ابن عمر، قال: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحد الشفار، وأن توارى البهائم، وقال: «إذا ذبح أحدكم فليجهز»<sup>(٢)</sup>. يعني: فليسرع الذبح<sup>(٣)</sup>.

ومن التوجيهات النبوية ألا يذبح ولد الناقة وهو صغير عند ولادته، فلا يتتفع بلحمه، ولا بلبن الناقة، لأنها يجف لبنها حزناً على ولدها، ثم فيه توليه الناقة على ولدها بفقدتها إياه. والأولى أن يترك حتى يكبر، ويكون ابن مخاضن (يكمل سنة ويدخل في الثانية) أو ابن لبون (يكمل ستين ويدخل في الثالثة) وقد جاء ذلك في حديث رواه أبو داود<sup>(٤)</sup>.

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: أرددني رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه ذات يوم، فأسرَّ إالي حديثاً، لا أحدث به أحداً من الناس، وكان أحب ما استتر به النبي صلى الله عليه وسلم حاجته هدفاً، أو حائش نخل<sup>(٥)</sup>، فدخل حائطاً لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل، فلما رأى النبي

(١) رواه البخاري (٥٥١٣) ومسلم (١٩٥٦).

(٢) رواه أحمد (١٠٨/٢) وابن ماجه (٣١٧٢) وسنده أحمد قوي.

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٩٠، ٣٩١) بتحقيق شعيب الأرناؤوط. طبعة الرسالة. بيروت.

(٤) برقم (٦٨٤٢) المصدر السابق ص ٣٩٣، ٣٩٤.

(٥) الهدف: ما انتصب دار نفع من بناء وغيره. والحائش: النخل المختلف المجتمع.

صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ حَنَّ، وَذَرْفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ، فَمَسَحَ ذَفْرَاهُ<sup>(١)</sup> فَسَكَتَ فَقَالَ: «مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلَ؟ مَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟» فَجَاءَ فَتَى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: لَيْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «أَفَلَا تَتَقَبَّلُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا؟ فَإِنَّهُ شَكَ إِلَيْيَ أَنْكَ تَجْعِيْهُ، وَتَدْبِيْهُ»<sup>(٢)</sup>. رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَأَبْوَ دَاؤِدَ<sup>(٣)</sup>. وَمَعْنَى (تَدْبِيْهُ): أَيْ تَتَعَبُهُ.

وَعَنْ أَبْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ: «دَخَلَتْ اِمْرَأَةُ النَّارِ فِي هَرَةٍ رَبِطْتُهَا، فَلَمْ تَطْعَمْهَا، وَلَمْ تَدْعُهَا تَأْكِلْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ».

وَفِي رَوَايَةِ: «عَذَبَتْ اِمْرَأَةٍ فِي هَرَةٍ سَجَنَتْهَا<sup>(٤)</sup> حَتَّى مَاتَتْ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا، إِذْ هِيَ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكِلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ» رَوَاهُ الْبَخَارِيُّ<sup>(٥)</sup>، وَغَيْرُهُ.

وَرَوَاهُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ، فَزَادَ فِي آخِرِهِ: «فَوَجَبَتْ لَهَا النَّارُ بِذَلِكَ».

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ الْخَنْظَلِيَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَرَ الرَّسُولُ صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ بِبَعْدِ قَدْلَصِقِ ظَهْرِهِ بِبَطْنِهِ، فَقَالَ: «اَتَقُوا اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمَعْجَمَةِ، فَارْكِبُوهَا صَالِحَةً، وَكُلُوهَا صَالِحَةً» رَوَاهُ أَبْوَ دَاؤِدَ، وَابْنُ خَزِيْمَةَ فِي «صَحِيْحِهِ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ: «قَدْ لَحِقَ ظَهْرَهُ»<sup>(٦)</sup>.

وَعَنْ أَسْمَاءِ بَنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ

(١) ذَفْرَاهُ: مُؤْخَرَةُ رَأْسِهِ، وَهُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يَعْرُقُ مِنْ قَفَاهُ.

(٢) تَدْبِيْهُ: تَكَدِّهُ وَتَتَعَبُهُ بِالْعَمَلِ الْمُتَوَاصِلِ دُونِ إِعْطَائِهِ حَقَّهُ مِنِ الرَّاحَةِ.

(٣) رَوَاهُ أَحْمَدُ مِنْ مُسْنَدِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ (١٧٤٥) وَقَالَ شَاكِرٌ: إِسْنَادُهُ صَحِيْحٌ، وَهُوَ عَنْدَ أَبِي دَاؤِدَ (٢٥٤٩).

(٤) فَكِيفَ بْنَ يَسِّعَنَ الْأَلْوَافِ الْمُؤْمِنِينَ ١٩

(٥) الْبَخَارِيُّ (٣٤٨٢).

(٦) وَرَقْمَهُ عَنْدَ أَبِي دَاؤِدَ (٢٤٥٨)، وَرَوَاهُ أَيْضًا أَحْمَدُ (٤/١٨١، ١٨٠)، وَابْنُ حَبَّانَ (٥٤٥) قَالَ الشَّيْخُ شَعِيبٌ: إِسْنَادُهُ صَحِيْحٌ. وَصَحَّحَهُ التَّوْرُوْيُّ فِي «الرِّيَاضِ».

صلى صلاة الكسوف، فقال: «دنت مني النار حتى قلت: أَيْ رَبٌّ وَأَنَا مَعْهُمْ، فَإِذَا امْرَأَةً حَسِبْتَ أَنَّهُ قَالَ: تَخْدِشُهَا هَرَةً». قال: مَا شَاءَ هَذِهِ؟ قَالُوا: حَبَستَهَا حَتَّى ماتَتْ جَوْعًا» رواه البخاري<sup>(١)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي، فَأَشْتَدَ عَلَيْهِ الْعَطْشُ فَنَزَلَ بَثْرًا فَشَرَبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهُثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ شَدَّةِ الْعَطْشِ» قال: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِثْلَ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلَأَ خَفَهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفَيْهِ، ثُمَّ رَقَى، فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهَ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ» قالوا: يا رسول الله! وإن لنا في البهائم أجرا؟ قال: «في كل كبد رطبة أجرا»<sup>(٢)</sup> كان هذا التوجّه جديدا على الصحابة، فلم يكونوا يعلمون أو يظنون أن يثاب المرء في الإحسان إلى البهائم، فأفهمهم الرسول الكريم أنه في الإحسان إلى كل حي أجرا ومثوبة.

وروى أبو هريرة حديثا آخر: «بَيْنَمَا كَلْبٌ يَطِيفُ بِرَبِّيَّةٍ (بَثْرٍ فِيهَا مَاءً) كَادَ يَقْتَلُهُ الْعَطْشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ مَوْقِعَهَا (خَفَهَا) فَسَقَتْهُ، فَغَفَرَ لَهَا بَهَّ»<sup>(٣)</sup>.

فإذا كانت امرأة دخلت النار في هرة من أجل قسوتها، فهذه امرأة عاصية دخلت الجنة في كلب، من أجل رحمتها به، والراحمون يرحمون الرحمن.

روت عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصغي للهرة الإناء، فتشرب، ثم يتوضأ بفضلها<sup>(٤)</sup>.

وهذه المعاملة النبوية الكريمة للهرة كان لها أثرها الفعال في نفوس أزواجها وأصحابه رضي الله عنهم.

(١) البخاري (٢٣٦٤).

(٢) رواه البخاري (٢٤٦٦) ومسلم (٢٢٤٤) وانظر: اللؤلؤ والمرجان (١٤٤٧).

(٣) متفق عليه اللؤلؤ والمرجان (١٤٤٨).

(٤) رواه الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية وابن ماجه والطحاوي والدارقطني والبيهقي في السنن، كما في صحيح الجامع الصغير (٤٩٥٨).

روى أبو داود بسنده عن داود بن صالح بن دينار التمار عن أمه : أن مولاتها أرسلتها بهريسة إلى عائشة رضي الله عنها ، فوجدتها تصلي ، فأشارت إلىَّ أن ضعيها .. فجاءت هرة فأكلت منها . فلما انصرفت (أي عائشة من الصلاة) أكلت من حيث أكلت الهرة ، فقالت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إنها ليست بنجس ؛ إنما هي من الطوافين عليكم وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ بفضلها»<sup>(١)</sup> .

وروى عن كبشة بنت كعب بن مالك . وكانت تحت ابن أبي قتادة . أن أبا قتادة دخل ، فسكتت له وضوءا (الماء الذي يتظاهر به) فجاءت هرة فشربت منه ، فأصغى لها الإناء حتى شربت ، قالت كبشة : فرآني أنظر إليه ، فقال : أتعجبين يا ابنة أخي ؟ فقلت : نعم . فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إنها ليست بنجس ؛ إنها من الطوافين عليكم والطوافات»<sup>(٢)</sup> .

قال الإمام الخطابي في (معالم السنن) : قوله «إنها من الطوافين عليكم والطوافات» يتأول على وجهين :

أحدهما : أن يكون شبهها بخدم البيت ، وبين يطوف على أهله .. كقوله تعالى « طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ » (النور : ٥٨) وقال ابن عمر : إنما هي ربيطة من رباط البيت .

والوجه الآخر : أن يكون شبهها بين يطوف للحاجة والمسألة . يريده أن الأجر في مواتتها كالأجر في مواساة من يطوف للحاجة ويعرض للمسألة<sup>(٣)</sup> . انتهى .

(١) رواه أبو داود في الطهارة (باب سور الهرة) برقم (٧٦).

(٢) رواه أبو داود برقم (٧٥) والترمذى (٩٢) وحسن صحيح ، والنسائي (٦٣ / ١) وابن ماجه

(٣٦٧) ومالك في الموطأ (الطهارة : ١٣) وأحمد (٣٠٣ : ٥) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي

(١٦٠، ١٥٩ / ١) قال : وهو مما صححه مالك واحتج به في الموطأ . وصححه الترمذى في المجموع (١٧١ / ١) .

(٣) انظر : معالم السنن مع مختصر المندرى وتهذيب ابن القيم (٧٨ / ١) حديث (٦٨) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم مر على حمار قد وُسِمَ في وجهه فقال : «لعن الله الذي وسمه» رواه مسلم <sup>(١)</sup>.

وفي رواية له : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الضرب في الوجه ، وعن الوسم في الوجه .

ورواه الطبراني بإسناد جيد مختصر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من يسم في الوجه <sup>(٢)</sup>.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : مر حمار برسول الله صلى الله عليه وسلم قد كوي في وجهه يفور من خراه من دم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لعن الله من فعل هذا» ثم نهى عن الكي في الوجه والضرب في الوجه . رواه ابن حبان في «صحيحه» <sup>(٣)</sup> ، ورواه الترمذى مختصراً وصححه .

والأحاديث في النهي عن الكي في الوجه كثيرة .

وهنا نقرأ جملة من الأحاديث لها معزها وأثرها في هذا الجانب .

فعن أبي هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :

«بَيْنَمَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقْرَةً، إِذْ رَكِبَهَا فَضَرَبَهَا، فَقَالَتْ: إِنَّا لَمْ نَخْلُقْ لَهُذَا، إِنَّمَا خَلَقْنَا لِلْحَرْثِ» <sup>(٤)</sup>.

ومعنى هذا : أن كل حيوان يجب أن يستخدم فيما خلق له ، فما خلق للحرث أو للدر والنسل ، لا ينبغي أن يستخدم للركوب ، إلا لضرورة أو حاجة ، كقلة دواب الركوب ونحوها .

(١) مسلم (٢١١٧).

(٢) في نسخة : «من يسم الوجه» ، والوسم : الكي . لقد حرص الإسلام على صيانة وجه الحمار ، فكيف بالإنسان !

(٣) ورقمها في «موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان» (٢٠٠٣) قال الشيخ شعيب : إسناده صحيح ، الإحسان (٥٦٢٦) .

(٤) متفق عليه عن أبي هريرة . اللؤلؤ والمرجان (١٥٤٤) .

وعنه أيضاً أنه قال :

«إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر، فإن الله إنما سخرها لكم، لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض، فعليها فاقضوا حاجتكم»<sup>(١)</sup>.

واستثنى العلماء من ذلك إذا احتاج إلى الوقوف عليها لحاجة طارئة، لا تتم بغير الوقوف على ظهرها، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حيث خطب على راحته واقفاً عليها. فدل ذلك - كما قال الخطابي - على أن الوقوف على ظهورها إذا كانت لأرب لا يدرك مع النزول إلى الأرض: مباح جائز. وأن النبي إنما يصرف إلى الوقوف عليها لمعنى يوجبه، لكن أن يستوطنه الإنسان ويتحذّد - مقدعاً، فيُتَعَبُ الدابة ويضر بها من غير طائل<sup>(٢)</sup>.

وأعتقد أن عصرنا لم يعد يحتج الإنسان إلى اتخاذ ظهور الدواب منابر، وقد منحته التكنولوجيا الحديثة من الأدوات والأسباب ما يغنيه عن ذلك، إلا في البلاد المختلفة التي لم تصل إليها الحضارة بعد.

وهذه التعاليم لم تكن مجرد كلام نظري أو حبر على ورق، بل تحولت إلى واقع عملي تجسّد في حياة المسلمين، وفي حضارتهم المتوازنة.

وبهذا كان الخلفاء والأمراء يزجرون كل من قسا على الحيوان. جاء في العتبية: قال مالك: إن عمر بن الخطاب مر بحمار عليه لَبَنَ، فوضع عنه طوبتين، فأتت سيدته (مالكته) لعمراً فقالت: يا عمر، مالكَ ولحماري؟ ألك عليه سلطان؟ قال: فما يقعدني في هذا الموضع؟

وعقب ابن رشد على قول عمر فقال: المعنى في هذا بين ، لأن المصطفى عليه السلام قال: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته».

(١) رواه أبو داود في الجماد عن أبي هريرة (٢٥٦٧).

(٢) معالم السنن.

وقد قال عمر في مثل هذا: لو مات جمل بشاطئ الفرات ضياعاً لخشيت أن يسألني الله عنه<sup>(١)</sup> أ.ه.

وفي طبقات ابن سعد عن المسيب بن دارم قال: رأيت عمر بن الخطاب ضرب حَمَالاً وقال: «لِمَ تُحَمِّلُ بعيرك ما لا يطيق؟».

وعلى سنة عمر الأول سار عمر الثاني ابن عبد العزيز.

ففي فضائل عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم: إن عمر كتب إلى صاحب السكك: أن لا يحملوا أحداً بلجام ثقيل ولا ينخس بقرعة في أسفلها حديدة.

وكتب أيضاً إلى حيان مصر: بلغني أن بصرى بلا نقالات يُحمل على البعير منها ألف رطل، فإذا أتاك كتابي هذا فلا أعرف أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل<sup>(٢)</sup>.

وجاء الفقهاء ففصلوا ما يجب على مالك الدابة من النفقه والرعاية في كتاب النفقات من كتب الفقه، كما فصلوا ما يجب على الإنسان نحو الكلاب والطيور ونحوها، تفصيلاً لم يخطر ببال أحد من البشر في تلك الأعصار، وهو تفصيل لم تدفع إليه المنفعة المادية أو المصلحة الاجتماعية فحسب، كما هو الشأن في القوانين الوضعية، بل الدافع إليه - فوق ذلك كله - دافع أخلاقي محض، هو رفع الظلم والأذى والضرر عن كائن حي ذي كبد رطبة، يحسن ويشعر ويتألم وإن لم يكن له لسان يتكلم به ويشكرو.

ومن هذا التفصيل نراهم يحددون متى يجوز ضرب الدابة؟ وأين تضرب؟ وبيم تضرب؟ وكيف تضرب؟ فنراهم يقولون: تضرب الدابة على النفار ولا تضرب على العثار، لأن العثار لا يدلها فيه بخلاف النفار والحرونة.

---

(١) التراطيب الإدارية ج ١ ص ٢٦٨.

(٢) التراطيب الإدارية ج ٢ ص ١٥٢ وسيرة ابن عبد الحكم.

ويقولون: لا تُضرب في الوجه، ولا تُضرب بحديدة أو بقرعه في أسفلها حديدة، كما نقلنا ذلك عن عمر بن عبد العزيز.

وقد تصدى لذلك العلامة المغربي المالكي، الشيخ أبو علي بن رحال فقال: «وما ذكر من حبس الطير إنما هو إذا لم يكن فيه تعذيب أو تجويع أو تعطيش، ولو بمظنة الغفلة عنه، أو بحبسه مع طير آخر ينقب رأسه، كما تفعله الديوك في الأفلاس ينقب بعضها رأس بعض، حتى إن الديك يقتل آخر، وهذا كله حرام بإجماع، لأن تعذيب الحيوان لا يختلف في تحريره، والفائدة يتاتي وجودها بلا تعذيب، وهذا إن كان يحبسه وحده أو مع من لا ينقبه، أو يعمل بينهما حائلًا بحيث لا يصل بعضه إلى بعض، ويتفقده بالأكل والشرب، كما يتفقد أولاده، ويوضع للطير ما يركب عليه كخشب، وأما أن يضعه على الأرض بلا شيء، فذلك يضر به غاية الضرر في البرد، وهذه الأمور لا تحتاج إلى جلب نص فيها لوضوحها، وكم رأينا من يذب الدجاج في الأفلاس على وجوه مختلفة من أنواع العذاب، وكذا حبس الكبش بلا أكل ولا شرب، أو بغل يربطه في موضع، ويغلق عليه حتى يكاد يموت جوعاً، ومن لا رحمة فيه، لا يعتبر في الدفع عن الدواب إلا ما يقتلها أو يضعف بدنها، وأما عذابها في نفسها إذا سلمت مما ذكر فلا يبالى به، وذلك كله حرام وعقوبته في الدنيا والآخرة إن لم يعف الله».

ثم قال: «وكثير من الناس يسمع مثلاً أن الطير يجوز حبسه وأن العصفور يجوز أن يلعب به»، ويستدل بحديث: «يا أبا عمير ما فعل النغير؟»؟ ويعتمد على ذلك بلا شرط عدم تعذيبه وهذه مسألة عظيمة الأجر والعقاب وكذا تحميم الدواب أكثر مما تقدر عليه بحسب العادة وغير ذلك، وذلك كله من نزع الرحمة من القلوب ولكن: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»<sup>(١)</sup>.

وليست مراعاة هذه الأحكام الخاصة برعاية الحيوان والإحسان إليه،

(١) التراييib الإداريّe ج ٢ ص ١٥١، ١٥٢.

موكولة إلى ضمائر الأفراد فقط ، فمن فرط فيها أو تهاون بها لم يكن للقضاء ولا للدولة عليه من سلطان .

كلا ، فقد رأينا العمررين - ابن الخطاب وابن عبد العزيز - يلزمان الرعية بالرفق إلزاما ، وإنما لم يفعل ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن الناس في عهده كانت تكفيهم الموعظة للتغيير سلوكهم ، دون حاجة إلى إلزام قضائي أو تدخل حكومي .

أما بعد ذلك فمن حق السلطان والقاضي والمحتسب أن يتدخلوا لإزالة الظلم عن هذه المخلوقات المظلومة ، ومن واجب أي مسلم شاهد هذا الظلم أو القسوة أن ينهى عنه ، ومن حقه أن يرفعه إلى أولي الأمر ليعملوا على رفعه .

قال العالمة الماوردي في «الأحكام السلطانية» : «إذا كان من أرباب الماشي من يستعملها فيما لا تطيق الدوام عليه أنكره المحتسب عليه ومنعه منه» ١ . هـ .

ولما قال ابن رشد : «يُقضى للعبد على سيده إن قصر عما يجب له عليه بالمعروف في مطعمه وملبسه ، خلاف ما يملكه من الدواب ، فإنه يؤمر بتقوى الله في إجاعتها ، ولا يقضى عليه بعلفها» رده مستعظاما له ، الشيخ أبو علي بن رحال في باب النعمات من شرح المختصر - يعني متن خليل - بنص ابن عبد البر في «الكافي» ، والرفق بالدواب في ركوبها والحمل عليها واجب سنة فإنها عجم لا تشکو و «في كل ذي كبد رطبة أجر» ، هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا كان في الإحسان إليها أجر فكذلك في الإساءة إليها وزر ، ولا يحمل على الدواب أكثر من طاقتها ولا تضرب على وجهها ولا تتخذ ظهورها كراسي ولا تقلد الأجراس ولا تستعمل ليلا إلا أن يروح عنها نهارا ، ولا يحل حبس بهيمة مربوطة عن السرح والانتشار بغير علف ولا طعام ، قال ابن رحال : فإن قول ابن رشد : الدابة لا يقضى .. إلخ ، يلزم ابن رشد ، أن الدابة إذا حملها مالكها ما لا تطيقه من الحمل أو الشغل يعذبها عذابا شديدا بلا

فائدة، أنه لا يقضى على المالك بترك ذلك، وأنه يترك هو وإياها، ويؤمر بتقوى الله فيها فقط، وذلك لا يحل أصلاً مع مخالفة ذلك لكلام الناس وحديث: «في كل ذي كبد رطبة أجر»، رأيت أبو عمر قال: يلزم عليه أن الإساءة فيها وزر، والوزر منكر، والمنكر يجب تغييره. كما أشار إليه ابن عرفة - ولو كان الناس يزجرون بقول الإمام لهم: اتقوا الله في كل ما شرعت الزواجر والقتل والسجون والتعذيرات<sup>(١)</sup>.

وبهذه النقول النيرة، يتبيّن لنا روعة هذه الأحكام الخاصة بالرفق بالحيوان، وسبقهَا بقرون طويلة كل ما عرفه الناس عن ذلك في العصر الحديث وفاته براحل ومراحل<sup>(٢)</sup>.

#### الإحسان بالنبات،

ومن مجالات الإحسان بالبيئة وعناصرها الحية: الإحسان بنباتاتها وأشجارها، وذلك بحكم أن الإنسان مستخلف من الله في هذه الأرض، وأمانة الخلافة تقتضي أن يحافظ المستخلف على كل ما اثمن عليه، وعهد إليه رعايته. وإنما يتم ذلك برعاية حاجته، وإصلاح أمره، وعدم إفساده وإتلافه، أو تعريضه للتلف بوسيلة أخرى، وحتى لا يحقق سوء ظن الملائكة بالإنسان حين عرض ربنا تبارك وتعالى عليهم قضية خلق آدم وذراته، وقال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَتَحْنُنُ نُسُجَّ يَحْمَدِكَ وَنَقْدِسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٣٠).

وما يناسب هذا الجواب الإلهي للملائكة أن يقوم الإنسان بحق خلافته، ويستخدم موهبه وملائكته وما علمه الله من أسماء، في إصلاح الأرض وعمارتها.

(١) التراتيب الإدارية ج ٢ ص ١٥٣، ١٥٤.

(٢) انظر: كتابنا (مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية) فصل (الأخلاقية) من خصائص الشريعة.

ولعل أبرز النصوص في ذلك ما جاء في المحافظة على نباتات الحرم، بحيث لا يقطع بأي وسيلة من الوسائل، بله أن يتلف أو يحرق. ولم يستثن من ذلك إلا (الإذخر) لحاجة الناس إليه.

ومن عجيب ما يذكر هنا: اهتمام المسلمين ببعض أنواع النبات أكثر من غيره مثل (النخلة) التي تكرر ذكرها والحديث عنها في القرآن ، والتي شبهها النبي صلى الله عليه وسلم بالمؤمن أو شبه المؤمن بها، وقال : «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وهي مثل المؤمن».

وقد أكد المسلمون اهتمامهم هذا برواية حديث حول النخلة ضعفه بعض العلماء ، ورماه بعضهم<sup>(١)</sup> بالوضع والكذب ، وهو الحديث الذي يقول: «أكرموا عمتكم النخلة ، فإنها خلقت من طينة أبيكم آدم . وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة ولدت تحتها مريم ابنة عمران»<sup>(٢)</sup>.

ولا أذكر هذا الحديث هنا للاستدلال به ، فهو أوهى من أن يستدل به ، ولكن للدلالة على تقبل العقلية الإسلامية لفكرة إكرام النخل ، حتى اخترعوا لها نسبة بالإنسان ، وزعم بعضهم أنه نسب حقيقي ، وقال غيره: إنها عمتكم بخيرها .

ونقل العلامة المناوي في (فيض القدير) عن ولي الدين العراقي قوله: المراد ياكرامها: سقيها ، وتلقيحها والقيام عليها ، وتعهدها<sup>(٣)</sup>.

وقد مر النبي صلى الله عليه وسلم بالأنصار ، وهم يلقحون نخيلهم ، فسألهم ماذا يفعلون ، فأخبروه ، فلم ير ضرورة لهذا الأمر ، وظنه الأنصار أمرا

(١) منهم ابن الجوزي في كتابه (الموضوعات) ولم يعقبه السيوطي ، وإن أورده في (الجامع الصغير) حديث (١٤٣٢) ، والألباني في ضعيف الجامع الصغير قال: موضوع . حديث (١٢٣٤).

(٢) ذكره في الجامع الصغير ونسبة إلى أبي يعلى وابن أبي حاتم وابن عدي وابن السنى وأبي نعيم وابن مروي عن علي رضي الله عنه . ورمز له بعلامة الضعف . وانظر: كلام المناوي عليه في فيض القدير (٩٥/٢).

(٣) فيض القدير للمناوي (٩٤/٢ ، ٩٥).

دينها، فتركوا التلقيح أو التأثير، فخرج الثمر في الموسم شيئاً (أي ردئاً غير صالح) فلما سألهم قالوا له : أنت أشرت علينا بتركه ، فقال لهم : «إِنَّمَا ظننت ظناً، فَلَا تؤاخذُنِي بِالظُّنْنِ، أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ»<sup>(١)</sup>.

وبهذا ترك للناس أن يدبروا أمر دنياهما وهب الله لهم من عقول ، وبما حصلوا من خبرات وتجارب ، حتى يصلوا إلى درجة (الإحسان) الذي هو فريضة إسلامية ، كما في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ»<sup>(٢)</sup>.

#### الإحسان والرفق بالجمادات:

وليس الإحسان والرفق المطلوب مقصوراً على الكائنات الحية من الإنسان والحيوان والنبات فحسب ، فقد رأينا الحديث النبوي يقرر «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ» فهذه كلية عامة لا استثناء فيها . وقد قال تعالى : «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقُوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ» (التحليل: ١٢٨) فهو لاء الأخيار يتعاملون مع الله تعالى بالتقوى ، ومع خلقه بالإحسان . وخلق الله هنا يشمل : الأحياء والجمادات جميعاً.

ولهذا ينبغي للمسلم أن يحسن بكل ما يتصل به ، ويتعامل معه ، ويرفق به الرفق الذي يلائمه ، ويحفظه وينميه ، كما يحب الله تعالى ويرضي . كما قال تعالى : «وَآخْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» (البقرة: ١٩٥).

#### الإحسان بالأرض وتربيتها:

ومن ذلك : الإحسان بالأرض التي نعيش عليها ، ونشي في مناكبها ، آكلين من رزق الله فيها ، وقد جعلها الله لنا ذلولاً .

وقد خلق الله لنا هذه الأرض صالحة لإقامةنا ، ولغرستنا وزرعنا ، وجعل لنا

(١) رواه مسلم عن عائشة وأنس.

(٢) رواه مسلم عن شداد بن أوس . وهو من أحاديث الأربعين النووية .

بها صلة وثيقة، فمنها نأكل وتأكل أنعامنا، وعليها نعيش وتعيش حيواناتنا، إلى ترابها نعود بعد موتنا، ومنها نخرج عند بعثنا. وهذا ما جعل كثيرا من الأدباء والشعراء يقولون: الأرض أمنا! .

والقرآن الكريم يشير إلى ذلك في آيات كثيرة، حسبنا منها ما ذكره الله تعالى على لسان سيدنا موسى، وقد سأله فرعون مع أخيه هارون: من ربكما يا موسى؟ قال: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَنِي كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ ﴿٥١﴾ . قالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونُ الْأُولَى﴾ ﴿٥٢﴾ . قالَ عَلِمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضُلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ ﴿٥٣﴾ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُّلًا وَأَنْزَلَ مِنِ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ ﴿٥٤﴾ . كَلَّوْا وَأَرْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولَئِكَ الَّتِي هُنَّ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ ﴿٥٥﴾ . (طه: ٥٠-٥٥).

وقد أمرنا الله تعالى أن نحسن بالأرض، ونصلحها، ولا نعش فيها مفسدين، قياما بأمانة الاستخلاف، وبشكر النعمة، وبواجب العمارة.

فمن الإحسان بالأرض الزراعية أن يتولاها زارعها بالرعاية والتسميد والسقي والتنقية مما يعوق نماء نباتها، وعليه أن يراعي ما يناسبها من الزرع، فمن الزرع ما إذا استمر في أرض أضعف تربتها، وأفقدتها كثيرا من حيويتها. ولقد رأيت الفلاحين في قريتي - وأنا صبي - يزرعون الأرض في سنة قمح وشعيرا، وفي السنة التالية برسينا، فالقمح يضعفها، والبرسيم يقويها، وقد ذكر علماء الزراعة لذلك تفسيرا لا مجال له هنا الآن.

كما أنهم كانوا إذا سقوها كان سقيها بحساب، فلا يسرفون في السقي حتى تغرق، ولا يقللون منه حتى لا يرتوي ظمئها .. ويقدرون ما بين السقيتين بحساب دقيق، وكل نبات يعرفون مقدار حاجته إلى الماء، فالأرز غير القمح، وهو ما غير القطن . وهكذا.

وكانوا يقولون: أعط الأرض تعطك . وأحسن إليها تحسن إليك . وهذا مستمد من قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (الرحمن: ٦٠).

وهكذا إذا كانوا طيبين مع الأرض كانت الأرض طيبة معهم، فالطيبات للطيبين، والله تعالى يقول : ﴿وَالْبَلْدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتٌ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكَدًا﴾ (الأعراف : ٥٨).

وأعظم ما يتتحقق به الإحسان في عصرنا : تجنب كل ما يؤدي إلى (تلويث التربة) بالمواد التي تخرجها عما جعل الله فيها من الخير والبركة والصلاح بمقتضى فطرتها ، فلا يجوز للإنسان تغيير فطرتها التي فطرها الله عليها ، فكل خروج على الفطرة - في أي مجال كان - ضرب من الفساد المحظور .

#### الإحسان بالماء :

ومن الإحسان بالحمد كذلك : الإحسان بالماء ، أساس خلق الأحياء ، وقوام الحياة كلها . يقول تعالى : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّنْ مَاءٍ﴾ (النور : ٤٥) وقال سبحانه : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ﴾ (الأنبياء : ٣٠) .

وقد سبق القرآن بهذا كل ما قرره (علم الأحياء) الحديث من أن الماء هو أصل الحياة .

وقد لوحظ منذ أقدم العصور أن الماء هو العنصر الأساسي لاستقرار الإنسان وازدهار حضارته . وأينما وجد الماء وجدت مظاهر الحياة . ولا عجب أن ارتبطت الحضارات القديمة ارتباطاً وثيقاً بموارد المياه العذبة ، وبالأنهار الكبيرة ، كما في مصر والعراق وغيرهما .

وليس بغرير أن يتجمع البدو في الواحات حول عيون الماء . فالماء لا يمكن الاستغناء عنه لاستحالة استمرار الحياة بدونه ، ولارتباط الأنشطة البشرية المختلفة به .

وقد أثبت علم الخلية : أن الماء هو المكون المهم في تركيب مادة الخلية ، حيث يدخل في تكوين جميع خلايا الكائنات الحية بمختلف صورها وأشكالها

وأحجامها وأنواعها. وهو يكون نحو ٩٠ في المائة من أجسام الأحياء الدنيا، ونحو ٦٠ - ٧٠ في المائة من أجسام الأحياء الراقية بما في ذلك الإنسان.

وبدون الماء لا يمكن خلايا الجسم الحي أن تحصل على الغذاء. فالماء مكون رئيسي لأجهزة نقل الغذاء في الكائنات الحية، والفضلات السامة - التي تنتج من العمليات الحيوية كالبول والعرق - تطرح خارج الجسم الحي ذائبة في الماء.

والماء هو الوسط الذي تُجرى فيه جميع العمليات الحيوية من هضم وامتصاص وبناء . . . إلخ.

وقد أثبت علم الكيمياء الحيوية أن الماء لازم لحدوث جميع التفاعلات والتحولات التي تتم داخل أجسام الأحياء، فهو إما وسط أو عامل مساعد catalyst أو داخل في التفاعل أو ناتج عنه.

كما أثبت علم وظائف الأعضاء (الفيسيولوجيا) أن الماء ضروري لقيام كل عضو في جسم الإنسان بوظائفه على الوجه الأمثل، ومن دون الماء لا يمكن لهذا العضو وغيره أن يستمر في عمله ووجوده.

وما يجدر بنا ذكره أن الماء - كما خلقه الله - يحمل من الصفات ما يمكنه من المساعدة في الحياة على سطح الأرض، بعض النظر عن كونه عذباً فراتاً أم ملحاً أجاجاً - فالماء العذب والماء المالح هما بيئة كثيرة من المخلوقات والكائنات الحية.

يقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيرًا﴾ (النحل: ١٤).

أي جعل مياهه صالحة لحياة الأحياء التي تعيش فيه، والتي يعتمد عليها الإنسان في غذائه. ويقول تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسيَّارَةِ﴾ (المائدة: ٩٦).

وقد قال المفسرون: إن المصود بالبحر في هذه الآية: كل ماء يوجد فيه صيد بحري، وإن كان نهراً أو غديراً.

كما أشار القرآن الكريم إلى أهمية مياه الأمطار للأحياء: «وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَنَا بِهِ نَبَاتٍ كُلُّ شَيْءٍ» (الأنعام: 99) فماء المطر ضروري لنمو النباتات التي تتغذى عليها الحيوانات ويتجدد على الإنسان. ومن دون هذا الماء تكون الأرض مواتاً. ولو لا الماء لما أمكن للنباتات الخضراء، والأحياء الأخرى المحتوية على صبغة اليخصوصور (الكلوروفيل)، أن تقوم بصنع الغذاء في عملية البناء الضوئي photo synthesis .

إن الماء -بإيجاز- هو وحدة البناء في كل كائن حي، نباتاً كان أم حيواناً أم إنساناً.

ونظراً لأهمية الماء، جعله الله حقاً شائعاً بين البشر جميعاً، فحق الانتفاع به مكفول للجميع بلا احتكار ولا إفساد ولا تعطيل<sup>(١)</sup>.

وروى ابن ماجه عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاث لا ينعن: الماء والكلأ والنار»<sup>(٢)</sup> وعن ابن عمر مرفوعاً: «المسلمون شركاء في ثلاثة: في الكلأ والماء والنار»<sup>(٣)</sup>.

وبهذا يشترك الناس جميعاً في الموارد التي تقوم عليها ضروريات الحياة. وينبغي للإنسان أن يتعامل مع الماء بـالحسان، باعتباره من أعظم نعم الله عليه، وعلى كل الكائنات الحية من حوله من أنعام ونبات، مما سخر للإنسان. والإحسان بالماء يتضمن عدة أمور، ينبغي للإنسان -وخصوصاً الإنسان المؤمن- أن يعيها ويغرسها في أعماق فكره ووجدانه. منها:

١- أن يشعر بنعم الله عليه فيه، ويحمده تعالى عليها، روى مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه

(١) انظر: البيئة مشاكلها وقضاياها. لـ محمد عبد القادر الفقي.

(٢) رواه ابن ماجه في كتاب الرهون، برقم (٢٤٧٣) وقال في الزوائد: إسناد صحيح رجاله موثقون.

(٣) رواه عن ابن عمرو وأحمد وأبو داود عن رجل، وذكره الألباني في صحيح الجامع الصغير (٦٧١٣).

وسلم «إن الله تعالى ليرضي عن العبد يأكل الأكلة في حمده عليها، ويشرب الشربة في حمده عليها»<sup>(١)</sup>.

كما علم المسلم أن يقول بعد أن يفرغ من وضوئه : «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله ، اللهم اجعلني من التوابين ، واجعلني من المتطهرين»<sup>(٢)</sup> .

٢- أن يحافظ عليه نقيا طاهرا ، فلا يلوثه بأي ملوث من الملوثات ، التي تخرجه عن فطرته ، وتجعله خبيثا غير طاهر ، ضارا غير نافع ، فإن شكر النعمة أن تستخدم فيما خلقت له ، لا في الفساد وفي معصية الله ، وآفة الحضارة الحديثة أنها لم تراع ذلك في استخدامها ، فكان تلوث الماء في الأنهر والبحار وغيرها ، حتى ذلك إلى موت كثير من الكائنات الحية في الماء ، أو إصابتها بما يضرها ويضر الإنسان معها .

٣- أن يقدر قيمة الثروة الثمينة ، التي لا يقدر قدرها ، فلا يسرف في استعماله بغير حاجة ، ولا يضيعه هباء ، فقد نهي المسلم عن الإسراف في الماء ، كما نهى عن الإسراف في كل شيء ، فإن الله لا يحب المسرفين .

ولقد روى أكثر من صحابي (عائشة وجابر وسفينة) عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه كان يتوضأ بالمد ، ويغتسل بالصاع (المد: رطل وثلث بالبغدادي أو رطلان - على الخلاف ، والصاع أربعة أمداد) على خلاف ما يفعله الموسوسون من المتدينين .

وقد جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فسأله عن الوضوء ، فأراه ثلاثة ثلثا ، ثم قال : «هذا الوضوء ، فمن زاد على هذا فقد أساء و تعدى و ظلم»<sup>(٣)</sup> .

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٣٤) .

(٢) رواه مسلم وغيره عن عمر ، دون قوله «للهم اجعلني» فقد رواها الترمذى وأعلها بالاضطراب ، ورده الألبانى وصحح الزیادة . انظر : إرواه الغليل رقم (٩٦) .

(٣) رواه أبو دارد بلفظ «فمن زاد على هذا أو نقص ، فقد أساء و ظلم» أو «ظلم وأساء» حديث (١٣٥) والنمساني مختصرًا (١٤٠) وابن ماجه (٤٢٢) .

وروى ابن ماجه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يتوضأ،  
فقال: «لا تصرف، لا تصرف»<sup>(١)</sup>.

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بسعد، وهو  
يتوضأ، فقال: «ما هذا السرف؟» فقال: «أو في الوضوء سرف؟ (كان يحسب  
الإسراف في المأكل والمشرب ونحوهما) قال: «نعم وإن كنت على نهر جار»<sup>(٢)</sup>.

ويتحقق بالماء: الهواء الذي جعل الله فيه حياة الإنسان والحيوان والنبات،  
وعلى الإنسان أن يتعامل معه بما لا يفسده ولا يلوثه، وبشكراً لنعم الله فيه.

كما يتحقق بذلك كل ما يقع تحت يد الإنسان من الأشياء، والآلات  
وال أدوات والمساكن، فواجب على الإحسان بها، ولا يجوز إفسادها أو  
إتلافها أو العدوان عليها، أو إهمالها وإضاعتها، فتضييع بذلك ثروة على  
المجتمع، بل على البشرية كلها.

---

(١) رواه ابن ماجه برقم (٤٢٤) وفي إسناده بقية، وهو مدلس.

(٢) رواه ابن ماجه برقم (٤٢٥) وفي إسناده ضعف، ولكن يتقوى بالحديث الذي قبله.

## ٧. المحافظة على البيئة من الإتلاف

يسعى الإسلام بتوجيهاته الأخلاقية، وتشريعاته القانونية للمحافظة على عناصر البيئة ومكوناتها، ويعمل على تنميّتها وتحسينها.

كما أن الإسلام يقاوم بشدة كل عمل يفسد البيئة، ويتلف عناصرها، ويعتبر ذلك عملاً محظياً يعقوب الله عليه، ومنكراً يجب النهي عنه، وتغييره باليد أو باللسان أو بالقلب، وذلك أضعف الإيمان.

وهناك أنواع من الإتلاف بداعٍ مختلفٍ كلها محرّم ومنكر شرعاً.

### ١- الإتلاف بداعٍ القسوة،

فمن الإتلاف المحظور شرعاً: الإتلاف بداعٍ القسوة على خلق الله، وخصوصاً من الحيوانات، كما جاء ذلك في حديث المرأة التي حبست الهرة حتى ماتت جوعاً. وهو ما رواه ابن عمر: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض» وفي رواية: «عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»<sup>(١)</sup>.

وخشاش الأرض: الحشرات والهوام مثل الفارة ونحوها.

وإنما استحقت هذه المرأة النار والعذاب، لقسوة قلبها، وخلوّه من الرحمة لهذه المخلوقة الضعيفة.

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٤٨٢).

## ٢- الإتلاف بداع الغضب:

وما يحرمه الإسلام الإتلاف لعناصر البيئة الحية - ولو كانت من جنس الحشرات - بداع الغضب، ولا سيما إذا أدى ذلك إلى ما يشبه (الإبادة الجماعية)، فكثيراً ما أدى الغضب بصاحبها إلى الواقع في فساد الرأي أو فساد السلوك، ولذلك أوصى الرسول بعض الناس فقال له: «لا تغضب» وكان ذلك بطلب من الرجل، ثم كرر الطلب أكثر من مرة، فكرر النبي الوصية «لا تغضب»<sup>(١)</sup> لأن الغضب - كالشهوة - مصدر شر كثير، وعلى المرء المؤمن أن يجعل عقله مسيطرًا على قوته الغضبية، حتى يتميز عن السباع، وقوته الشهوية، حتى يرتقي عن البهائم.

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قرصت نملة نبياً من الأنبياء فأمر بقرية النمل، فأحرقت فأوحى الله إليه: أن قرصتك نملة أحرقت أمّة تسحب الله؟»<sup>(٢)</sup>.

وذكر الحافظ ابن حجر في شرح الحديث: أنه وقع في بعض طرقه: أن الله أوحى إليه: «فهل نملة واحدة؟» فإن فيه إشارة إلى أنه لو أحرق التي قرصته وحدها لما عوتب<sup>(٣)</sup>.

وقال الحافظ المنذري في (الترغيب والترهيب) بعد أن ذكر رواية «فهل نملة واحدة» فيه دليل على أن التحرير كان جائزًا في شريعتهم<sup>(٤)</sup>.

فهل هو جائز في شريعتنا؟ وهل شرع من قبلنا شرع لنا أولاً؟ وقد جاءت أحاديث صحاح تنهى عن التحرير والتعذيب بالنار بصفة عامة، فإنه لا يعذب بالنار إلا رب النار. وخصوصاً أن بعض الأحاديث نهت عن قتل النملة

(١) رواه البخاري برقم (٦٦٦).

(٢) رواه البخاري في كتاب الجهاد (ج ٦ / ١٥٤) الحديث (٣٠١٩) ورواه مسلم أيضاً (٢٤١).

(٣) المصدر السابق.

(٤) انظر: المتنقى من الترغيب والترهيب .. الحديث (١٨١٨).

والنحله والهدهد والصرد . على أن الذي لا خلاف في تحريره هو القتل الجماعي للنمل وغيره .

### ٣- الإتلاف بداعع العبث،

ومن الإتلاف المحظور والمنكر شرعا: الإتلاف بداعع العبث ، ومعنى العبث: ألا يكون له هدف يتحقق له منفعة معتبرة من وراء هذا الإتلاف المتمدد .

ومن ذلك: ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما : أنه مر بفتیان من قريش نصبوا طيرا -أو دجاجة- يترامونها . وقد جعلوا الصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم ، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا ، فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضا! <sup>(١)</sup>

والغرض: هو الهدف الذي ينصبه الرماة ، يقصدون إصابة من قرطاس أو خشب أو معدن أو غيره .

فهؤلاء قد اتخذوا هذا الطير أو هذه الدجاجة غرضا لهم يصوبون نحوه نبالهم ، إما ليتدربيوا أو ليتسابقوا ، وكان يمكنهم أن يحققوا هذه المنفعة باتخاذ غرض من خشب أو قرطاس ونحو ذلك ، ولكنه العبث بأرواح المخلوقات الضعيفة غالب على هؤلاء الفتية ، ولهذا حذرهم ابن عمر وأخبرهم بلعن رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل من قام بهذا الصنيع .

وأصرح من هذا ما رواه الشريذ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من قتل عصفوراً عبثاً عجز إلى الله يوم القيمة ، يقول: يا رب ، إن فلاناً قتلني عبثاً . ولم يقتلني منفعة» <sup>(٢)</sup> .

(١) متفق عليه ، رواه البخاري (٥٥١٥) ومسلم (١٩٥٨) وانظر اللؤلؤ والمرجان: (١٢٧٩).

(٢) رواه النسائي (٢٢٩/٧) وابن حبان في صحيحه (٥٨٩٤) وأحمد (٣٨٩/٤) وانظر: تعليقنا عليه في (المتنى من الترغيب والترهيب) الحديث (٥٧٧).

ونحوه حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهمما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «ما من إنسان يقتل عصافورا فما فوقها، بغير حقها، إلا يسأل الله عز وجل عنها ، قيل : يا رسول الله ، وما حقها؟ قال : أن يذبحها فياكلها ، ولا يقطع رأسها ويرمي بها»<sup>(١)</sup>.

#### ٤- الإتلاف بلا ضرورة ولا حاجة:

ويقرب من هذا الإتلاف العبشي : الإتلاف لعناصر البيئة بلا ضرورة تلجم إلى ذلك ، ولا حاجة معتبرة تدفع إليها ، إنما هو الجهل أو الظلم والإفساد في الأرض ، الذي نهت عنه كل رسالات السماء .

انظر إلى هذا الحديث الذي رواه أبو داود في سنته عن عبد الله بن حبشي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار»<sup>(٢)</sup>.

والمراد بالسدرة : شجرة السدر المعروفة ، (ويسمى في بعض البلاد : النبق) وهو ينبت في الصحاري ، ويصبر على العطش ، ويقاوم الحر ، ويتفتح الناس بتفيؤ ظلاله ، والأكل من ثماره ، إذا اجتازوا تلك الفيافي مسافرين ، أو باحثين عن الكلأ والمرعى ، أو لغير ذلك من الأغراض .

والوعيد بالنار لمن قطع سدرة يدل على تأكيد المحافظة على مقومات البيئة الطبيعية ، لما توفره من حفظ التوازن بين المخلوقات بعضها وبعض ، وما يمثله الاعتداء عليها من فقدان بعض العناصر المهمة لسلامة الحياة والإنسان .

وبهذا سبقت السنة النبوية الجماعات والأحزاب المعاصرة في كثير من أنحاء

(١) رواه النسائي (٧/٢٠٧، ٢٣٩) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤/٢٣٣) كما رواه أحمد في المسند (٦٥٥) وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح . كما رواه الطيالسي والدارمي والحميدي والبيهقي في المتنقى (٥٧٦).

(٢) رواه أبو داود في كتاب الأدب من سنته - باب قطع السدر (٥٢٣٩) ، ورواه البيهقي في السنن ، وذكره في صحيح الجامع الصغير .

العالم، التي تنادي بالمحافظة على (الخضراء) في الغابات وغيرها، وتندد بقتلة (الأشجار) وبـ(المذابح) التي تتعرض لها الأراضي الخضراء نتيجة جهل الإنسان وجشعه «إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا» (الأحزاب : ٧٢).

وقد رأيت بعض رجال الحديث يصرفون هذا الحديث النبوى عن ظاهره المتباذر الذى يفيده عموم لفظه «من قطع سدرة» فتأولوه بأن المراد: سدرة من سدر الحرم، وكأنهم استكثروا الوعيد بالنار على قطع سدرة، فارتکبوا هذا التأويل الذى لا دليل عليه. والأصل حمل الكلام على ظاهره وعمومه، حتى يقوم دليل واضح على عكسه.

ومن حسن الحظ أن الإمام أبا داود الذى أخرج الحديث في (سننه) خالف هؤلاء المتأولين، واتجه بالحديث الوجهة الصحيحة، فقد سئل عن هذا الحديث فقال: هذا الحديث مختصر، يعني: من قطع سدرة في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم - عبشا وظلما بغير حق، يكون له فيها صوب الله رأسه في النار. اهـ<sup>(١)</sup>.

#### ٥. الإنلاف بسبب الإهمال وإضاعة

ومن الإنلاف المحظور: الإنلاف بسبب الإهمال للشيء، والتقصير في رعايته حتى يتلف ويهلك، سواء كان حيواناً أم نباتاً أم جماداً. ويدخل ذلك - أول ما يدخل - في إضاعة المال التي نهى عنها النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن أمثلة ذلك: إهمال الحيوان حتى يهلك من الجوع أو المرض، وإهمال الزرع حتى تأكله الآفات، وإهمال الحبوب والثمار والأطعمة حتى يتلفها العفن والسوس، وإهمال الثياب حتى تبلیها (العتة)، وإهمال المباني والمرافق حتى تهلكها عوادي الزمن، وإهمال الآلات حتى يأكلها الصدا، ومن ذلك إضاعة الأنوار نهاراً حيث تستهلك الطاقة بلا حاجة إليها، وترك صنابير المياه

(١) المصدر السابق.

مفتوحة حيث تصب في غير حاجة، وإلقاء فضلات الطعام في القمامات وفي الناس من يحتاج إلى لقيمات يقمن صلبها، وترك الثياب الصالحة للاستعمال مجرد خرق صغير بها، أو مرور زمان عليها، وفي المجتمع من يحتاج إلى خرقة تستر عورته أو تقيه الحر والقر.

ومن إضاعة المال: ترك الأرض الصالحة للزراعة دون استغلالها، وترك الوسائل المستطاعة لزيادة إنتاجها - كما ونوعا - دون استخدامها، وكذلك إهمال الثروة الحيوانية مع إمكان تنميتها، وتوسيع نطاق الانتفاع بها، بلحومها وألبانها وما يستخرج منها، وبما أشار القرآن إليه من جلودها وأصواتها وأوبارها وأشعارها. وترك المصانع والمباني والأجهزة دون صيانة دورية، حتى تهلك قبل عمرها الافتراضي.

ومن أجل النهي عن إضاعة المال أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على من تركوا الشاة الميتة فلم يتذمروا بجلدها، فقد روى الشيخان عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم من بشارة ميتة فقال: «هلا استمتعتم بإهابها؟ (جلدها)، قالوا: إنها ميتة! ، قال: إنما حرم أكلها»<sup>(١)</sup>.

ومن أجل ذلك أيضاً عنون البخاري في صحيحه فقال: باب : هل تكسر الدنان التي فيها خمر أو تخرق الزّقاق (أي القرب التي فيها الخمر)؟ وقال الحافظ ابن حجر في شرحه: لم يبين الحكم؛ لأن المعتمد فيه التفصيل، فإن كانت الأوعية يُراق ما فيها، وإذا غسلت طهرت وانتفع بها، لم يجز إتلافها، وإنجاز<sup>(٢)</sup>.

وقال السبكي الكبير: الضابط في إضاعة المال: ألا يكون لغرض ديني ولا دنيوي، فإن انتفيا حرم قطعاً، وإن وجد أحدهما وجوداً له بال، وكان الإنفاق لائقاً بالحال، ولا معصية فيه، جاز قطعاً، وبين الرتبتين، وسائط كثيرة لا تدخل تحت ضابط<sup>(٣)</sup>.

(١) متفق عليه عن ابن عباس، كما في اللؤلؤ والمرجان (٢٠٥).

(٢) انظر: فتح الباري (٤٦/٦) طبعة الحلبي.

(٣) فتح الباري (١٣/١١-١٢) طبعة الحلبي.

## ٦- تحرير الإتلاف في الحرب:

ومن روائع ما جاء في الشريعة الإسلامية: أنها لم تجز الإتلاف والإفساد لعناصر البيئة، حتى في حالة الحرب، التي يخرج الناس فيها عادة على الحدود المعهودة، ويتجاوزون المألوف في العلاقات، فكثيراً ما يقطعون الأشجار، ويخربون العامر، ويهدمون الأبنية، ويقتلون الحيوانات لا ليأكلوها، بل ليتلفوها على أعدائهم. وهذا ما منعه الإسلام في حروبه، إلا ما اقتضته الضرورة القصوى، مثلما حدث في حصار بني النمير، حيث اختبئوا في نخيلهم محتمين به، معتمدين على أن المسلمين لن يقدموا على ضربهم في نخيلهم، لأنه من الإفساد الذي نهى عنه الإسلام.

ولكن الله تعالى أذن لرسوله لضرورة الحرب في قطع بعض النخيل، وكشف القوم، وإلزامهم بالمواجهة الصريحة، وقد قال اليهود في ذلك: كنت تنهى عن الفساد يا محمد، فما بالك تفعله اليوم، أو نحو ذلك؟

فأنزل الله تعالى في كتابه ﴿مَا قَطَعْتُم مِّنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الحشر: ٥).

وجاء في وصايا أبي بكر رضي الله عنه لقواده في الحرب هذه الوصية الواضحة الخامسة، فقد قال يحيى بن سعيد: حدثت أن أبو بكر بعث جيوشاً إلى الشام، فخرج يشيع يزيد بن أبي سفيان، فقال:

إني وأوصيك بعشر: لا تقتل صبياً، ولا امرأة، ولا كبيراً هرماً، ولا تقطعن شجراً مشمراً، ولا تخربن عاماً، ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا للأكلة، ولا تغرقن نخلاً، ولا تحرقنه، ولا تغلل، ولا تجبن<sup>(١)</sup>.

(١) رواه مالك في موطنه. كتاب الجهاد، باب النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو: حديث رقم (١٠) ص ٤٤٧، ٤٤٨ طبعة الحلبي، كما رواه عبد الرزاق في كتاب الجهاد من مصنفه (١٩٩/٥، ٢٠٠) الأثر رقم (٩٣٧٥، ٩٣٧٦) وابن أبي شيبة في مصنفه. كتاب الجهاد (١٢/٣٨٣، ٣٨٤) الأثر رقم (١٤٠٧٦) والبيهقي في السنن كتاب السير (٨٩/٩).

وهذا ما مضى عليه المسلمون في حروبهم طوال الفتوح الإسلامية ، التي كان المسلمون فيها أقوى قوة عسكرية في الأرض ، ولكنهم تجنبوا سياسة الإتلاف والإفساد ، وما يسمونه في عصرنا (الأرض المحروقة) بل كانوا دائماً صالحين مصلحين ، لأنهم وعوا قول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الرُّؤْبُرِ مِنْ بَعْدِ الْذِكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ﴾ (الأنياء: ١٠٥).

وفي هذا قال المفكر والمؤرخ الاجتماعي الفرنسي غوستاف لوبيون : ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب . يعني : المسلمين .

ولكن الحروب في عصرنا لم تراع ما راعاه المسلمون منذ أربعة عشر قرناً . ولم تبال بما يصيب الإنسان والحيوان والنبات من جرائها .

لقد بلغ الطغيان البشري ، وظلم الإنسان لأنخيه الإنسان ، حداً أغوى بعض الدول باستخدام المبيدات والمهلكات الكيميائية في الأغراض الحربية والعسكرية ، مستهدفة إهلاك المحاصيل الزراعية ومناطق الرعي والغابات ، فضلاً عن إفساد التربة الزراعية ، وتنهض الحرب الأمريكية في «فيتنام» دليلاً صدق وشاهد حق على ما نقول ، وكذلك الحال في كل من «لاوس» و«كمبوديا» حيث استخدمت الدول الغازية مبيدات الأعشاب في هذه المناطق بغضون إتلاف الرقعة الزراعية بها ، ولقد انعقد في فيتنام المؤتمر الدولي لتقدير المحصلة الأولية لأثار الحرب الكيميائية في فيتنام في الفترة من ٢٠ - ١٣ من يناير ١٩٨٣ ، وقد كان من أبرز نتائج هذا المؤتمر ما يلي :

- لقد منيت البيئة في «فيتنام» بخسائر جوهرية بسبب استخدام الولايات المتحدة الأمريكية لتلك المبيدات ، فقد استخدمت على سبيل المثال مادة «الاجان أورانج» وهي خليط من المبيدات النباتية التي تحتوي على مادة «الديوكسين» ، حيث ألقت منها ٤ مليون لتر على الأراضي الفيتنامية خلال عشر سنوات (١٩٦١ - ١٩٧١م) ، وقد أدى ذلك إلى تغيير عميق في تكوين التربة في المناطق التي استخدمت فيها ، وكذلك الحال بالنسبة للمناطق

المجاورة لها، حيث تم انتقال هذه المواد بواسطة العوامل الطبيعية والحيوانية والنباتية لم تقدر بعد جيداً.

- أكدت نتائج المؤتمر استمرار الآثار الضارة بالنوع البشري ، فقد أظهرت نتائج الدراسات التي أجريت على الأفراد الذين تعرضوا لخطر استخدام المبيدات ، كالمقاتلين-أنهم لحقت بهم أضرار وراثية أدت في النهاية إلى إحداث تشوهات خلقيّة بهم مثل مرض «المنغولية mangolism» ، وهو مرض وراثي يحدث نتيجة لوجود كروموزوم إضافي للكروموسوم رقم (٢)، كما يمكن ظهور هذا المرض عند التصاق جزء منه بโครموسوم آخر ، وتظهر أعراض هذا المرض في بlahة تصيب الطفل عند ولادته، ويكون من نتائجها انحراف العينين وتسطح الجبهة ، وتعتبر أكبر أجزاء الجسم عرضة للإصابة بهذه المواد الجلد والعيون وبعض الأغشية والغدد التناسلية ، وكلها تؤدي إلى نتائج وراثية تهدد كلا من الإنسان والحيوان ، فضلاً عن النبات ، فقد أثرت على المورثات «الكروموسومات» مسببة تشوهات خلقيّة وارتفاع معدلات المواليد غير الطبيعيين في أسر المقاتلين الفيتนามيين في أعقاب هذه الحرب ، يالله للناس !<sup>(١)</sup>

أما ضرب هيروشيمـا وناجازاكـي في الحرب العالمية الثانية ، وما خلفتا من هلاك للحرث والنسل ، ومن دمار للناس وللبـيئة ، فشيء فوق الوصف والتـصوير ، وقد أصبح بيـنـا وـمعـروـفـا لدىـ الخـاصـ والعـامـ ، وهو وـصـمةـ عـارـ للـحـضـارـةـ ، ولـطـخـةـ سـودـاءـ فيـ جـبـنـ الإـنـسـانـ .

---

(١) انظر : البيئة في الفكر الإنساني والواقع الإيماني لعبد الحكيم عبد اللطيف الصعيدي ص ٦٣ ، ٦٢ .

## ٨. حفظ التوازن البيئي

ومن أهم ما جاءت به التعاليم الإسلامية فيما يتعلق بالبيئة: حفظ التوازن البيئي والخلولة دون اختلال هذا التوازن.

فمما لا شك فيه أن الله تعالى خلق كل شيء في هذا الكون بحسب ومقدار، **﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوتٍ﴾** (الملك: ١٣).

لم يخلق شيء في هذا الكون عبثاً أو اعتباطاً، ولم يوضع شيء في غير موضعه، لأن هذا ينافي حكمة الحكيم **﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾** (السجدة: ٧).

والذي اعترف بحكمته أولو الألباب الذين يذكرونها على كل حال **﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سَبَّحَانَكَ﴾** (آل عمران: ١٩١).

لقد قرر القرآن هذه الحقيقة بوضوح لا ريب فيه: **﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدْرٍ﴾** (القمر: ٤٩) **﴿وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ فَقَدْرَهُ تَقْدِيرًا﴾** (الفرقان: ٢) **﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾** (الرعد: ٨) **﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۚ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدُانِ ۚ وَالسَّمَاءُ رَفِعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۚ أَلَا تَطْغُوا فِي الْمِيزَانِ ۚ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۚ﴾** (الرحمن: ٩ - ٥).

وهذا هو المطلوب من الإنسان أبداً: العدل والاعتدال في الميزان: لا طغيان في الميزان، ولا إخسار في الميزان، وإنما ينحرف الناس ويسقطون ويضيعون

ويهلكون، حين يطغون في الميزان أو يخسرون، والطغيان يعني: الغلو والإفراط، والأخسار: يعني التقصير والتفرط، وكلاهما مذموم، إنما المحمود هو التوسط.

وهذا العدل والاعتدال والتوازن - سمه ما شئت - مطلوب من الإنسان في كل شيء، في الماديات والمعنويات، في أمور البيئة، وأمور الإنسان والحياة كلها.

إن كل شيء في هذا العالم بقدر، كما ذكر القرآن الكريم.

الماء أنزله الله أو خلقه الله بقدر، كما قال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يُقْدَرُ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِهِ لَقَادِرُونَ﴾ (المؤمنون: ١٨) فكمية الماء التي جعلها الله في الأرض مقدرة تقديراً حكيمًا دقيقاً، على حسب حاجة الحياة والأحياء فيها، بلا زيادة ولا نقصان. ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (يس: ٣٨).

ويقول تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَّنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ (الحجر: ١٩).

وكلمة (مزون) هنا لا تفسر تفسيراً مجازياً، بل إن كل شيء في النبات موزون بالفعل يعرفه المختصون متمثلاً في نسب ما في النبات من معادن أو أصلح أو ماء أو غيرها بالجرام أو الملي جرام، وما هو أدنى من ذلك من الموازين الحديثة.

وقد ذكر أ. كريسي موريسون في كتابه الذي ترجم إلى العربية تحت عنوان (العلم يدعو إلى الإيمان) وفي فصل (ضوابط وموازين) ما بين لنا بالفعل أن كل شيء في هذا الكون بحساب ومقدار، علم ذلك من علمه، وجهله من جهله.

وإن بعض الحشرات التي يجهل الناس الحكمة من خلقها، قد تكون لها فائدة مهمة لا يعرفها الناس.

وذكر موريسون في كتابه أنه ظهر في أمريكا في فترة من الزمن نبات (شيطاني) غما وتفرع واتسع وانتشر، حتى غدا الناس يقاومونه، ولا يجدون له حيلة، ولا يهتدون سبيلاً، حتى اكتشف بعض العلماء حشرة معينة، فسلطوها على هذا النبات فأعادت التوازن.

إن صراع (الأصداد) هذا هو في حقيقته سعي إلى التوازن في الكون، ولو لاه لطغي بعضها طغياناً لا يمكن إيقافه.

وقد حكي أن بلدة ما كان فيها بعض السباع التي أفلقت الناس، فخطط أهل القرية للقضاء عليها، وترbusوا بها يوماً فأعملوا فيها السلاح حتى أفنوها. وفي اليوم التالي فوجئ أهل القرية بجيوش من القرود زحفت عليهم من الجبال من حولهم، هددت حياتهم وزرعنهم وضرعهم، فقد كان وجود السباع هو الحائل لها دون اقتحام القرية وغزوها.

وفي عالم الإنسان، نجد (سنة التدافع) بين الناس، التي قررها القرآن، التي بها يدفع الله الناس بعضهم ببعض، ولو لاماً لفسدت الأرض، وطغي الأقوياء على الضعفاء، وهدمت بيوت العبادة لله من الصوامع والمساجد، وفي هذا جاء قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥١) ﴿وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعٌ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ (الحج: ٤٠).

والذي نهدف إليه من هذا: أن الكون - كما خلقه الله - متوازن في نفسه، متكملاً بعضه مع بعض، ولو طغى فيه شيء، وجد من الكون نفسه ما يرد طغيانه، ويعيد الأمور إلى الموازين القسط.

ولما يختل التوازن في الكون وفي الحياة بتدخل الإنسان غير المسئول، وعمله غير المحسوب، وغير المشروع. وتغييره لفطرة الله تعالى في نفسه وفي الكون من حوله، ومجاوزته لحده في التعامل مع المخلوقات الأخرى.

وهنا ينزل به العقاب الإلهي، جزاء وفاقاً **﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾** (آل عمران: ١٨٢).

ولقد زاد تدخل الإنسان في البيئة في هذا القرن، وزاد أكثر وأكثر في العقود الأخيرة منه، مما أخل بالتوازن البيئي، وأخل بالنسب في العلاقات بين الأشياء بعضها وبعض، بالطغيان حيناً وبالإحسان حيناً، مما أدى إلى (التصحر) في بعض المناطق، وطغيان البحر على اليابسة في مناطق أخرى، وتغير المناخ العام، وارتفاع درجة الحرارة، وبروز مشكلة (الأوزون) بشكل بات مقلقاً للبشرية في مستقبلها القريب.

وهو ما يخيف المؤمنين أن يؤدي طغيان الإنسان وفساده إلى دمار الأرض وما عليها، كما قال تعالى: **﴿هَتَّىٰ إِذَا أَخَذْتَ الْأَرْضَ زُخْرُفْهَا وَأَزْيَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾** (يونس: ٢٤).

فهل يتذكر الناس في آيات الله قبل أن تقع الكارثة على رءوس الجميع؟ وحيثند يلتمسون الخلاص، ولا ت حين مناص!

(٤)

### الأخطار على البيئة

- ١- خطر التلوث.
- ٢- خطر استنزاف الموارد.
- ٣- خطر الإخلال بالتوازن.

## الأخطار على البيئة

خلق الله تعالى البيئة بمكوناتها المختلفة، صالحة لحياة الإنسان، والقيام بما كلفه الله فيها من العبادة والخلافة والعمارة. وزود هذه البيئة بمكوناتها الطبيعية بالآليات الذاتية التي تحافظ عليها، وتعاون على صلاحتها ونمائها وجمالها وتوازنها. وفيها من النعم والخيرات المذخرة والمنشورة ما لا يحصى، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُخْصُّوهَا﴾ (إبراهيم: ٣٤) (والنحل: ١٨).

ولكن الإنسان إذا مضى وحده -معزز عن هداية ربه- كثيراً ما يغلبه الظلم والجهل، أو الكفران للنعم، أو العجلة، كما وصفه خالقه عز وجل ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلَّومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٢) ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلَّومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم: ٣٤) ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ (الإسراء: ١١) فيرتكب من التجاوزات ما يجور على البيئة، ويحدث فيها الخلل والفساد، وبهذا يعود على نفسه وعلى من حوله وما حوله بالضرر.

وكلما ازداد الإنسان قوة بالعلم المادي الذي توصل إليه، وتطبيقاته التكنولوجية التي تطورت في السنين الأخيرة تطروا كثيراً، ازداد جور الإنسان على البيئة وعلى الطبيعة من حوله، وقد تمثل ذلك فيما سماه العلماء (مشكلات البيئة) وهي التي أصبحت تشكّل خطراً عليها وعلى مقوماتها. وأمست موضع الشكوى من العالم كله، ولا سيما العالم المتقدم، أو العالم الأول، الذي أصبحت هذه المشكلات بثابة (غول) يهدده، وينذره بالويل والهلاك.

تمثل هذه المشكلات الأساسية أو الأخطار الكبرى في ثلاثة أمور:

- ١- التلوث في شتى المجالات، وبمستوياته المختلفة.
- ٢- استنزاف موارد البيئة وسوء استهلاكها.
- ٣- اختلال التوازن البيئي والكوني.

ونفصل الحديث عن كل خطر من هذه الأخطار في الصحف التالية إن شاء الله.

## ١- خطر التلوث

خلق الله الأرض وما عليها وما يتصل بها . وهي التي تكون البيئة الطبيعية للإنسان . ظاهرة لا خبث فيها ، نظيفة لا تحمل أي نوع من التلوث ، متوازنة لا خلل فيها ، صالحة لحياة الإنسان وقيامه بهمته ، فطراة الله التي فطر الكون والأشياء عليها .

يقول تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السُّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ (الفرقان: ٤٨) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُّوْمَا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ (البقرة: ١٦٨) .

بل هذا ما خلق الله عليه الكون بأرضه وسمواته ، فقد خلقه الله على أحسن ما يكون ، كما عبر عن ذلك القرآن الكريم في أكثر من آية ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلُّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾ (السجدة: ٧) ﴿ صَنَعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ (النمل: ٨٨) ﴿ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوتٍ ﴾ (الملك: ٣) .

فليس في الكون - كما فطره الله - شيءٌ خبيث أو ملوث أو مختل التوازن بحكم الخلقة . إنما يأتي الخبيث والتلوث والاحتلال إلى البيئة من صنع الإنسان ، الذي غير فطراة الله تعالى في الطبيعة ، وغير خلق الله في الحياة وفي الإنسان .

القرآن يقول : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا إِلَيْنَا إِنْسَانًا فِي أَحْسَنِ تَقْرِيمٍ ۖ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۖ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْتُونٍ ۖ ﴾ (التين: ٤-٦) .

فالإنسان قد خلقه الله تعالى في أحسن تقويم : سواء من ناحية الصورة

الجسدية، كما قال تعالى مخاطباً الإنسان: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسُوَّاكَ فَعَدَّلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكِبْكَ﴾ (الانفطار: ٧ ، ٨) وقال تعالى ﴿وَصَوَرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ (التغابن: ٣) أم من ناحية التكوين الروحي للإنسان، حيث قال تعالى للملائكة في شأن الإنسان الأول (آدم): ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر: ٢٩).

هذا الإنسان المخلوق في أحسن تقويم مادياً وروحياً، قدرد إلى أسفل سافلين. إذا ترك لغرائزه ونفسه الأمارة بالسوء، وإنما نجا من هذا الارتداد، وبقي على علوه وارتفاعه (الذين آمنوا وعملوا الصالحات).

المستول عن تلوث البيئة إذن هو الإنسان الذي استجاب لظلمه وجهله ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٢) ولم يتبع وحي ربِّه الذي هداه السبيل، وأضاء له الطريق، وأرشده إلى كل خير، وحذرَه من كل شر: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرْبَى آمَنُوا وَأَتَقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأعراف: ٩٦) ﴿وَأَنَّ لَوْيَ استقاموا عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ (الجن: ١٦).

ولكن الإنسان في كثير من الأحوال - أو في أكثرها - لم يؤمن ولم يتق، ولم يستقم على الطريقة، ووقع منه ما خشيَّه الملائكة من قديم حين عرض الله تعالى عليهم خلق الإنسان واستخلافه في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةَ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيُسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠).

فقد علمَ الملائكة من خلق الإنسان على طبيعة مزدوجة أنه لا بد أن يقع منه الفساد في الأرض، فقد خلقه الله من طين أو من صلصال بجهن حما مسنون، ومن نفحة من روح الله عز وجل، فإذا غابت نفحة الروح عليه ارتقى ولحق بأفق الملائكة، وربما فاق بعضهم. وإذا غالبَ عنصر الطين، نزل إلى حضيض الأنعام، وربما كان أضل منها سبيلاً.

## تلوث الماء:

ومن إفساد الإنسان هنا: أنه لوث بصنعه الماء الذي خلقه الله طهوراً.  
فكيف حدث ذلك؟

أصل المياه العذبة من الأمطار التي تتحول إلى أنهار وبحيرات وغدران، بالإضافة إلى الأنهار المتجمدة في شمال الكورة الأرضية، وجبال الجليد الموجودة في القطبين، والأبار والعيون في جوف الأرض. والأنهار هي المورد الرئيس للمياه العذبة، حيث يعتمد كثير من البشر عليها في أغراض الزراعة والتصنيع وتوفير مياه الشرب والنظافة.

## بماذا يتلوث الماء؟<sup>٩</sup>

يتلوث الماء بكل ما يفسد خصائصه، أو يغير من طبيعته.

وتلوث الماء من أوائل الموضوعات التي اهتم بها العلماء والمتخصصون في مجال حماية البيئة. وليس من الغريب إذن أن يكون حجم الدراسات التي تناولت هذا الموضوع أكبر من حجم الدراسات الأخرى التي تناولت باقي فروع التلوث.

ويعرف تلوث الماء بأنه (إحداث تلف أو إفساد لنوعية المياه، مما يؤدي إلى حدوث خلل في نظامها الأيكولوجي بصورة أو بأخرى، بما يقلل من قدرتها على أداء دورها الطبيعي، بل تصبح ضارة مؤذية عند استعمالها، أو تفقد الكثير من قيمتها الاقتصادية، وبصفة خاصة مواردها من الأسماك والآحياء المائية).

وبعبارة أخرى، فإن المقصود بتلوث الماء، هو «تدنيس مجاري الماء من أنهار وبحار ومحيطات، إضافة إلى مياه الأمطار والمياه الجوفية، مما يجعل من هذه المياه غير صالحة للإنسان أو الحيوان أو النبات أو الأحياء التي تعيش في المسطحات المائية».

وهناك عدة صور لتلوث الماء، منها:

- ١- استنزاف كميات كبيرة من الأكسجين الذائب في مياه المحيطات والبحار والبحيرات والأنهار، مما يؤدي إلى تناقص أعداد الأحياء المائية.
- ٢- زيادة نسبة المواد الكيميائية في المياه، مما يجعلها سامة للأحياء. وثمة أنهار كانت أن تكون خالية من مظاهر الحياة بسبب ارتفاع تركيز الملوثات الكيميائية فيها.
- ٣- ازدهار ونمو البكتيريا والطفيليات والأحياء الدقيقة في المياه، مما يقلل من قيمتها كمصدر للشرب أو رمي المحاصيل الزراعية (إذا كانت عذبة) أو السباحة والترفيه.
- ٤- قلة الضوء الذي يعد ضرورياً لنمو الأحياء النباتية المائية ( كالطحالب والعلوائق Planktons).

ويتلوث الماء عن طريق المخلفات الإنسانية أو النباتية أو الحيوانية أو المعدنية أو الصناعية أو الكيميائية التي تُلقى أو تصب في المسطحات المائية من محيطات وبحار وبحيرات وأنهار. كما يتلوث المياه الجوفية نتيجة لتسرب مياه المجاري ومياه التصريف إليها بما فيها من بكتيريا ومركبات كيميائية.

ويُمكن تقسيم تلوث الماء إلى أربعة أنواع رئيسية: التلوث الطبيعي، والتلوث الكيميائي، والتلوث البيولوجي، والتلوث الحراري. ولكل منها أسبابه وأثاره. لا يتسع المجال للحديث عنها.

#### أهم ملوثات الماء:

##### ١- المخلفات الصناعية:

تشمل المخلفات الصناعية جميع المواد المتخلفة عن الصناعات الكيميائية والتعدينية والتحويلية والزراعية والغذائية، التي يتم تصريفها إلى المسطحات المائية، والتي تؤدي إلى تلوث الماء بالأحماض والقلويات والأصباغ

والمركبات الهيدروكربونية والأملاح السامة والدهون والدم والبكتيريا  
.... إلخ .

## ٢- مياه المجاري:

فتشمل دول كثيرة تقوم بتصرف مياه المجاري إلى المسطحات المائية كالأنهار والبحار والبحيرات، على الرغم مما في ذلك من أخطار، حيث تكون هذه المياه ملوثة بالمواد العضوية، والمواد الكيميائية (الصابون والمنظفات الصناعية)، وببعض أنواع البكتيريا والميكروبيات الضارة، إضافة إلى المعادن الثقيلة السامة، والمركبات الهيدروكربونية.

ويتم انتقال الكثير من الأمراض الخطيرة بواسطة مياه المجاري التي يتم تسريبها إلى المسطحات المائية دون معالجة، حيث تحتوي هذه المياه على كل مسببات نقل الأمراض إلى الإنسان، مثل البكتيريا والفيروسات والطفيليات القولونية والبروتوزوا. وتنتقل هذه الأحياء الدقيقة المسببة للأمراض إلى الإنسان، عن طريق الجلد والجروح والفم، عند الاستحمام أو السباحة في المياه الملوثة، أو عند تناول الأسماك الكائنة البحرية المصابة بهذه الأحياء الدقيقة المرضية.

## ٣- النفط:

يعد النفط من أكثر مصادر التلوث المائي انتشاراً وتأثيراً. وهو يتسرّب إلى المسطحات المائية إما بطريقة لا إرادية (غير متعمدة)، كما هي الحال في انفجار آبار النفط البحرية، أو بطريقة متعمدة كما حدث في حرب الخليج، ومن قبل في الحرب العراقية الإيرانية. كما تعمد بعض الناقلات البحرية إلقاء المياه المستعملة في غسيل خزاناتها في أعلى البحار، أو قبالة سواحل بعض الدول التي ليست لديها تشريعات قانونية لحماية بيئتها البحرية ومياهها الإقليمية. ويؤدي تلوث المسطحات المائية بالنفط إلى موت طيور البحر والأسماك والدلافين والأحياء المائية الأخرى .

#### ٤- المبيدات الخشبية:

تنسب المبيدات الخشبية - التي ترش على المحاصيل الزراعية - مع مياه الصرف إلى المصارف . كما تتلوث مياه الترع والقنوات التي تغسل فيها معدات الرش وآلاته بهذه المبيدات . ويؤدي ذلك إلى قتل الأسماك والأحياء المائية ، وأيضاً نفوق الماشي والأنعام التي تشرب من المياه الملوثة بهذه المبيدات .

#### ٥- المفاعلات النووية:

تتسبب المفاعلات النووية في التلوث الحراري لمياه المسطحات المائية ، وذلك حينما يتم تصريف المياه المستعملة في تبريد هذه المفاعلات - إلى هذه المسطحات . ويؤدي ذلك إلى إلحاق أضرار كبيرة بالأحياء المائية ، مع احتمال حدوث تلوث إشعاعي للمياه .

#### ٦- المواد البلاستيكية:

كما يؤدي إلقاء المواد البلاستيكية في المسطحات المائية إلى قتل الأسماك والطيور والثدييات البحرية ، أو إلحاق الضرر بها . فصغار السلاحف البحرية - على سبيل المثال - تلتهم أكياس البلاستيك العائمة ، ظنا منها أنها قناديل البحر التي تشكل وجبات لذبحة لها ، ومن ثم تموت نتيجة انسداد أمعائها بهذه الأكياس البلاستيكية المستعملة في أدوات صيد الأسماك ، مما يتسبب في موتها شنقاً بهذه الخيوط .

وتخدع حبيبات اللدائن - التي تستعمل كمادة أولية في صناعة منتجات البلاستيك - الطيور البحرية حينما ترى هذه الحبيبات طافية فوق سطح الماء ، فتظنها بيض سمك طافيا فتلقطها ، وتتجمع تلك الحبيبات في أمعائها وتقودها إلى الموت البطيء . والأمر المزعج في مشكلة التلوث المائي بالبلاستيك هو أن هذه المواد لا تتحلل في الماء ، ومن ثم تظل ، بشكل عام ، مصدراً خطيراً على الأحياء المائية .

#### ٧- الرصاص:

وتعرض المسطحات المائية للتلوث بالرصاص نتيجة لغرق السفن التي تحمل متجانسات كيميائية يدخل الرصاص في تكوينها، أو عندما تلقي بعض المعامل الكيميائية - المطلة على هذه المسطحات - نفاياتها وفضلاتها إلى المياه البحرية.

وتقوم التيارات المائية بدور كبير في نقل المياه الملوثة بالرصاص من مكان إلى آخر. ويتركز الرصاص في الأنسجة اللحمية للأسمك والأحياء المائية، ومنها يتنتقل إلى الإنسان، مؤدياً بذلك إلى حوادث التسمم بالرصاص التي تسبب الموت البطيء، وهلاك خلايا المخ.

ومن أكثر المسطحات المائية تلوثاً بالرصاص: المحيط الأطلنطي. وقد ارتفعت نسبة الرصاص في مياه الناحية الشمالية منه خمس مرات في غضون الأعوام الخمسين الأخيرة، ولا يقتصر التلوث على المياه السطحية، بل يشمل مياه الأعماق. وكذلك البحر الأبيض المتوسط، حتى كتب بعض الباحثين في البيئة فصلاً تحت عنوان (البحر الأبيض يموت).

#### ٨- الزئبق:

ومن الملوثات المعروفة: الزئبق، وهو في حالته العنصرية غير قابل للذوبان في الماء، ولكنه في حالته المتأينة يمكن أن يدخل في تركيب المركبات السائلة، التي تصرف ضمن مياه الصرف الناتجة عن المصانع الكيميائية إلى البيئة البحرية أو النهرية، أو غير ذلك من المسطحات المائية الأخرى.

ومن أهم المصادر الملوثة للمياه بعنصر الزئبق ما يلي:

أ- المخلفات الصناعية (كيماويات- بتروكيماويات- معادن... إلخ).

ب- محططات تقظير المياه.

ج- المخلفات والنفايات.

د- مياه الصرف الزراعية.

هـ- مصانع إنشاء السفن ومخلفاتها.

وـ- المياه المستخدمة في استخراج المعادن.

زـ- مخلفات مياه المجاري.

ولقد قدرت كمية الزئبق الناتجة عن المخلفات الصناعية بـ ١٢,٥٠٠ طن زئبق/ سنوياً، وتعد الزيوت والمبيدات المستخدمة لمكافحة الفطريات -Fungi- وأنواع أخرى من الفطريات الغروية *Silmicides* من أخطر المصادر الملوثة للبيئة البحرية بعنصر الزئبق.

ويتضح خطير الزئبق في أنه يتنقل خلال سلسلة الغذاء من النباتات أو الأسماك إلى الثدييات والبشر.

والزئبق يهاجم خلايا المخ والجسم ويقتلها، ولا يوجد علاج حقيقي لحالات التسمم الناتجة عن الزئبق.

#### ٩ - الكادميوم:

يستخدم الكادميوم في صناعة الزنك، وأصباغ المواد البلاستيكية، والدهانات. كما يستخدم في طلاء الخزف، وفي عدد من الصناعات الكيميائية والتحويلية.

وحينما يتم تصريف النفايات الصناعية المحتوية على الكادميوم إلى المسطحات المائية، يمكن أن يتجمع هذا العنصر السام في أنسجة الأحياء المائية، ومن ثم يتنتقل إلى الإنسان عند تناوله الأغذية المحتوية على هذه الأحياء.

وقد زادت نسبة تلوث المسطحات المائية بالكادميوم في السنوات الأخيرة.

ويتسبب التسمم بالكادميوم في إحداث تغيير في تركيب الدم، وفي تقليل حجم المصابين بهذا التسمم، نظراً لأنه يهاجم العظام و يؤدي إلى قصر طولها.

### **تلوث مياه الأمطار**

تلوث الأمطار - وبخاصة في المناطق الصناعية - لأنها تجتمع في أثناء سقوطها من السماء كل الملوثات الموجودة بالهواء، مثل أكاسيد التتروجين وأكاسيد الكبريت وذرات التراب.

وتذوب الملوثات الغازية التي تنفثها المصانع الحديثة في مياه الأمطار أثناء سقوطها ، مما يؤدي إلى تلوث المسطحات المائية والترية التي تتسلط عليها هذه المياه.

### **تلوث المياه الجوفية:**

تلوث المياه الجوفية بجميع المواد الكيميائية التي تسرب إلى أماكن وجود مكامن هذه المياه . كما تلوث أيضاً بفعل تسرب مياه المجاري ، أو تسلل مياه الأمطار الحمضية إلى الطبقات الجيولوجية تحت سطحية للقشرة الأرضية.

ويمكن أن تلوث المياه الجوفية ببعض المعادن والأملاح التي تكون في صخور الطبقات الخامدة لهذه المياه<sup>(١)</sup>.

### **امتداد هذا التلوث:**

على أن تلوث الماء لا يقتصر عليه وحده ، بل ترى هذا التلوث الخطير أثر في كثير من عناصر البيئة . فقد أثر في التربة التي تسقى بالماء ، وبالتالي أثر في الأشجار والزرع التي تشرب الماء ، وتتغذى من التربة ، وأثر بطبيعة الحال في الغذاء ، الذي يعيش به الإنسان والحيوان ، فهي دورة متصلة ، وحلقة مفرغة لا يدرى أين طرفاها .

---

(١) اعتمدنا في هذا الموضوع على كتاب (البيئة مشاكلها وقضاياها) للمهندس محمد عبد القادر الفقي ص ٦٩ - ٥٢

## كيف نحمي الماء من التلوث؟

هناك عدة وسائل وأساليب يمكن استعمالها في مكافحة تلوث المياه، مثل :

١- معالجة مياه المجاري قبل تصريفها إلى المصطحات المائية .

٢- استعمال الوسائل الميكانيكية لتجمیع النفط الطافی فوق المصطحات المائية .

٣- تطهیر مياه الشرب ، باستعمال الأوزون أو الكلور أو الأشعة فوق البنفسجية .

٤- التخلص من الطحالب والنباتات المائية الملوثة لمياه الأنهر بالوسائل الميكانيكية .

٥- معالجة مخلفات المصانع قبل تسربها إلى المصطحات المائية .

غير أن الوسيلة المثلثة لحماية الماء من التلوث هي تجنب إلقاء الملوثات فيه .

والإسلام بلا ريب يبارك هذه الوسائل ، ويرحب بكل وسيلة جديدة يبتكرها البشر لحماية الماء من التلوث ، أو لعلاج ما وقع منه ، فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وهو - من غير شك - يحرم تعمد إلقاء الملوثات في الماء ، لما يترب علىها من ضرر لملقيها ذاته ، ولغيره من الناس ، وقد حرم الإسلام الضرار والضرار .

ومن ناحية أخرى نرى أن إلقاء هذه الملوثات لون من الإفساد في الأرض ، الذي نهى عنه القرآن في آيات كثيرة . وقد قال تعالى في قصة موسى : ﴿ وَإِذْ أَسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشَرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أَنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُّهُمْ وَأَشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (البقرة: ٦٠) .

فقد أمرهم الله تعالى أن يتتفعوا بهذا الماء المتفجر من العيون ، فيشربوا منه ، ويأكلوا مما أنبت الله من زرع وثمر ، ولا يعثروا في الأرض مفسدين .

ولقد ذكرنا من قبل في حديثنا عن (النظافة والتطهير) ما ورد من نهي عن البول في الماء الراكد، أو الماء الجاري، وعن التبرز في الماء وفي الظل وفي الطريق، وعن كل ما يؤذى الناس ويلوث بيتهما، فليرجع إليه.

### تلوث الهواء

الهواء هو هذا المخلوط الغازي الذي يلا جو الأرض، ويحيط بها من كل جانب، بما في ذلك بخار الماء.

وقد كان فلاسفة اليونان قد يأذن لهم أخذ الفلاسفة المسلمين. يعتقدون أن الهواء هو واحد من (العناصر الأربعة) التي يقوم عليها الكون كله. وهي التراب والماء والهواء والنار، وكان هذا من الحقائق العلمية الثابتة عندهم بمقاييس زمانهم، وحسب معارفهم المسألة.

فلما كانت النهضة العلمية الحديثة تبين أن هذه الأشياء التي ظنواها عناصر بسيطة إنما هي مركبات من عناصر شتى.

فالماء مركب من الأكسجين والهيدروجين، والتراب مركب من بضعة عشر عنصرا، والهواء مركب من نحو مائة عنصر، أهمها عنصران رئيسيان، هما: التتروجين ويمثل نحو ٠٨٤٪ منه، والأكسجين ويمثل ٩٤٦٪ منه. والواحد في المائة عناصر أخرى تكون نسبا ضئيلة في تكوين كتلة الهواء.

ومن المعروف أن غاز التتروجين غاز خامل، بخلاف الأكسجين فهو غاز نشيط كيمائيا، وهو غاز في غاية الأهمية، لحاجة الإنسان والكائنات الحية إليه، التي يدخل في تكوين خلاياها الحية، وبنسبة تبلغ ربع مجموع الذرات الداخلة في تركيبها.

ومن التقدير الإلهي لهذا الكون: أن جعل التتروجين. وهو الغاز الخامل. نحو ٠٧٨٪ من الهواء، إذ لو كانت نسبته أقل، ثم سقطت شرارة كهربائية من

الفضاء الخارجي نحو الأرض (وهو ما يحدث أحياناً) لا يحرق كل شيء على سطح الأرض<sup>(١)</sup>.

ويقدر عمق الهواء بما لا يقل عن (٦٠) كيلومتر، ويحتاج الفرد منه في اليوم إلى ١٥ كيلوجرام في اليوم، لاحتواه على غازات مهمة، أهمها الأكسجين اللازم لعملية التنفس، والذي بدونه لا تستمر الحياة سوى دقائق معدودة. على حين يمكن للإنسان أن يعيش أياماً طويلة بلا غذاء أو ماء، لقلة حاجته إليهما بالنسبة للهواء، إذ يحتاج إلى ١,٥ كيلوجرام من الطعام في اليوم، وإلى ٣,٥ كيلوجرام من الماء<sup>(٢)</sup>.

والناظر في القرآن لا يجد كلمة (الهواء) مذكورة فيه ، إلا ما ورد منكراً في قوله تعالى في شأن الظالمين يوم القيمة : ﴿وَأَفْنَدْتُهُمْ هَوَاءً﴾ (ابراهيم: ٤٣) ومعنى كلمة هواء هنا : أي خلاء . أي خالية من العقل والتفكير ، لف्रط الحيرة والدهشة .

ولكن الذي ذكر في القرآن بدليلاً عن الهواء : كلمة (الريح) مفردة ومجموعة (الرياح) وقد ذكرت (٢٧) سبعاً وعشرين مرة . والمقصود بها : الهواء المتحرك في الطبقات المحيطة بالأرض .

وهذه الريح هي التي تسوق السحاب أو تحمله ، حتى ينزل مطرًا يحيي الله به الأرض بعد موتها ، كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيِ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلَنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجَنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الْثُمَرَاتِ﴾ (الأعراف: ٥٧).

ومن فوائد الرياح أنها تساعد على حركة السفن الشراعية ، لتجري في البحر بأمر الله ، ليستغى الناس من فضله ولعلهم يشكرون . وللرياح دور في إحداث التيارات المائية التي تؤدي إلى توزيع الكائنات الحية في الوسط المائي .

(١) انظر : البيئة : مشاكلها وقضاياها ص ٣٤ .

(٢) انظر : البيئة والتلوث لخالد محمود عبد اللطيف ص ٢٩ .

كما أن لها دورا في انتقال وتوزيع وهجرة أنواع كثيرة من الطيور والحشرات. وفي الحياة النباتية تقوم الرياح بدور مهم في نقل اللقاح، مما يؤثر في عملية الإخصاب، ونشر النباتات وتوزيعها<sup>(١)</sup>.

وفي القرآن إشارة إلى ذلك في قوله تعالى: «وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لِوَاقِحِ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ» (الحجر: ٢٢).

ولكن الريح قد تضر وتؤدي إذا كانت عاصفة، وقد تكون أدلة من أدوات العقاب الإلهي للناس إذا ظلموا، أو على الأقل مذكرة لهم، كما قال تعالى: «هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحْيَطُ بِهِمْ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنْكُونُنَا مِنَ الشَّاكِرِينَ» (يوحنا: ٢٢).

وقال تعالى في شأن المشركين: «مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمُثَلُ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرَثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمُهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ» (آل عمران: ١١٧).

وقد أهلك الله (عادا) بالرياح حين كفروا واستكبروا في الأرض بغير الحق، وقالوا: من أشد منا قوة؟ «وَفِي عَادٍ إِذَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيَاحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُّ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتُهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾» (الذاريات: ٤١، ٤٢).

وقت تشتد الريح وتهيج في بعض الأحيان، وقد تحمل الغبار أو السخونة، فيتأذى منها بعض الناس، ويسبونها، ناسين أنها مسخرة بأمر الله. وماضية وفق سنته التي لا تتبدل.

(١) انظر: قضايا البيئة من منظور إسلامي لعبد المجيد النجار، نقلًا عن (علم البيئة) لعلياء حاتوخ ومحمد حمدان ص ٩٢.

ومن هنا جاء نهي رسولنا صلى الله عليه وسلم عن سب الريح في أكثر من حديث ، منها : «لا تسبوا الريح ، فإنها من روح الله تعالى ، تأتي بالرحمة والعذاب ، ولكن سلوا الله من خيرها ، وتعوذوا بالله من شرها»<sup>(١)</sup> . ومعنى أنها من روح الله : أنها من رحمته التي يريح بها عباده .

وفي حديث آخر : «لا تسبوا الريح ، فإذا رأيتم ما تكرهون ، فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح ، وخير ما فيها ، وخير ما أمرت به ، ونعوذ بك من شر هذه الريح ، وشر ما فيها ، وشر ما أمرت به»<sup>(٢)</sup> .

ومن الشر الذي يمكن أن تأتي به الريح في عصرنا ، ويتعود بالله منه : نقل الملوثات من قطر إلى آخر ، بل من قارة إلى أخرى ، وبخاصة الموجات الإشعاعية ، كما حدث في المفاعل النووي السوفياتي (تشيرنوبيل) وانتشار خطره إلى مساحة واسعة من العالم بواسطة الرياح .

إن نعمة الهواء نعمة عظيمة ، وعلى الإنسان أن يتعامل معها بما يليق بها من الشكر لمنحها تبارك وتعالى ، بحيث لا يلوث هذا الهواء ولا يفسده ، فيضر نفسه ، ويضر غيره من خلق الله .

ولكن الذي يؤسف له أن الإنسان غلبته الأنانية وحب العاجلة ، وشهوة الاستمتاع ، فأساء إلى نعمة الهواء ، كما أساء إلى غيرها ، وحدث التلوث الذي أصبح بلية العصر .

(١) رواه أحمد عن أبي هريرة في ثلاثة مواضع من المسند (٥١٨، ٤٠٩، ٢٦٨) وابن ماجه في الأدب (٣٧٢٧) وذكره في صحيح البخاري الصغير (٧٣١٦) .

(٢) رواه الترمذى عن أبي بن كعب في الفتن (٢٢٥٣) وقال : حسن صحيح . قال : وفي الباب عن عائشة وأبي هريرة وعثمان بن أبي العاص وأنس وابن عباس وجابر . والحديث رواه أحمد (٥/١٢٣) والبخاري في الأدب المفرد (٧١٩) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٩٣٣) بتحقيق فاروق حمادة . مؤسسة الرسالة . بيروت . وفيه (ما أرسلت به) بدل (ما أمرت به) ونقل عن ابن عباس قوله : الرياح ثمانية : أربع للرحمة : المبشرات والمثيرات والمرسلات والرخاء . وأربع للعذاب : العاصف والقاصف ، وهما في البحر ، والصحر والغيم وهما في البر . وقال عبيد بن عمر : يبعث الله ريحًا ، فتقم الأرض (تكسرها) ثم يبعث الله المثيرة ، تثير السحاب ، ثم يبعث المؤلفة فتؤلله ، ثم يبعث الواقع فتلتف الشجر . . . وهذا التفصيل والتشقيق مقتبس من القرآن الكريم ، كما هو ظاهر لمن تأمل الآيات الكريمة .

## كيف يتلوث الهواء؟

يعتبر تلوث الهواء من أعظم أخطار البيئة في الوقت الحاضر، ولذا عظم الاهتمام به، ويطلق تعبير التلوث عند تغير صفات الهواء الفيزيائية أو الكيميائية . . أي عندما يحمل الهواء أي مادة أو عنصر غريب لا يوجد في مكونات الهواء النظيف الجاف . أو يكون بنسبة زائدة عن الحد الطبيعي ، ولكن قل أن يخلو الهواء الذي نستنشقه من تلوث عارض بغازات أو مواد سائلة أو صلبة ، وقد يكون بينها كائنات حية .

ومصادر هذا التلوث إما أن تكون طبيعية ، وإما أن تكون مصادر صناعية ناجمة عن عمل الإنسان ونشاطه الصناعي .

### (١) تلوث الهواء من مصادر طبيعية:

أي ما يلوث الهواء مما لا دخل لعمل الإنسان فيه ، ويتضمن :

- (أ) بخار الماء في شكل ذرات دقيقة من الماء تدعى الضباب (Fog).
- (ب) الغبار (Dust) وفيه ذرات معدنية وترابية ومواد من منشأ حيواني ونباتي ، بما في ذلك غبار الطلع.
- (ج) البكتيريا والفطريات وجراثيمها.
- (د) الأملاح «الناجمة عن رذاد البحار والمحيطات» .
- (هـ) مركبات مروحة ناجمة عن التنفسات الحيوانية والنباتية قد تؤدي إلى تكوين روائح كريهة مزعجة .
- (و) نواتج الاحتراق ذات المنشأ الطبيعي «حرائق الغابات ، ثوران البراكين . . إلخ» .
- (ز) مواد ناشطة الإشعاع Radio Active .

ومن المحتمل كذلك أن تزداد مستويات الإشعاعات الفعالة الطبيعية كلما

ازداد سطح الأرض اضطراباً بمخلفات الإنسان وأعماله التي تزيد على حدودها ومؤلفها الطبيعي، ومن المحتمل ألا يكون مثل هذه المصادر الطبيعية لتلوث الهواء سوى أثر زهيد ودور محدود في أمراض البشر، عدا العوامل الميكروبية المرضية التي يمكن أن تحدث زيادة ملحوظة في نسبة الأمراض إثر بعض العوادص، وهي التي تحدث الأمراض السارية بالهواء، إذ إن الميكروبيات أو المادة المعدية إما أن توجد في الهواء في شكل ذرات دقيقة صادرة مباشرة عن منبع في شكل قطرات، وإما أن توجد في الغبار وتستنشق عند إثارته، حاملة معها العامل الإنثاني، وهذه القطرات أو الأبخنة الحاملة للميكروب تصل إلى الطرق التنفسية العلوية للسليم لتحدث المرض. هذا المرض الذي يختلف عن الذي يتنتقل بالماء والغذاء بأن حلقة السريان بين مصدر الجماع وبين متلقيه لا يمكن فصلها بسهولة، مما يجعل مكافحة الأمراض الإنثانية السارية بالهواء صعبة نوعاً ما، وتعتمد بشكل رئيسي على زيادة مقاومة الشخص السليم بإجراء التمنيع ضد هذه الأمراض.

#### (٢) مصادر من صنع الإنسان:

أهم مصدر مألف لتوث الهواء وفساده من صنع الإنسان هو نواتج الاحتراق، وقد ينجم هذا التلوث عن البيوت أو المواصلات كالسيارات والقطارات والدراجات أو عن المصانع، وهي مهمة جداً في الأقطار العربية، وذلك لعدم التقيد بتطبيق الشروط الخاصة بها ولدخول صناعات جديدة للأقطار لا قبل لها بها، وينتظر - كما يتمنى البعض - أن تزداد باضطراد كثافة هذه المواد الملوثة في المستقبل في المناطق الصناعية والمجتمعات المدنية، حتى يطرأ تبدل في السيطرة على نواتج الاحتراق أو تغيير وسائلها.

ولقد ثبت وجود أكثر من مائة مادة من نواتج الاحتراق يمكن ذكرها، أهمها:

- ١ - مركبات الكبريت: كثنائي أكسيد الكبريت وكبريتيد الهيدروجين.
- ٢ - مركبات الفلور.

٣- أكسيد الأزوت .

٤- أول أكسيد الكربون .

٥- الألدهيدات وبعض الفحوم الهيدروجينية «الأيدروكربونات» .

#### التلوث بالأدخنة الضارة:

ومن ملوثات الهواء : انتشار الأدخنة التي تظهر من المصانع وغيرها . وأشدّها خطراً : الأدخنة الملوثة بالإشعاع ، مثل إشعاع اليورانيوم ، ولا سيما ما يسمونه (اليورانيوم المنصب) والذي يستعمل في الحروب ، وقد استعمله الأميركيان في حرب الخليج ، وخلفوا آثاراً شديدة الخطير ، عميقـة الأثر ، شديدة الفتـك بالبشر .

وفي القرآن الكريم سورة تسمى (سورة الدخان) وفيها يحذر القرآن من دخان ينتظر الناس ، يحمل العذاب الأليم ، ويرد الناس إلى فطرتهم ، فيعودون إلى ربهم داعين مستغيثين ، شأن الإنسان إذا مسه الضرب دعا ربـه منيـباً إليه ، حتى إذا كشف عنه الضرب نسي ما كان يدعـو إليه من قبل .

تقول سورة الدخان : ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾١٠﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾١١﴿رَبَّنَا اكْشَفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾١٢﴿أَتَيْ لَهُمُ الذَّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾١٣﴿ثُمَّ تَوَلَّوْ عَنْهُ وَقَالُوا مُعْلَمٌ مَّجْتَنُونٌ ﴾١٤﴿إِنَّا كَافَرْنَا بِالْعَدَابِ قَلِيلًا إِنْكُمْ عَائِدُونَ ﴾١٥﴿يَوْمَ تَبْطِيشُ الْبَطْشَةُ الْكَبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴾١٦﴾ (الدخان: ١٠-١٦).

وقد فسر سيدنا عبد الله بن مسعود أن هذا الدخان قد وقع ، وأنه لون من ضبابية الرؤية أصابـت الناس من الجهد والجوع والقحط الذي أصابـ أهل مكة من المشركـين ، بسببـ دعـوةـ الرسـولـ عليهمـ أنـ يـبتـليـهمـ بـسنـينـ كـسـنيـ يوسفـ . وـحدـيـثـ ابنـ مـسـعـودـ مـخـرـجـ فـيـ الصـحـيـحـينـ (١)ـ .

(١) انظر : تفسير ابن كثير (٤/١٣٨) طبعة عيسى الحلبي .

ولا مانع أن يراد هذا من الآية، ولكن ليس هذا هو المعنى الوحيد لها، وإنما كانت الآية قد فقدها مدلولها بما وقع لقريش، ولم تعد تعني أحداً اليوم. الواقع أن البشرية تعاني اليوم - وقد تعاني جداً أكثر وأكثر - من هذا الدخان المبين الذي يغشى الناس، ويقولون: هذا عذاب أليم. ويقول كثير منهم: ربنا أكشف عننا العذاب إننا مؤمنون.

وقد روى مسلم في صحيحه أن هناك عشر علامات تظهر قبل قيام الساعة منها: الدخان<sup>(١)</sup>.

ولعل ما نراه ونحسه ونلمسه في حياتنا المعاصرة من الأدخنة المختلفة، هو نوع من هذا (الدخان المبين) كما وصفه القرآن الكريم.

#### أثر تلوث الهواء:

يختلف تأثير الهواء باختلاف حجم الذرات العالقة فيه، فالذرات الكبيرة والتي ما فوق «٣٠٠٠» ميكرون الدقيقة المنتشرة في الجو المحيط بالناس - والتي تتضمن الدخان - تضعف من الرؤية، وتؤدي إلى اتساخ الشباب السريع، وتراكم السناج على الأبنية والسطح المكشوفة، بالإضافة إلى ما تسببه من روح الكآبة النفسية في الجماهير، وهي التي تلفت انتباها الجماهير. وتكون هذه الذرات التي هي أصغر حجماً من ميكرون واحد، فإنها تبقى معلقة في الهواء، ولا تسقط من ذاتها. بل تحتاج إزالتها إلى الترشيح أو الترسيب، وهي التي تصل للأجهزة التنفسية العميقية، وتحدث الأمراض المزمنة فيها، وتتناسب كثافة الذرات اضطراداً مع عدد مصادر تلوث المجتمع وشدتتها، ويمكن إجمالاً أثر تلوث الهواء على الصحة العامة فيما يلي:

- ١- إنفاس كميات الأشعة ما فوق البنفسجية الواقية لمستوى الأرض.
- ٢- إنفاس كميات الإضاءة الطبيعية.

(١) رواه مسلم من حديث حديثة بن أبي سعيد الخنافسي. المصدر السابق.

- ٣- زيادة الضباب المحتوي على كميات كبيرة من مواد صناعية كبريتية وغيرها، تكون خطيرة على الصحة.
- ٤- تأثير مثبط على النباتات الطبيعية ومخرب للمصانع والأنبنة.
- ٥- ازدياد تكلفة المحروقات «العدم حدوث الاحتراق الكامل».
- ٦- ازدياد نسبة المواد المسرطنة في الهواء.
- ٧- ازدياد نسبة الإصابة والوفيات بالأمراض التنفسية<sup>(١)</sup>.

### **تلويث تربة الأرض:**

الأرض: هي هذا الكوكب الذي نعيش على ظهره، بما فيه من يابسة وبحار ومحيطات تكون نحو ٧٠٪ منها، وما عليها من جبال راسيات، وما في جوفها من حمم وطبقات، وما يتصل بها من الغلاف الغازي، وما تشتمل عليه تربتها من صحاري قاحلة، ومن مساحات خضراء. وما تحويه من كائنات حية، عاقلة أو غير عاقلة.

وقد ذكرت كلمة (الأرض) في القرآن (٤٥٠) أربعينات وخمسين مرة، معرفة بالألف واللام، يراد بها في معظمها (ما يقابل السماء). وفي بعض المواضع يراد بها جزء من الأرض، كما جاء في قصة يوسف: «اجعلني على خزائن الأرض» (يوسف: ٥٥).

وقد يراد بها أرض الجنة «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَيَعْمَلُ أَجْرُ الْعَامِلِينَ» (الزمر: ٧٤).

وفي آية واحدة ذكرت (الأرض) مصدراً من (أرض) ي الأرض. كما في قصة سليمان «فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَأْبَةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْ سَأَنَّهُ» (سبأ: ١٤).

---

(١) انظر: البيئة والتلوث من منظور إسلامي سالم محمد عبد اللطيف ص ٢٩ - ٣١ بتصريف. نشر دار الصحورة بالقاهرة.

وكثيراً ما تذكر الأرض في القرآن في معرض الامتنان والإنعام من الله تعالى، كقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَاشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾ (البقرة: ٢٢) ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ (النَّبَا: ٦) ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ <sup>٣٠</sup> أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا <sup>٣١</sup> ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ <sup>٣٢</sup> مَتَاعًا لَكُمْ وَلَا نَعَمِكُمْ <sup>٣٣</sup>﴾ (النَّازُعَاتِ: ٣٠ - ٣٣) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلْلًا﴾ (الملك: ١٥).

ولقد هيأ الله عز وجل تربة الأرض لمنفعة الإنسان، فهي صالحة للزراعة والإنبات، وهي صالحة للسير والحركة عليها، وهي صالحة للإقامة والاستقرار في ريوها. وهذا معنى الامتنان بجعلها فراشاً ومهاداً ويساطاً وذولاً.

وبهذا نرى أن الأرض - كما خلقها الله - صالحة طيبة، وإنما يدخل عليها الفساد والخبث والتلوث على يد الإنسان الذي استخلفه الله فيها، فلم يرع - في أحيان كثيرة - أمانة الاستخلاف، وعاش في الأرض فساداً، فلوثها بعد طهر، وأفسدها بعد صلاح. وخصوصاً في عصرنا هذا، وفي العقود الأخيرة منه، فقد تضاعف التلوث والفساد.

فمن أي شيء كان التلوث في تربة الأرض؟

التلوث بالفضلات الصلبة:

لم تكن التربة ملوثة بحكم الخلة، فقد خلقها الله طيبة لا تلوث فيها، وإنما لوثرها الإنسان، كما علمنا.

ولم يلوثرها الإنسان بإلقاء مواد عضوية الأصل في البيئة فقط، بل نتيجة للتطور الصناعي الهائل أخذ الإنسان يلقي بمواد لم تكن موجودة أصلاً في الطبيعة، بل تقف الطبيعة عاجزة عن معالجة هذه المواد، فتتراكم لتشكل أكواماً كثيرة جداً تشغل مساحات واسعة من الأراضي اللازمة لإنتاج الغذاء.

### **تلوث التربة بالكيماويات:**

لقد شاع استعمال الأسمدة والمبيدات نتيجة للتكتيف الزراعي ، ومع مزيد الأسف اعتبرت التربة في هذه الحالة كأنها مستودع للأسمدة ولم ينظر إليها كجهاز حي له ردود فعل ، فكثرة الأسمدة الأزوتية والفوسفاتية والبوتاسيه وأضيفت بكميات هائلة ، مما نجم عن تدهور الصفات الكيميائية والفيزيائية لهذه التربة ، وخروجهما من دائرة الإنتاج الزراعي ، إضافة لما تحدثه كثرة هذه المخصبات من آثار سلبية على التربة ، تؤدي أيضاً إلى تلوث الأنهر والبحيرات ، نتيجة إلقاء الكميات الزائدة منها في هذه المسطحات ، وجعل مياه هذه الأنظمة غير صالحة للشرب ، وذلك لكون هذه المادة مسبباً لبعض أنواع السرطانات .

كما تزايد استعمال المبيدات في جميع المجالات وخاصة الزراعية منها وقد أدى رش المبيدات بكثرة على النباتات إلى توضع وتركيز هذه المبيدات في التربة وتأثيرها على الأحياء الدقيقة فيها .

إن الأثر السيئ للمبيدات يكمن في أثراها التفاضلي على الأحياء فتدخل بذلك من التوازن البيولوجي الطبيعي في التربة .

### **تلوث التربة بالمخلفات السائلة:**

إن ري التربة بالماء الملوث بالمخلفات الإنسانية دون معالجة هذه المخلفات ، يؤدي إلى انتشار الجراثيم في التربة ، وانتقال هذه الأحياء إلى الإنسان عند استهلاكه للخضروات ، وبخاصة الورقية منها ، كما يؤدي الري بعثاه المجاري أيضاً إلى تلح التربة على المدى البعيد ، وتهدم بنيتها الفيزيائية ، وذلك بفعل انسداد مسام التربة بالمواد المعلقة الدقيقة .

إن خير مثال على ذلك هو ري أراضي الغوطتين في سوريا بعثاه بردي الملوثة ب مختلف أنواع الملوثات ، والذي يقوم حالياً بدور الكولون .

إن الخطير الأكبر في ري التربة بعثاه المنظفات ومياه المجاري ومخلفات

المصانع وما تلقيه ورش إصلاح السيارات من زيوت ، يكمن في إصابة التربة بالعقم ، وقتل مختلف أشكال الحياة فيها ، إضافة إلى تلوث الماء الجوفي <sup>(١)</sup> .

#### الوسائل المكافحة للتلوث التربة:

- ١ - الوقاية خير من ألف علاج . رحم الله من قالها : لما نخسر الملايين على أمر إذا ابتعدنا عنه لم نخسر إلا القليل ؟ فلذلك أول وسيلة للمكافحة هي الوقاية .
- ٢ - نشر الوعي بين الناس مما يخفف من التكلفة ، ويساعد في عدم تلوث التربة ، لأن المسبب الأول هو الإنسان ، وبالتالي ينبغي ردعه عن رمي فضلاته في قارعة الطريق .
- ٣ - التخطيط وزيادة الاكتشاف ، مما يسمح بتحويل المواد غير المفيدة إلى مواد مفيدة وهذا ما حصل فعلا في مشكلة الأوراق حيث أعيد استخدامها .
- ٤ - إصدار القوانين الصارمة في شأن المخالفين .
- ٥ - استصلاح الأراضي الملحقة عن طريق زراعات النباتات البقولية ، أو غسلها وبالتالي زراعتها .
- ٦ - إجراء الحراثة مما يساعد في تهوية التربة وترطيبها ، كما كان يفعل الفلاحون قديما .
- ٧ - إزالة الأعشاب الضارة ، وإجراء المكافحة الحيوية ، وقتل الأحياء الضارة ، وزيادة الأحياء النافعة .
- ٨ - المحافظة على التوازنات الطبيعية في البيئة : لأن جميع النظم تؤثر بعضها على بعض . فأي خلل في نظام يؤدي إلى خلل الأنظمة ككل .
- ٩ - عدم قطع الأشجار حتى لا يسبب أي ضرر للتربيه في زيادة مساحة الأرضي البور .

(١) انظر : أهم المشكلات البيئية ص ٢٦-٢٧ .

## ١٠- الاعتناء بنظافة المياه الجوفية والسطحية.

وما أصدق وأبلغ هذه الكلمات:

الحياة قصيرة وكلنا ضيوف عليها، فيها حبذا أن نعيشها خالين من الأمراض، أصحاب سليمين. ولا يتم ذلك إلا إذا عرفنا ما هو لنا وما هو علينا: أن نعمل لكي نعيش ويعيش غيرنا، وأن نضع نصب أعيننا أن نفكر قبل أن نعمل، وأن يسبق فكرنا أيدينا، وأن نبني ليعيش أحفادنا لا أن نعيش فقط نحن. يجب عندما نزرع شجرة أن نفكر كم سيدعو أحفادنا لنا، وعندما نقطع شجرة كم سيكون حقدthem علينا<sup>(١)</sup>.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلَا خُوَانِا الَّذِينَ سَقَوْنَا بِالإِيمَانِ﴾ (الحشر: ١٠).

### التلوث بالمبيدات الحشرية:

وهناك أنواع أخرى من التلوث، لها آثار خطيرة على الحياة والأحياء وعلى الإنسان، منها التلوث بالمبيدات الحشرية، التي انتشر استخدامها في الآونة الأخيرة، وجنت على كثير من الحشرات والطيور التي كانت تعتبر صديقة الإنسان، مما تأكل من ديدان الأرض وهوامها.

وأكلت الحشرات من المبيد السام، وأكل هذه الحشرات بعض الطيور الصغيرة، وأكل هذه الطيور الصغيرة بعض الطيور الكبيرة، وهكذا تستمرة الدورة التي يبدأها الإنسان، ولا يعرف نهايتها.

### التلوث بالنفايات:

وهو نوع خطير من التلوث، وخصوصا: النفايات السامة، والنفايات الذرية، التي تريده الدول المتقدمة أن تتخلص منها، فلا تجد إلا البلاد النامية

(١) انظر: أهم مشكلات البيئة في العالم المعاصر لـ محمود أحمد حميد، نشر (دار المعرفة) دمشق ص ١٨١ - ١٨٢.

لتجعلها مدفناً لهذه النفايات ، وهذا محظور دولياً ، ومحظور أخلاقياً ، ولكنه جائز سياسياً في عرف الذين يقولون : إن السياسة لا خلق لها ولا دين ، وإن الغاية تبرر الوسيلة . والحق أن غايتهم خبيثة ، ووسائلتهم أخبث .

وكثيراً ما يرشون بعض الزعماء والحكام بحفنة من الملائين ، حتى يقبل هذه النفايات المدمرة لوطنه ، في غفلة من شعبه ، الذي لا يدرى ما يحاك له ، وما يدبر لهلاك حرثه ونسله .

#### التلوث النفطي :

ومن التلوث المعروف : التلوث النفطي ، وقد جربته بلاد الخليج ، في حربها : الأولى بين العراق وإيران ، والثانية بين العراق والكويت ، التي جرّت إلى حرب مع أمريكا وثلاثين دولة معها .

وقد أدت الحرب بظروفها وويلاتها - عدّا حيناً ، وغير عمد أحياناً - إلى تدفق النفط على مياه الخليج ، فأمات ما أمات من أحياها ، وهدد ما بقي منها ، وأفسدت آبار النفط المحرقه البيئة مدة من الزمن ، ولا يزال لها بقية إلى اليوم<sup>(١)</sup> .

#### التلوث بالقمامة المنزلية :

وهنا مشكلة أخرى في التلوث لا يستهان بها ، وهي تراكم القمامة المنزلية وما أصبحت تنذر به ، ذلك لأن تراكمها وإهمال معالجتها يؤدي بالضرورة إلى انتشار الأوبئة الفتاكـة ، هذا فضلاً عن كون انتشارها وتكدسها يعتبر مظهراً غير حضاري بالمرة ، ولا يقتصر التلوث الناتج عنها على البيئة السطحية ، بل إنه ليمتد إلى باطن الأرض ، وإذا كانت القمامة المنزلية وتكدسها قد أصبحت مشكلة عالمية بكل المقاييس ، فإن التخلص منها بات أمراً باهظ التكلفة ، ففي مدينة «نيويورك» الأمريكية بلغت تكلفة التخلص من طن القمامة ١٥٠ دولاراً

(١) انظر في آثار التلوث النفطي ، والتلوث بالنفايات السامة ، والتلوث بالمخيدلات الحشرية كتاب المهندس محمد عبد القادر الفقي : (البيئة : مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث) .

(نحو ٥٠٠ جنيه مصرى) حتى أصبحت ظاهرة إلقاء هذه المخلفات في عرض البحر خفية وخلوة، حتى في تلك الدول التي ترفع شعارات التقدم، والتي أصبحت تقف الآن في طليعة النظام العالمي الجديد، بعد أن هو قلاع الشيوعية وفلولها، ففي أمريكا لما ضاقت مدافن نفايات القمامات المنزلية عن استيعاب المزيد، تم شحن زورق أمريكي بنحو ٣١٠٠ طن من القمامات المنزلية وبدأ رحلته في ٢٢ من مارس ١٩٨٧ م من أحدى موانئ «نيويورك» ليلقى هذه الحمولة في عرض البحر خلوة وخفية عن أعين الرقباء من البشر !! إنه تصرف صبياني شائن من دولة تريد قيادة العالم في ظل النظام العالمي الجديد، ولكن تقوده إلى أين؟ إن قدر لها أن تقوده فستقوده إلى حيث ألقى ذلك الزورق رحْلَه !! ستقوده إلى مدافن تلك النفايات، وكيف لا وقد ضرب الإفلاس العقائدي في تلك البقاع أطناهه، فلا منهج، ولا أسوة، ولا قدوة حسنة، ويومها تعرف الدنيا أن الله هو الحق المبين.

#### التلوث البيئي في المجالات الصناعية:

وهناك تلوثات أخرى في المجالات الصناعية التي أشار إليها بعض الدارسين، وهي آثار متعددة من مكان إلى آخر، بحكم تقارب العالم.

إذ لا يقتصر الأثر الضار للملوثات على المنطقة التي تستخدم فيها أو تعامل بها، بل إن ذلك ليتمتد إلى المناطق الأخرى المجاورة لها، إما عن طريق الهواء الجوي، أو عن طريق مياه الري والصرف أو هما معاً، مما يكون له أبلغ الأثر في موت الأسماك والطيور، فضلاً عن تلوث أعلاف الحيوان وطعام الإنسان، ولا تعجب - أخي القارئ - إذا ما علمت أن أثر هذه المواد يمتد ليصل إلى البحار والمحيطات، ولقد ثبت بما لا يدع مجالاً لشك أن تعرض الإنسان لبعض هذه الملوثات يسبب إصابته بأمراض خطيرة، بل ومستعصية على الشفاء، كالأمراض السرطانية، ولقد ذكر «فيليب سان مارك» أن لبن النساء الأمريكيةات لا يصلح لرضاع الأطفال، بسبب احتوائه على مادة د. د. ت. بنسبة أعلى من النسبة التي تسمح بها هيئة الصحة العالمية في الولايات المتحدة الأمريكية.

كما أن بعض العقاقير التي تستخدم في مقاومة الطفيليات تصل إلى أجسامنا عن طريق تلوث الغذاء بها، وهي تتركز في الدهون والدم، ولها آثار عميقه ليست معروفة على وجه الدقة والتحديد، كما أن بعض الأمراض السرطانية وأمراض الدم ترجع - جزئياً - إلى امتصاص العقاقير التي تعتبر نسبة السموم فيها باعثة على القلق.

ونحن نقول : إذا كان هذا يحدث في المجتمع الأمريكي الذي تخضع فيه هذه المواد للرقابة الدقيقة ، فضلاً عن استخدامها بمنتهى الحيطة والحذر ، مما بالنسبة بالمجتمعات النامية التي ما صنعت هذه المنتجات خصيصاً لتسويقها وتصريفها في ديار هؤلاء المستضعفين<sup>(١)</sup>.

#### التلوث الإشعاعي

يعتبر التلوث بالمواد المشعة واحداً من أخطر صور التلوث ذات التأثير العالي ، والكل منا سمع عن حادثة تشنريويل ، وما نجم عنها من تلوث إشعاعي ، شمل القسم الأعظم من أوروبا ، حيث ينجم التلوث الإشعاعي نتيجة لتزايد استعمال الإنسان للمواد الإشعاعية ،

إن التعرض الطويل لأشعة الشمس صيفاً يؤدي إلى ما يسمى بضرر الشمس التي كثيراً ما تكون قاتلة ، ويتأتي خطر أشعة الشمس من وجود الأشعة فوق البنفسجية فيها ، والتي تؤدي إذا استعملت بشكل طبي إلى تنشيط وظائف الجلد والدم والغدد ذات الإفراز الداخلي ، حيث يتشكل تحت تأثيرها فيتامين D مما يحسن من ثبوط العظام وغيرها .

إن الأشعة الضوئية هي أشعة كهربائية مغناطيسية ، وكذلك الأشعة فوق البنفسجية هي أيضاً أشعة كهربائية مغناطيسية ، ولكن طول موجتها أقصر من الأشعة المرئية ، وهكذا يزداد خطر الأشعة كلما قصر طول موجتها

---

(١) انظر: البيئة في الفكر الإنساني والواقع الإيجابي للدكتور عبد الحكيم عبد اللطيف الصعيدي ص ٦٠ . ٦٢

فأشعة Roentgen هي أيضاً أشعة كهربائية مغناطيسية وذات موجة قصيرة جداً، حيث أدى استعمالها في الحرب العالمية الأولى إلى موت طبيب راديوولوجي، إضافة للعاهات المختلفة التي أصابت القسم الآخر كالعمق والصلع والحمى.

وللتلوث الإشعاعي مصادر طبيعية ومصادر صناعية تحدث عنها أهل الاختصاص بتفصيل، ينبغي مراجعته في مظانه.

#### التلوث الإشعاعي تلوث خفي:

يستطيع الإنسان بحواسه الخمس أن يدرك التلوث البيئي من حوله سواءً أكان تلوثاً كيميائياً أم ضوائقياً أم التلوث بالإشعاع فهو ما لا تدركه هذه الحواس. ومع ذلك فالضرر المرتبطة به هي من أعلى أضرار التلوث إن لم تكن أعتمادها على الإطلاق.

لقد ارتبط التقدم العلمي والتكنولوجي في زمننا الحديث بالتوجه في الاعتماد على مواد مشعة في مجالات سلمية وعسكرية أما المجالات السلمية ف يتعلق معظمها بتوفير الطاقة والبحث العلمي والأغراض الطبية أما المجالات العسكرية فتتلخص في إنتاج أسلحة الدمار الشامل المعروفة بالأسلحة النووية، والمتبعة للتطور على كوكبنا يستطيع أن يتمنأ يسراً بأن اعتماد الإنسان على المواد المشعة سوف يتناهى مع الزمن رغم كل المحاذير والأنهار التي تنشأ، لا تتعلق فقط بالمجالات العسكرية إنما تشمل أيضاً المجالات السلمية على حد سواء.

#### خطر في الحرب وخطر في السلم:

إلى عهد غير بعيد كان الإستراتيجيون العسكريون في العالم مقتنيين بأن توازن قوى الردع النووي من دول العالم كفيلة بأن يتجنب البشرية أحطاخ الترسانات النووية مرة بعد أخرى ولكن الأحداث ثبتت أن هذه النظرية أقرب

إلى الوهم، وما يدعوه للقلق أن أعداد الحكام حتى لدول العالم الثالث الذين يسيطرون على الأسلحة النووية في تزايد مستمر يحدثنا التاريخ عن حكام جهلاء مغرورين لا يقدرون عواقب قراراتهم حق قدره وهؤلاء قد يجعلون خطر الصراع النووي أكثر احتمالاً مما يتعود المتفائلون. أما في زمن السلم فيكفي أن تقع حادثة مثلاً في أحد المفاعلات النووية التي تستخدم لتوليد الطاقة لكي يتسرّب منها الإشعاع النووي مما يهدد الأحياء المحيطة به.

#### أخطار الإشعاع المتنامي:

يزداد اعتماد الإنسان على المواد المشعة باطراد. ومن المؤكد أن هذا التنامي لن يتوقف في المستقبل المنظور، بل على النقيض من ذلك سوف يتكتّف، ويكتفي النظر في مجال واحد من مجالات استخدام المواد المشعة لكي يتربّسخ الانطباع لدى الرأي بذلك. هذا المجال هو إنتاج الطاقة: تدل الإحصاءات على أن معدل استهلاك الفرد من الطاقة يزداد في شتى أنحاء العالم يوماً بعد يوم، بينما يتضيّب المصدر الأكبر من الطاقة الآن وهو النفط.

ويتفق المعنيون بشئون الطاقة ومصادرها على أن الطاقة النووية هي أنساب البديل لذلك، فالمفاعلات النووية التي تحول الطاقة الإشعاعية إلى كهرباء، أصبحت منتشرة في شتى بقاع العالم، وتزداد أعدادها باستمرار، والآن نجد الدراسات منصبة على توفير الطاقة من مصادر أخرى كالشمس والهواء. لم تبلغ حدة الدراسات في تقديمها ما بلغته الدراسات الخاصة بتوفير الطاقة من المواد المشعة. هناك أمران يشيران معظم مخاوف المعنيين بسلامة البيئة:

١- أن استخدام المواد المشعة من أجل توفير الطاقة سوف تنجم عنه نفايات مشعة يمثل التخلص منها مشكلة معقدة.

٢- أن المفاعلات النووية هي في الواقع براكيـن إشعاعية قابلة للثورة في أي وقت، إما من خلال إصابتها بالقذائف أثناء الحرب، أو بسبب القصور والأغلاط، وهي واردة ما دام الذين يصمّمون هذه المفاعلات ويدبرونها بشرًا.

ونتائج هذا القصور هنا مدمرة للبيئة، ولا شك أن من القراء من سمعوا عما خلفه الجيش السوفياتي من مساحات شديدة التلوث بالإشعاع النووي في مناطق من ألمانيا الشرقية بعد انسحابه منها، وما زال هذا التلوث مشكلة كبيرة أمام المسؤولين في ألمانيا بعد توحدها.

#### أخطار الإشعاع من الحوادث:

تمثل حادثة تشيرنوبيل الشهيرة مثلاً فعلياً للأخطار التي قد تنشأ عن حوادث سببها القصور البشري. إذ إن التسرب الإشعاعي الذي حدث من المفاعل النووي في تشيرنوبيل كان نتيجة لأخطاء في تصميم هذا المفاعل. ولم تكن هذه الحادثة هي الأولى من نوعها، فقد وقعت حوادث مشابهة في الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من الدول الصناعية، ولكن هذه الحادثة من أخطرها على الإطلاق.

وعلى الرغم من انقضاء كل تلك السنوات على وقوعها، فما زالت آثارها المدمرة مستمرة.

وتعاني روسيا البيضاء من معظم المشاكل، إذ يقدر المختصون أن ٧٠٪ من الإشعاع المتسرّب قد أصابها وحدها، وأن ٤٠٪ من مساحة تربتها أصبحت ملوثة بالإشعاع. ولعل أفح الأخطاء التي اقترفتها الحكومة التي كانت جديدة عند وقوع الحادثة صمتها المطلق من البداية وتعتيمها الإعلامي. ونلاحظ أن التربة الملوثة ما زالت تزرع حتى اليوم ومن ثم فالقمح والخضروات واللحوم والأليان أصبحت هي الأخرى محمّلة بالإشعاع. ومع ما يقاريه ورثة الاتحاد السوفياتي الآن من مشاكل اقتصادية جمة ليس أمام البشر إلا أن يستهلكوا هذه الأطعمة المشعة. وإنما هلكوا جوعاً. وتكتمل المأساة بعجز الطب السوفياتي عن التعامل مع الكثير من هذه الأمراض التي قد يكن التعامل معها في دول غرب أوروبا وأمريكا، ويعيش المواطنون اليوم في حالة تقترب من الضياع.

ومن الخطأ الظن أن أخطار تشيرنوبيل مقتصرة على روسيا البيضاء أو

الاتحاد السوفيتي سابقاً، فالواقع أن تشير نوبل أصبحت بالفعل كارثة عالمية وستبقى كذلك لسنوات لا يعلم مداها إلا الله فالإشعاع يتقلّل مع الرياح، وترسبه الأمطار.

ومعاناة البشر اليوم من هذه الكارثة على شدتها لا تقاوم بما سوف تعانيه الأجيال القادمة. فالإشعاع يحور من كيمياء العوالم الوراثية، مما يعني بالضرورة أن تشوّهات وأحكاماً وراثية سوف تظهر في الأجيال القادمة. وسوف تتوارثها في عدد من الأجيال المتعاقبة لا يعلمه إلا الله<sup>(١)</sup>.

ولا نجاة للبشرية من هذا التلوث الذي يهددها ويهدد أجيالها القادمة، إلا بأن يعرف الإنسان قدر نفسه، وأنه ليس (إله) في الأرض، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ولا يسأل عما يفعل. إنما هو (مستخلف في الكون، عبد لخالقه). ومن خلال هذه العبودية للخالق - التي هي عين التحرر من عبودية كل ما سواه - ينبغي أن يتصرف الإنسان في هذه الأرض، التي هي جزء صغير صغير من المجموعة الشمسية، التي هي جزء صغير صغير من مجرتنا، التي هي واحدة من ملايين المجرات التي تملأ فضاء هذا الكون.

إن طرق النجاة للإنسان يتجلّس في شيء واحد، هو إيمانه بربه الأعلى ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۖ وَالَّذِي قَدَرَ فَهَدَىٰ﴾ (الأعلى : ٢ ، ٣).

وبهذا الإيمان يوازن الإنسان بين دنياه وآخرته، وبين شهواته الفردية، وأشواقه الروحية، وبين اللذات الصغيرة للجيل الحاضر، والمطالب الكبيرة للأجيال التي لم تزل في ضمير الغيب.

#### التلوث الضوضائي:

ومن أنواع التلوث البيئي الذي يشكو منه عصرنا: (التلوث السمعي) أو (الضوضائي) ويراد به: الضجيج والضوضاء والأصوات العالية، التي تؤذى

(١) انظر: فصل (التلوث الإشعاعي) من كتاب (أهم المشكلات البيئية في العالم المعاصر) لمحمود أحمد حميد.

السمع، وتتعب الأعصاب، وتشوش على العقل، وتقلق الراحة، وتطرد النوم، وتأثير في حياة الإنسان تأثيرا سائلا، وخصوصا المرضى والأطفال، والذين يشتغلون بالعلم والفكر، ويحتاجون أبدا إلى الهدوء.

وقد كثرت أسباب الضوضاء في عصرنا، بسبب انتشار المصانع، واستخدام الآلات، والسيارات والقطارات والطائرات والدراجات البخارية والكهربائية، واستخدام الآلات الميكانيكية ذات الضجيج العالي في البناء، وفي رصف الطرق، ونحوها، واستعمال مكبرات الصوت، وأجهزة المذياع والتلفاز، وأجهزة التكييف، وغيرها مما جعل المدن الحديثة حافلة بعوامل الإزعاج والإللاق و هو ما جعل الناس يفرون إلى الضواحي، والقرى المجاورة، هربا من جحيم الضوضاء.

#### الإسلام والتلوث السمعي:

والإسلام يوجه الإنسان إلى الاعتدال في كل شيء، ولهذا يكره الخلبة والضوضاء والضجيج بغير مسوغ، لما لها من آثار سئئة في حياة الإنسان، كما يكره الصوت الخافت الذي لا يُسمع. ولهذا كان من صفات عمر رضي الله عنه: أنه إذا تكلم أسمع.

#### هداية القرآن:

وفي القرآن الكريم: «وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَاتْبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا» (الإسراء: ١١٠).

وهي من الآيات التي يستدل بها على استحباب الوسطية في كل شيء. ويكره علو الصوت في مجالس العلم، وفي حضرة أهل الفضل والمتزللة من الناس، تأسيا بما جاء في الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث قال الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرٍ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ» ﴿٢﴾ إن الدين

يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهَ قُلُوبَهُمْ لِتُتَقَوَّى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ  
وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُورَاتِ أَكْثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٣﴾  
(الحجرات : ٢ - ٤).

إنما وصفهم القرآن بهذا الوصف المذموم، لأنهم كانوا ينادونه بصوت مرتفع، وهو مستريح في بيته، غير مراعين للأدب معه.  
وإذا كان العلماء ورثة الأنبياء، فينبغي أيضاً التأدب معهم، بعض الصوت ورعاية المقام.

ولقد ذكر لنا القرآن من وصايا لقمان لابنه، وهو يعظه - وهو رجل آتاه الله الحكمة - هذه الوصية الناصعة: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشِيكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان: ١٩).

وكفى بهذا تنفيراً للإنسان العاقل أن يتشبه بالحمار البليد، الذي لا يبالي أن يرسل نهيقه المزعج في أي مكان شاء، وفي أي زمان شاء. فهو لا يعرف ما يليق وما لا يليق، وإنما ينطلق من غريزته وحدها.

وقد ذم الله تعالى المشركين في القرآن بقوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءَ وَتَصْدِيَةٌ﴾ (الأنفال : ٣٥) أي صفيراً وتصفيقاً وضجيجاً، لا ينسجم مع ما يجب للبيت الحرام من توقير، وما ينبغي أن يتواتر للصلوة من سكينة وخشوع.

#### توجيه السنة النبوية:

ومن هنا روى الشیخان عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: بينما نحن نصلی مع النبي - صلی الله علیه وسلم - إذ سمع جلبة رجال، فلما صلی قال: ما شأنكم؟ قالوا: استعجلنا الصلاة. قال: «فلا تفعلوا، إذا أتيتم الصلاة، فعليكم بالسکينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأنمو»<sup>(١)</sup>.

(١) متفق عليه. اللولو والمرجان (٣٥١).

وهنا نرى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد لفت نظره ما سمع من جلبة وارتفاع صوت ، فسأل عن سببه ، فقال الصحابة : استعجلنا الصلاة «أي أنهم جاءوا يركضون فأحدثوا صوتاً عالياً ، فنهاهم عن ذلك ، وأمرهم بالسکينة».

وروى الشیخان أيضاً عن أبي موسى الأشعري قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر ، فجعل الناس يجهرون بالتكبير ، فقال النبي : «يا أيها الناس ، أربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائب ، إنكم تدعون سميعاً قريباً ، وهو معكم»<sup>(١)</sup>.

معنى : أربعوا على أنفسكم : ارفعوا بأنفسكم ، واحفظوا أصواتكم ، فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان بعد من يخاطبه ، ليس معه ، وأنتم تدعون الله تعالى ، وليس هو بأصم ولا غائب ، بل هو سميع قريب .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الله يبغض كل جَعْظَرِي جَوَّاظ ، صخاب في الأسواق ، جيفة بالليل ، حمار بالنهر»<sup>(٢)</sup>.

والجعظري : الشديد الغليظ . والجواظ : الأكول . والصخاب : الصياح .

وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في شأن صلاة الجماعة : «ليلي منكم أولو الأحلام والنھى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم .. ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، وإياكم وهيشات الأسواق»<sup>(٣)</sup>.

وهيشات الأسواق : اختلاطها وارتفاع الأصوات واللغط فيها .

والأمور التي ورد الشرع برفع الصوت بها ، من شأنها ألا تحدث ضجيجاً ولا ضوضاء ، إذا روعيت فيها تعاليم الشرع وآدابه .

(١) متفق عليه . اللؤلؤ والمرجان (١٧٢٨).

(٢) رواه ابن حبان ، كمامي الإحسان (٧٢) وقال الشيخ شعيب : إسناده قوي . وذكره الألباني في الصحيحه (١٩٥).

(٣) رواه مسلم في الصلاة (٤٣٢) حديث ١٢٣ في الباب ، وأبو داود في الصلاة (٦٧٥) والترمذى (٢٢٨) وقال : حسن صحيح غريب ، والنسائي (١٧٢٨).

فمنها : (الأذان) ومن المعلوم أن الأذان بلفاظه العذبة ، ومعانيه الربانية ، وأدائه بصوت فرد ، يختار عادة من أندى الناس صوتاً : لا يمكن أن يحدث ضوضاء بحال من الأحوال .

ومن ذلك : التلبية في الحج ، فمطلوب من الحجاج أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية وهم محرمون بالحج ، حتى يرموا جمرة العقبة ، والتلبية ذكر لله تعالى ، ينبع عن الاستجابة لأمره عز وجل : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك ».

وطالما حججنا واعتمرنا ولبينا فرادى ومجتمعين ، واستمعنا إلى الملبين ، فلم نشعر بضجيج ولا ضوضاء ، لأن من يلبي يؤدي التلبية ، وهو يشعر بأنه يتعبد لله تعالى ويتقرب إليه .

ومن ذلك : الأناشيد الجماعية ، وهي تؤدي منجمة ملحنة مؤثرة ، لا يمكن أن تنسب إلى الجلبة والضوضاء .

ومن ذلك : صيحات (التكبير) في الحرب ، فهذه لها قوتها وتأثيرها في تقوية قلوب الجنود المؤمنين ، كما لها تأثيرها في زلزلة قلوب الأعداء .

#### توجيه الفقه الإسلامي:

وعلى ضوء هداية القرآن الكريم ، وهدى السنة النبوية ، سار الفقه الإسلامي ، فمنع الفقهاء في فتواهم إذا أفتوا ، وفي قضائهم إذا قضوا : كل ما يضر بالإنسان من الضجيج المؤذي ، مما كان خاصاً بالإنسان في نفسه ، فهو محرم ديانة ، وما كان متعدياً إلى غيره فهو محرم ديانة أيضاً ، ويزيد أنه من حق (القضاء) أن يمنعه إذا رفع إليه ، ومن حق (المحتسب) أن يمنعه إذا رأه ولم يرفعه إليه أحد .

ومن الفقهاء من قسم الضرر الناتج عن الأصوات إلى قسمين : ضرر يجب درؤه ، وضرر يمكن احتماله . ومثال القسم الأول : الأصوات والذبذبات

الناتجة عن حركة البوابات ، إذ إنها تؤثر على سلامة المبني المجاورة لها . يروي ابن الرامي من المالكية في كتابه ( الإعلان بأحكام البناء ) أن مجموعة من الناس أقاموا ببوابة لحارتهم ، يفتح بابها على حائط جار لهم ، فقاضاهم هذا الرجل ، بدعوى أن فتح الباب وإغلاقه المستمر قد أضر به ، وأقلقا راحته . فتحرى ابن الرامي الأمر ووجد الحائط يتذبذب من جراء فتح الباب وإغلاقه ، فأمر القاضي بهدم البوابة وإزالتها بابها .

أما القسم الثاني : من الضرر فينتج عن الأصوات التي تسبب الضيق دون الضرر . وقد اختلف الفقهاء في حكمهم عليه . فلم يعتبره الفقهاء الأوائل ضررا يجب درؤه . فمطرف وابن الماجشون ، وأصبح : رأوا عدم إيقاف الغسال والضراب لمجرد أن ضوضاء عملهما تقلق الجيران ، بل ذهب ابنقطان إلى عدم جواز منع أحد من ضرب الحديد في منزله ، وإن كان يفعله ليلا نهار ، بشرط أن يعتمد معاشه على ذلك . أما من لحقهم من الفقهاء ، فقد كان لهم رأي مغاير . فاعتبروا الصوت والصدى والضوضاء مصدرا للضرر يجب درؤه . فقد وضع قضاة طليطلة - حسب رواية ابن الرامي - قواعد صارمة لمنع وجود الكمامدين لما يسببونه من ضرر وضيق للجيران بما يصدر عنهم من أصوات . كما أعرب القاضي ابن عبد الرافع في تونس عن تفضيله منع بناء حظائر الحيوانات متاخمة للمبني ، لما تسببه حركة الحيوانات الدائمة أثناء الليل والنهار من إزعاج قد يمنع الجيران من النوم .

من ذلك نرى أنه ، بوجه عام ، اعتبر الفقهاء الأصوات والذبذبات مصدرا للضرر يجب منعه<sup>(1)</sup> .

ومن هذا المنطلق ، اهتم المسلمون القدامى ببناء المصانع خارج المدن ، وبخاصة تلك التي ينتجه عنها تلوث صوتي أو كيميائي أو أي صورة أخرى من صور التلوث البيئي .

(1) انظر : البيئة : مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث (رؤية إسلامية) لمحمد عبد القادر الفقي ص ٨٦ نشر مكتبة ابن سينا بالقاهرة .

### **وسائل تقليل ومكافحة الضوضاء؛**

استنبطت التقنيات الحديثة عدة وسائل وأساليب لمكافحة التلوث الصوتي،

مثل:

- ١- استعمال سدادات الأذن في المناطق التي يكثر فيها الضجيج.
- ٢- منع استعمال آلات التنبيه في السيارات في المناطق المزدحمة.
- ٣- بناء المطارات بعيداً عن المدن لتفادي الأصوات العالية لمحركات الطائرات.
- ٤- استعمال كواتم الصوت في المصانع.
- ٥- نقل المصانع والورش إلى أحياط صناعية بعيدة عن المناطق السكنية.

وغير ذلك من الوسائل التي تمنع وصول الأصوات إلى الأذن، أو تمنع حدوثها عند المصدر.

والإسلام يرحب بالاستفادة من كل هذه الوسائل، وكل ما يتكره البشر في هذا المجال، عملاً بالمصالح المرسلة، وتحقيقاً لمقاصد الشريعة في المحافظة على كل ما ينفع الإنسان، ويبعد الضرار عنه.

### **قلق العلماء والمفكرين على مصير الحضارة؛**

لقد أصبحت الحضارة بما تنوء به من أثقال شتى، وما تحس به من أوزار في حق البشرية، ومنها وزر الجنائية على البيئة - مخوفة العاقبة، مجهرولة المستقبل والمصير، فإذا لم يتداركها الله برحمته، فتهاهي من ضلالاتها، وتصلح من فسادها، وتعتدل بعد طغيانها وإخسارها.

ولقد كثر الناقدون للحضارة من الغربيين أنفسهم، ودقوا أحراس الخطر. يخوفون من شأن المصير المرتقب، منهم من رجال العلم، ومن رجال الفلسفة، ومن رجال الأدب، ومن رجال السياسة. كما ذكرنا ثالثاً من هذه النداءات والصرخات في كتابنا (الإسلام حضارة الغد).

ومن هؤلاء العالم الأميركي الجنسي، الفرنسي الأصل (رينية دوبو) وهو من علماء البيولوجيا، الحاصلين على جائزة نobel في العلوم. وقد قال في كتابه الذي ترجم إلى العربية بعنوان (إنسانية الإنسان) :

«إن كل المفكرين قلقون على مستقبل الأبناء الذين سيقضون حياتهم في بيئات اجتماعية ومحيطة سخيفة عابثة باطلة، نخلقها نحن لهم بدون أي تفكير، وأكثر ما يزعج هو علمنا بأن الخصائص العضوية والفكيرية للإنسان تخططها اليوم البيئات الملوثة، والشوارع المتراصدة، والأبنية الشاهقة، والخلط الحضري المتمرد، والعادات الاجتماعية التي تهتم بالأشياء، وتهمل البشر»<sup>(١)</sup>.

وفي حديث بعنوان : «هل تستطيع أمريكا التغلب على خرافة النمو؟» كان سكرتير وزارة الداخلية «استيوارت . ل . أو دال» شجاعاً عندما قال : إنه من السهل اعتبار أمريكا التي صنعها الإنسان .. كارثة على مستوى القارة . لقد ذكر «أودال» مستمعيه : «إننا نملك أكبر عدد من السيارات وأسوأ ساحات «الخردة» بالمقارنة لأية دولة أخرى في العالم ! نحن أكثر سكان العالم تنقلاً ونتحمل أكبر قدر من الازدحام ونولد أكبر قدر من الطاقة ، وفي أجواننا أكثر الهواء تلوثاً في العالم »، ولقد نقل عن رئيس بلدية «كليفلاند» قوله مازحاً : «إذا لم نكن واعين فسيذكرنا التاريخ على أساس أننا الجيل الذي رفع إنساناً إلى القمر .. على حين هو غائب إلى ركبته في الأوحال والقاذورات !»<sup>(٢)</sup>.

كان نقاد الحضارة الحديثة قد يقولون : إنها أصلحت الأرض ، وأفسدت البشر ، وأحسنت إلى الجماد ، وأساءت إلى الإنسان ، وأتقنت علوم الجماد والمادة ، وجهلت علوم الحياة والآحیاء ، فأحيت العمran ، وأماتت الإنسان .

هكذا قال ألكسيس كاريل في كتابه (الإنسان ذلك المجهول) وقال كثيرون قبله وبعده مثل ما قال .

(١) إنسانية الإنسان ص ٣١ من الترجمة العربية .

(٢) انظر : إنسانية الإنسان . ترجمة نبيل الطويل ص ٢١٩ - ٢٣١ .

والاليوم نقول في أوائل القرن الحادي والعشرين، ومطلع الألف الثالث للميلاد: إن الحضارة في عصر تطور التكنولوجيا، وثورة البيولوجيا، وغزو الفضاء، وثورة الاتصالات والمعلومات - وقد جنت على العمران، كما جنت على الإنسان، وأساءت إلى الجمادات من المخلوقات، كما أساءت إلى الأحياء والإنسان.

لقد شكت الكائنات كلها من عبثها بها، وقسوتها عليها، لقد جلت الفساد على الإنسان، وعلى الحيوان، وعلى الجماد، فأفسدت التربية، وأفسدت الهواء، وأفسدت الماء، وأفسدت الغذاء والدواء. أفسدت الأرض وجو السماء. وأمسى الإنسان يخشى أن تكون هذه الحضارة هي القاضية عليه، وأن يهلكها العجب والغرور والطغيان، كما أهلك أمما قبلها من «الذين طغوا في البلاد» <sup>١١</sup> فاكتثروا فيها الفساد <sup>١٢</sup> فصب عليهم ربك سوط عذاب <sup>١٣</sup> إن ربكم ليالمرصاد <sup>١٤</sup> (الفجر: ١٤-١١).

ما أجدنا أن نتدبر كثيراً ما جاء في القرآن من تأشيرات وتحذيرات لأمم الحضارات، ومن تحذير لأهل الأرض عامة، حين يبلغون درجة من العلم يتأنه فيها الإنسان، وينسيه الغرور ربه، فينسيه الله نفسه، وهنا تكون النهاية الأليمة التي لا يعني فيها علم ولا فن ولا فلسفة ولا صناعة متطرفة. وصدق الله العظيم إذ يقول: «حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزيقت وظن أهلها أنهم قادرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهارًا فَجَعَلْنَاها حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ كَذِلِكَ فُصِّلَ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (يونس: ٢٤).

## ٢. خطوات استئذاف الموارد

من أبرز مشكلات البيئة في عصرنا: استنزاف الموارد الطبيعية، بحيث أصبح الإنسان في العالم مهدداً بأنه قد يأتي يوم ليس ببعيد، يجد موارده لا تكفيه، وليس ذلك من قلة هذه الموارد، فقد خلقها الله بوفرة للإنسان، وامتن عليه بها في آيات كثيرة من كتابه، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾٣٢﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَالِيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾٣٣﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوْهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾٣٤﴿﴾ (إبراهيم: ٣٢ - ٣٤) وبهذا يتبيّن لنا أن ظلم الإنسان لنفسه ولغيره، وكفرانه للنعمـة، هــما اللذان أديا بالإنسان إلى هذه العاقبة الوخيمة، فهو لا يعرف نعمة الله في هذه الموارد، ولا يحافظ عليها، كما ينبغي، ولا يستعملها باقتصاد واعتدال، بل يسرف فيها إسرافاً لا يحبه الله تعالى.

ولقد تحدثنا بإفاضة وتفصيل عن (الركائز الإسلامية في رعاية البيئة). ومن هذه الركائز الأساسية: المحافظة على موارد البيئة، ولا سيما في الشروة الحيوانية، والثروة النباتية، والثروة المائية، وثروة التربة الأرضية. وغيرها، من كل ما جعله الله في البيئة سبباً لرزق الإنسان، ورغم عيشه في دنياه.

واستنفاف الموارد ولا شك هو نقىض المحافظة عليها، الذى فصلنا القول فيه هناك. كما أن استنفاف الموارد أيضا ضد ركيزة أخرى من ركائز رعاية البيئة في الإسلام، وهي ركيزة (الإحسان بالبيئة) وخصوصا الإحسان بالحيوان وبالنبات، وبالماء وبالتربيه وغيرها.

والاستنزاف كذلك مضاد لركيزة ثلاثة من ركائز الرعاية البيئية، وهي المحافظة على مكونات البيئة وعناصرها من الإتلاف، أيا كانت دوافعه، وأيا كانت مظاهره.

فلنكن على ذكر من هذا كله، ولنراجعه لزوماً، ونحن نتحدث هنا عن هذا الخطر الكبير، الذي بات ينذر البشرية بشر مستطير.

### كيف يتحقق الاستنزاف للموارد؟

يتمثل استنزاف الموارد في عدة أمور:

- ١- في استخدامها في غير ما خلقت له، أو في معصية الله تعالى.
- ٢- وفي إساءة استعمالها، وإنهاكها، وعدم الإحسان والرفق بها.
- ٣- وفي الإسراف وتجاوز الحد في استهلاكها.
- ٤- وفي إهمالها وإضاعتها حتى يصبها التلف والتعطّب.
- ٥- وفي الإفساد في الأرض الذي يترتب عليه هلاك الحيوان والنبات، أي هلاك البيئة ومن فيها.

### ١. استخدام الموارد في غير ما خلقت له:

وفي الأمر الأول نجد الله تعالى خلق كل شيء ليؤدي مهمة في هذا الوجود، فلا ينبغي أن ننحرف به عن مهمته، ليعمل بضدها، أو يحرف مسارها، أو يفسد وظيفتها.

فالإنسان هو أهم عنصر في البيئة، بل هو الذي سخرت له كل عناصر البيئة من الله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (آل عمران: ٢٩) وقد خلق الله الإنسان لعبادته وخلافته في الأرض واستعمره فيها. فلا يجوز أن نغير فطرة الله تعالى، ونجعل الإنسان مسخراً للبيئة، بل عابداً لها أو لبعض

أجزائها في بعض الأحيان. فهذا قلب للحقائق وضع للشيء في غير موضعه، وتوجيهه إلى غير ما خلق له، وهو فساد كبير.

والأرض خلقها الله، وهيأها لعيشة الإنسان، وجعلها له مستقراً ومتاعاً، وفراشاً ومهاداً، وبساطاً، وجعلها للناس ذلولاً، ليمشوا في مناكبها، ويأكلوا من رزقه، فلا يجوز للإنسان أن يغير فطرة الله التي خلق عليها هذه الأرض، ويجعل هذه الأرض بدل أن تكون فراشاً ومهاداً، تسيي جحيمها وفساداً، يفسدها بتفجيراته الذرية، وتلوثاته الإشعاعية وغيرها.

والماء قد خلقه الله ليحيي به الأرض، ويُسقيه الإنسان والحيوان، ولن يكون وسيلة للطهارة والنظافة، ولعيش فيه الأحياء التي يحتاج إليها الإنسان في مأكله، ويستخرج منه الخلية والزينة، وتجري فيه الفلك بأمره. كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً ۚ لِتُحْيِيَ بِهِ الْأَرْضَ مُيتَّا وَنُسْقِيَّهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ۚ﴾ (الفرقان: ٤٨، ٤٩) ﴿وَيَنْزَلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّيُظْهِرُ كُمْ بِهِ﴾ (الأనفال: ١١) ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلُّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنياء: ٣٠) ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيفاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَارِخَ فِيهِ وَتَبَغُّو مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشَكُّرُونَ﴾ (النحل: ١٤).

فلا يجوز للإنسان أن يلوث هذه المياه، بما يلقي فيها من تفاسير المصانع والبواخر، وأثار الحروب وغيرها، مما يقتل أحياءها، ويُكدر نقاءها، ويجعلها خطراً على الإنسان بعد أن كانت مصدراً لحياته.

إن موارد البيئة كلها من نعم الله تعالى على الإنسان، وفي كل نعمة زكاة، وزكاة هذه النعم أن تستخدم فيما يحب الله تعالى ويرضاه، لا أن تستخدم في معاصي الله وما يسخطه سبحانه، فليس من المقبول عقلاً ولا شرعاً أن تتخذ نعم الله لمعاصي الله جل جلاله.

#### ٢. الإساعة في استخدام الموارد:

ومن دلائل استنذاف الموارد: سوء استعمالها، وعدم الإحسان بها. فهذا مما يبغضه الله تعالى، فقد جاء في الحديث «إن الله يحب من العامل إذا عمل أن يحسن»<sup>(١)</sup> وفي معناه: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»<sup>(٢)</sup> وإذا كان الله يحب إتقان العمل وإحسانه؛ فمفهومه أنه يكره إساءة العمل، ومنه: إساءة استعمال الموارد. ويكون الإتقان في نفس العمل، وفي نيته وبأعنه.

ويقول العلامة عبد الرءوف المناوي في شرح الحديث المذكور:

وَهُذَا تَأكِيدٌ لِمَا أَمْرَ بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مِنِ الْإِحْسَانِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النَّحْلُ: ٩٠) وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الْبَقْرَةُ: ١٩٥).

وَمَا أَمْرَ بِهِ الرَّسُولُ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيفِ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَىٰ كُلِّ

(١) رواه البيهقي في الشعب عن كلبي، وحسنه الألباني، في صحيح الجامع الصغير (١٨٩١).

(٢) رواه البيهقي في الشعب أيضاً عن عائشة، وفيه رأوا تكلموا فيه. انظر: فيض القديم (٢٨٧/٢).

شيء»<sup>(١)</sup> أي كتبه وفرضه في كل شيء، فهو يشمل الإنسان والحيوان والنبات، وسائر المخلوقات. حتى قال المناوي: إنه يشمل الملائكة والجن من العالم غير المنظور، بأن لا يفعل ما يؤذيهما. حتى إنه يحسن إلى شياطين الجن بالدعاء لهم بالهدایة، ككفار الإنس أيضًا<sup>(٢)</sup>.

### ٣- الإسراف في استهلاك الموارد:

ومن أبرز مظاهر الاستنزاف: الإسراف في استهلاك الموارد، فإن الإسلام ينهى عن الإسراف في آيات وأحاديث كثيرة. كما احث على القصد والاعتدال في نصوص جمة.

إن الله الذي خلق البيئة بعناصرها المتنوعة، قد أنبأنا أنه إنما خلقها لنا، كما قال تعالى: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» (البقرة: ٢٩) «أَلَمْ تَرَوْ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَةً ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً» (لقمان: ٢٠).

وما كان الله ليخلق لنا هذه الأشياء ويستخرها لنا، ثم يحرمها علينا، ولهذا قال فقهاؤنا: الأصل في الأشياء والمنافع الإباحة، وذلك بمقتضى خلقها وتسخيرها لنا من الله سبحانه.

ومعنى هذا: أن الله أذن لنا أن نأكل من طيبات ما رزقنا، وأن نستمتع بما في هذا الكون من منفعة وزيمة. كما قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا أَخْطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ» (البقرة: ١٦٨).

ومن خطوات الشيطان أنه يوسم لهم بتحريم ما أحل الله عليهم، فلا يجوز للمؤمنين أن يطيعوه، ولذا جاء بعدها خطاب للمؤمنين خاصة:

(١) رواه مسلم عن شداد بن أوس (١٩٥٥).

(٢) انظر: فيض القدير (٢٤٥ / ٢).

**﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتٍ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيمَانًا تَعْبُدُونَ﴾**  
**(البقرة: ١٧٢).**

وشدد القرآن الكريم النكير على الذين يحرمون الطيبات على الناس باسم الدين، وقال تعالى: **﴿فَلَمَنْ حَرَمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾** (الأعراف: ٣٢).

ولكن الله تعالى حين أباح للناس أن يستمتعوا بالطيبات أكلًا وشربًا ولبسًا وتزيينا، لم يدع الأمر بغير قيود وضوابط، بل قيد الإباحة بعدم الإسراف، فقال تعالى قبل الآية السابقة في الإنكار على محرمي الطيبات: **﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُّوا مِنْ تِنَكُّرِكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُّوا وَاشْرِبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾** (الأعراف: ٣١).

وحسبك من ذم للمسربين أن الله تعالى لا يحبهم، كما لا يحب الظالمين، ولا يحب المفسدين، ولا يحب كل خوان كفور، ولا يحب كل كفار أثيم. كما بينت ذلك آيات الكتاب العزيز.

ولقد ذم الله تعالى فرعون المتأله المتجر في الأرض بقوله: **﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾** (الدخان: ٣١).

وذم الله سبحانه قوم لوط - الذين أتوا فاحشة ما سبقهم بها أحد من العالمين - بقوله على لسان نبيهم لوط: **﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾** (الأعراف: ٨١).

وكما نهى الله تعالى عن الإسراف، نهى عن التبذير، كما في قوله تعالى: **﴿وَآتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمُسْكِنَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبَذِّرًا ۚ ۲۶ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْرَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ۚ ۲۷﴾** (الإسراء: ٢٦، ٢٧).

والفرق بين الإسراف والتبذير: أن الإسراف هو تجاوز الحد في استهلاك الحلال. أما التبذير فهو الإنفاق في الحرام وإن قل.

فمن تجاوز الحد في الحلال كان مسراً، لأن أكل أكثر مما ينبغي حتى أضر بنفسه أو بماله، أو جار على حق غيره. فهو بهذا مسرف.

ومن أنفق أكثر مما يحتمله دخله، فقد دخل في دائرة الإسراف.

ومن تجاوز الحد في استخدام الماء ولو في النظافة أو في الطهارة الشرعية، فقد أسرف، وأساء أو تعدى أو ظلم.

ولهذا جاء في الحديث: «كُلُوا وَاشْرِبُوا، وَتَصْدِقُوا، وَالْبَسُوا، فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مُخْيِلَةٍ»<sup>(١)</sup>.

والمخيلة: الاحتيال والفخر، وهو رذيلة باطنية، كما أن الإسراف رذيلة ظاهرة.

ومن أنفق من ماله - ولو كان درهماً واحداً - في معصية - أي في أمر محرم، مثل شرب الخمر، أو تناول المخدرات، أو اقتناص التحف الذهبية، وغيرها - اقترف إثم التبذير، وكان من إخوان الشياطين.

فالتبذير هو الإنفاق من مال الله في معاصي الله، فهو محرم وإن كان شيئاً قليلاً، أي وإن كان المبذير يملأ القناطير المقنطرة.

بحلaf المسraf، فقد يكون الشيء إسرافاً في حق شخص، ولا يكون إسرافاً في حق غيره. فالمعسر غير الموسر، والفقير غير الغني، والغني الذي لا يزال في أول درجات سلم الغنى، غير الذي يملك الملايين. ولهذا قال الناس: على قدر لحافك مدرجليك. أي أنفق على قدر ما تملك.

والمنهج الذي دعا إليه الإسلام في الإنفاق هو التوسط والاعتدال بين الإسراف والتقتير، وكلاهما مذموم. قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنْقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلُّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (الإسراء: ٢٩) بل هو يدعو

(١) رواه أحمد والنسائي وأبي ماجه والحاكم عن ابن عمرو، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٤٥٠٥).

ال المسلم إلى الاعتدال ، وإن كان المورد غنيا ولا خوف من نفاده ، كما في حديث سعد : « لا تسوف وإن كنت على نهر جارا » وذلك ليكون الاقتصاد خلقا له ، يلتزم به أبدا في حالة السعة وفي حالة الضيق ، على سواء .

وهذا المنهج المتوازن في الاستهلاك والإنفاق نافع للإنسان اقتصاديا ، لأن التقتير يؤذى الاقتصاد ، حيث لا توجد دوافع للإنتاج ، إذا انعدمت أو قلت بوعاه الاستهلاك . كما أن الإسراف يمكن أن يضيع جدوى التنمية وزيادة الإنتاج . لأنك إذا زدت في خزان المياه ، ولكنك فتحت الصنبور لحاجة ولغير حاجة ، فستنفد مياه الخزان هدرا ، دون أن تتحقق هدفها .

وهذا المنهج كذلك نافع للإنسان تربويا ؛ لأن الإسراف المطلق ، ليس من شأن الإنسان المؤمن العاقل ، ولذا جاء في الصحيح : « المؤمن يأكل في معي واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمماء » وهو كناية عن شره الكافر ، وأن همه في معدته وإشباع شهواته وغراائزه ، وأما المؤمن فكل شيء عنده بحساب ، فهو لا يأكل إلا إذا جاع ، وإذا أكل لا يمتلئ ، فما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه .

ثم إن المؤمن العاقل لا يطلق العنان لنفسه ليأكل كل ما اشتته ، ويشتري كل ما رغب فيه ، وقد جاء في الأثر : من الإسراف أن تأكل كل ما اشتته !  
وقال سيدنا عمر : أو كلما اشتتهتم اشتريتم ؟! وشهوة الاشتراء في عصرا أصبحت آفة كبيرة ، فقد أدت إلى تكديس أشياء كثيرة جدا لا لزوم لها ، وأضحيت التخلص منها إحدى المشكلات العويصة .

فهو نوع من التربية الأخلاقية ، كما أنه لون من التربية الاجتماعية أيضا . كما جاء : أما يريد أحدكم أن يطوي بطنه بخاره وابن عمه ؟  
ومن ناحية أخرى هو تربية اقتصادية ، إذا غلت السلع ، وقلت الأشياء ، فليس أفضل من إرخاصها بالكف عن شرائها ، كما قال الشاعر :

فأراه أرخص ما يكون إذا غلا! <sup>(١)</sup>      وإذا غلا شيء على تركته

#### ٤. إهمال موارد البيئة وإضاعتها:

ومن مظاهر الاستنزاف: إهمال موارد البيئة وعدم الانتفاع بها، أو إضاعتها وتركها حتى تتلف وتهلك، دون أن يستفيد الناس من ثمرتها.

ولقد مر بنا أن النبي صلى الله عليه وسلم أنكر على أصحابه تركهم جلد شاة ماتت، كانت ملوأة لإحدى أمهات المؤمنين، وقال لهم: «هلا أخذتم إهابها فانتفعتم به؟» (وهذا استفهام على سبيل الإنكار) قالوا: يا رسول الله، إنها ميتة! قال: «إنما حرم أكلها!» متفق عليه.

فبين أن تحريم أكل لحم الميتة لا ينافي الاستفادة من جلدها بالدباغ، فإنه إذا دبغ فقد طهر. وهذا يمثل قمة الحرص على الانتفاع بكل موارد البيئة، وإن قلت قيمتها، وألا ترك للضياع بغير موجب ولا مسوغ.

ومثل ذلك: أمره صلى الله عليه وسلم بتعليق الصحفة -أو وعاء الطعام- وعدم ترك فضلات فيها. والتعليق ليس مقصوداً لذاته، إنما المقصود أكل كل ما في الإناء، وكانوا يأكلون بأيديهم، فأمر بتعليقها أو يلعق الإناء نفسه. فمن كان يأكل بالملعقة، قامت مقام يده في ذلك.

ومثل ذلك أمره عليه الصلاة والسلام بالتقاط اللقمة إذا سقطت على الأرض من الإنسان، وإماتة الأذى عنها، ثم يأكلها ولا يدعها للشيطان.

وسينأتي الحديث عن هذا التوجيه النبوي الرشيد والمهم في تكوين عقلية المسلم في النظر إلى (نعم) وإن صغرت، وفي العناية بالانتفاع بها وإن ضئلت. فإن الصغير مع الصغير يكبر، والقليل إلى القليل يكثر. وخصوصاً إذا نظر إلى ذلك على مستوى الأمة الكبرى.

---

(١) راجع: فصل: القيم والأخلاق في مجال الاستهلاك، من كتابنا (دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي) نشر مكتبة وهب بالقاهرة، ومؤسسة الرسالة -بيروت.

وهذه النماذج البسيطة التي تضمنتها الإشارات النبوية ، تنبهنا على ما هو أهم وأعظم من موارد البيئة التي تهمل وترك ، حتى تضييع على المجتمع كله ، إما لغياب الوعي ، أو لفساد الضمائر ، أو لهما معا ، أو لغير ذلك من الأسباب . وقد تحدثنا فيما سبق عن تحريم الإنلاف للموارد بسبب الإضاعة الإهمال . فليراجع .

#### ٥- الإفساد في الأرض:

ومن مظاهر الاستنزاف للموارد : أنواع الإفساد في الأرض التي يشهد لها الناس من قديم ، مما يضر بالتربيه ، أو يضر بالماء مصدر الحياة ، أو يضر بالثروة الحيوانية التي هي في خدمة الإنسان ، أو يضر بالثروة النباتية التي هي مصدر لغذاء الإنسان ولأنعامه ، كما يستفيد منها الظل والبهجة والجمال وغيرها من الشمرات .

وقد تقدم من قبل حديث : «من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار» لأن قطعها بغير سبب نوع من الإفساد ، لأن من ورائه حرمان الناس من ثمرها ، ومن ظلها ، ولا سيما في البرية . ومثل ذلك قطع أشجار الغابات التي تؤدي مهمة عظيمة في خدمة البيئة .

وكذلك تقدم حديث «من قتل عصفورا عشا عج إلى الله يوم القيمة ، يقول : يا رب ، إن فلانا قتلني عشا ، ولم يقتلني منفعة» رواه أحمد والنسائي وابن حبان في صحيحه .

وهذا القتل العبشي للحيوانات ، لغير منفعة تطلب من ورائها : نوع من الإفساد في الأرض ، تستنزف به الموارد ، بلا موجب .

كما جاءت أحاديث أخرى تنهى عن إفساد الماء ، بتلوينه بالبول فيه ، وقد مضى الحديث عنها في (خطر التلوث) .

وفي عصرنا نجد ألوانا من الإفساد في الأرض أشد خطرا ، وأوسع أثرا ،

من الأفراد ومن الأمم، واستكبارهم في الأرض بغير الحق، وعدوانهم على الموارد لغير ضرورة ولا حاجة، إلا الأشر والبطر، والكفران بنعمة الله عز وجل.

فعدوا على المساحات الخضراء، وعدوا على الغابات، وعدوا على مياه الأنهر فلوثوها، فأمست لا تصلح للشرب، ولا تصلح للاستحمام، بل عدوا على البحار المالحة نفسها على سعتها، فأثروا على أحياها المائية، وأصابوا كثيرا منها بسموم ضارة، بل قاتلة، وهذه يأكلها الإنسان، فيصاب بسبب أكلها بما يهدد صحته أو حياته.

وهكذا أضر الإنسان بالبيئة، فأضر بنفسه في النهاية، وصدق الله العظيم إذ يقول : «**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُدِيقُهُمْ بَعْضُ الَّذِي عَمِلُوا لَعْلَهُمْ يَرْجِعُونَ**» (الروم : ٤١).

#### ضرورة ترشيد استهلاك الموارد :

إن قضية (استنزاف الموارد) وما تمثله من خطر على البشرية في مستقبلها، لا تعالج معالجة جزئية أو آنية أو إقليمية، بل يجب أن تعالج معالجة جذرية، مؤسسة على تصحيح المفاهيم والأفكار، قبل تصحيح الممارسات العملية.

وأول ما يجب أن نصححه هنا يتمثل في الآتي :

#### الإنسان مستخلف في الأرض وليس إلهها :

أولاً : ألا ينظر الإنسان إلى نفسه، وكأنه إله يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ولا يسأل عما يفعل ، بل يجب عليه أن يتصرف في هذا العالم باعتبار أنه مخلوق لخالق هذا الكون ، ومربيوب له ، ومستخلف منه في هذه الأرض التي هي أرض الله ، وملك الله .

فإذا عاش الإنسان في الأرض بعقلية المستخلف فيها ، لا السيد المالك لها ،

الحاكم فيها بأمره، المنفرد بالتصرف فيها بسلطانه، عاش محافظاً على موارد她的 وطبياتها وكل ما فيها، لأنه سيسأل عنها أمام الله تعالى، فهي داخلة في دائرة (مسئوليته). كما جاء في الحديث الصحيح: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» متفق عليه.

ومسئولية الإنسان هنا عن نفسه وعن أهله، وعن ماله، وعن صحته، وعن كل ما حوله من الله تعالى. كما قال تعالى: ﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر : ٨).

ومسئولية هذا يكون أمام الله تعالى قبل كل شيء، كما قال تعالى: ﴿فَوَرِبِّكَ لَتَسْأَلُنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٩٢ ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ٩٣ (الحجر: ٩٢-٩٣). وبالتالي يكون مسؤولاً أمام ضميره الديني، الذي تكون لديه من مراقبة الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى. والذي قال في كتابه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَأَللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الحديد: ٣).

وهي مسئولية أيضاً أمام الضمير الاجتماعي للأمة، التي تملك حق توجيهه ونصحه وتسديده إذا أخطأ، وتقويه إذا اعوج، وتغيير ما يقترفه من منكر في حقها أو حق نفسه، باليد أو باللسان أو بالقلب حسب الاستطاعة. وذلك بما للأمة من ولاية بعضها على بعض بمقتضى عقد الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أُولَيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (التوبه: ٧١).

الموارد نعمه يعجب أن تشكر،

ثانياً: أن ينظر الإنسان إلى موارد البيئة على أنها (نعم من الله) عليه، فالله سبحانه هو الذي خلقها فسوها، وهو الذي هيأها لتكون في خدمته ومصلحته، وهو الذي تولى رعايتها بستنه الكونية حتى تؤدي مهمتها. وهذه حقائق ملموسة ومقطوع بها، ولا يشكك فيها أحد.

ومن حق كل نعمة أن تقابل بالشكر، حتى يحفظها واهبها سبحانه على من أottiها ويزيدتها، أما إذا قويت بالكفران، فإنها تتعرض للزوال والضياع، ويترسخ كافر النعمة لعذاب الله تعالى ونقمته. كما قال الله في كتابه: ﴿وَإِذْ تَأْذُنَ رَبُّكُمْ لَعْنَ شَكْرَتْمُ لَا زِيَّدَتْكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (ابراهيم: ٧).

ولقد قص القرآن الكريم أكثر من قصة فيها عبرة وذكرى لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

مثل قصة صاحب الجتين، الذي كفر نعمة الله فيما أotti، فأهلك الله جنته، ﴿وَأَحِيطَ بِغَمْرَهِ فَاصْبَحَ يُقْلِبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَّةٌ عَلَىٰ عَرْوَشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾ (الكهف: ٤٢، ٤٣).

ومثله قارون الذي آتاه الله من الكنوز، ولكنه بغي على قومه، وتجبر عليهم، ولم يستمع إلى نصائحهم له ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَسْنَسْ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ (القصص: ٧٦، ٧٧).

وكانت عاقبة بغيه وطغيانه وكفره بنعمة الله عليه، أن خسف الله به وبداره الأرض ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِتْنَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ (القصص: ٨١).

ومثله قوم سبا الذين آتاهم الله جنتين عن يمين وشمال، ولكنهم لم يقوموا بشكر النعمة والحفظ عليها ﴿فَأَغْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِيمِ وَبَدَلْنَاهُمْ بِجَنَّتِهِمْ جَنَّتِينِ ذَوَاتِي أَكْلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ ﴿١٧﴾﴾ (سبا: ١٦، ١٧).

الموارد أمانة يجب أن ترعن؛

ثالثاً : الموارد كذلك أمانة وديعة ، اتمن الله عليها الإنسان ، وأمره بحفظها وحسن رعايتها ، فلا يجوز له التفريط فيها ، وتعريفها للضياع ، فذلك خيانة لأمانة الله عنده .

ونحن حين نقرأ القرآن نجده يقرر أن الإنسان هو حامل (الأمانة الكبرى) التي عرضت على الأجرام العظيمة ، فلم تحملها ، وحملها هو ، وهي (أمانة التكليف الإلهي) ، كما قال تعالى : «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيَّنَ أَن يَحْمِلُنَا وَأَشْفَقُنَا مِنْهَا وَحَمَلَهَا إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا» (الأحزاب : ٧٢) .

وما دام الإنسان قد حمل الأمانة فواجبه أن يصونها ويحفظها ولا يخونها ، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (الأنفال : ٢٧) .

«إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤْدُوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا» (النساء : ٥٨) . وقد جعل القرآن من صفات المؤمنين المفلحين : «وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ» (المؤمنون : ٨) .

وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم من صفات المنافق : أنه «إذا أوثقنا خان»<sup>(١)</sup> .

وقال صلى الله عليه وسلم : «لا إيمان لمن لا أمانة له»<sup>(٢)</sup> .

والأمانة تشمل كل ما أوثقنا عليه الإنسان من مال وولد ، ومن ماديات ومعنويات ، ولهذا ورد أنها أثقل شيء في الدين . وهي بالقطع تشمل (موارد

(١) متفق عليه عن ابن عمرو .

(٢) رواه أحمد وابن حبان عن أنس ، كما في صحيح الجامع الصغير (٧١٧٩) .

البيئة) فهي من الأمانات التي حملها الإنسان، فإذا حفظها حفظه الله، وإذا ضيّعها ضيّعه الله، وكان من الخائبين، الذين لا يحبهم الله تعالى، كما قال في كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِيْن﴾ (الأنفال: ٥٨).

وما أكثر الخيانات التي نراها اليوم من الناس لأمانات الله في البيئة، وما أكثر ما أضاعوها، فحققت عليهم كلمة العذاب، واستحقوا ساعة الهالك، فقد جاء في الصحيح: «إذا ضيّعت الأمانة فانتظر الساعة».

#### الموارد من حقوق الله:

رابعاً: إن الموارد البيئية من حقوق الله تعالى على عباده. ومعنى: أنها من حقوق الله، أنها لا تتعلق بحق فرد معين أو فئة معينة من الناس، بل هي حق عام، يتعلق بالجماعة كلها، بل قد يتصل بالبشرية كافة، بل قد يتصل بغير البشر من المخلوقات من الكائنات الحية كالحيوانات والنباتات.

بل قد يتصل هذا الحق بغير الأحياء، أعني: بالكون كله بأرضه وبحاره وأفلاكه.

فإن الإساءة إلى هذه الموارد قد يؤذى الإنسان أياً كان وطنه، أو كان عرقه، أو لونه أو طبقته. وقد يؤذى الحيوانات والطيور بعذوان الإنسان على مواردها التي تتغذى منها أو يعيش فيها، أو تهاجر إليها.

وقد يؤذى النباتات التي ليس لها مالك خاص، في الغابات ونحوها، فيقطعها لغير حاجة، إلا التلهي والعبث، أو الترف، والإسراف.

وهذا سر الوعيد الشديد الذي جاء في الأحاديث النبوية، فيمن قتل عصفوراً عبثاً، ولغير منفعة، وفيمن قطع شجرة سدر في البرية. فهذا لم يعتد على مالك معين، ولكنه اعتدى على عناصر في البيئة هي من مخلوقات الله، التي لم يسلط الإنسان عليها إلا بحق.

ومن هنا يقول المسلم إذا أراد أن يذبح حيواناً: (بسم الله) وقد نهاه القرآن

أن يأكل مما لم يذكر اسم الله عليه ﴿وَلَا تأكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكُرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ (الأنعام: ١٢١).

وذكر اسم الله هنا كأنما يقول الذابح: أنا لم أذبح هذا الحيوان تسلطاً مني، بل بإذن إلهي لي، الذي أباح لي أن أذبحه لأكله، فأننا أذبحه باسمه تبارك وتعالى.

إن مزية الإنسان المؤمن أنه يعلم أن لله تعالى حقاً في كل شيء، قل أو كثر، صغر أو أكبر. وحق الله سبحانه يقتضي أن نعامل هذا الشيء بالإحسان، فإن الله كتب الإحسان على كل شيء. ومن الإحسان الواجب: أن يرعاه فلا يهمله، وأن يحفظه فلا يضيعه، وأن يتبع له الفرصة لبلوغ كماله المقدر لنوعه، وأن يجنبه الآفات التي تعوق مسيرته، أو تفسد عليه وظيفته.

وهذه ليست قضية قانونية، بقدر ما هي قضية دينية أخلاقية، وحارسها هو الضمير الديني للإنسان، الذي يخشى الله، ويخاف حسابه، ويعلم أنه سيجزي كل نفس بما كسبت.

هذا الضمير الديني الذي عبرت عنه الفتاة الصغيرة التي قالت لأمها حين أرادت أن تغش اللبن بخلطه بالماء، وقد نهى عنها أمير المؤمنين عمر، وهو لن يرى هذا الخلط، قالت الابنة: يا أماه، إذا كان أمير المؤمنين لا يرانا، فإن رب أمير المؤمنين يرانا!

إن الوعي بحقوق الله على خلقه، وبيان هذه الحقوق يجب أن ترعنى، وأن الله تعالى سائل كل مكلف عنها: ينشئ شعوراً ودافعاً قوياً من داخل الإنسان ذاته، يحفز الإنسان على عمل الخير، واجتناب الشر، و يجعل من الإنسان رقابة ذاتية على تصرفاته، وإذا فرط في حق الله على الأشياء، عاقبته عقوبة سريعة غير مؤجلة، بلذع الضمير وتأدبه، وهو ما سماه القرآن (النفس اللوامة).

## ٣- خطراً ختلال التوازن

ومن الأخطار التي أمست تهدد البيئة : اختلال التوازن بين عناصرها .  
فقد بينا من قبل أن الله تعالى خلق البيئة متوازنة ومتكاملة ، بل خلق الكون  
كله كذلك .

هذا ما أثبتته القرآن الكريم في مواطن كثيرة ، ذكرنا بعضها فيما سبق ، وما  
أيده العلم الحديث ، والواجب على الإنسان أن يرعى هذا التوازن البيئي ،  
والتوازن الكوني ، ولا يخل به ، ويخرج به عن فطرته التي فطره الله عليها .  
فيحدث الفساد في الأرض ، الذي نهاء الله تعالى عنه : «**وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا**» (الأعراف : ٥٦) .

قال أبو حيان في تفسير الآية : هذا نهي عن وقوع الفساد في الأرض ،  
وإدخال ماهيته في الوجود بجميع أنواعه ، من إفساد النفوس والأموال  
والأنساب والعقول والأديان ، ومعنى (بعد إصلاحها) : بعد أن أصلح الله  
خلقها على الوجه الملائم لمنافع الخلق ، ومصالح المخلفين<sup>(١)</sup> اهـ .

وقد ذكر تعالى في سورة الرحمن هذا التوازن الكوني بقوله : «**الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يُحسِبَانِ ۚ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۚ وَالسَّمَاءُ رَفِعَهَا وَوَضَعَهَا  
الْمِيزَانُ ۚ أَلَا تَطْغُوا فِي الْمِيزَانِ ۚ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا  
الْمِيزَانَ ۚ**» (الرحمن : ٩ - ٥) .

فأمرنا بإقامة الوزن بالقسط والعدل ، ونهانا عن الطغيان والإحسار في  
الميزان ، وإنما المطلوب هو المنهج الوسط في كل شيء : لا إفراط ولا تفريط .  
أو بالعبارة القرآنية : لا طغيان ولا إحسار .

(١) انظر : تفسير البحر المحيط (٤ / ٣١١، ٣١٢) نشر مكتبة النصر للحديث بالرياض .

ولكن الإنسان لم يسلك المنهج الوسط، كما أمره الله سبحانه، بل طغى وأخسر في الميزان، وجار على الطبيعة التي خلقها الله طاهرة فلوثها، وخلقها متوازنة، فأخذ بتوازنها، ولا سيما في عصر الصناعة الثاني، وعصر التكنولوجيا المتطرفة، وعصر الهندسة الوراثية، والاستنساخ.

ولنذكر هنا بعض آثار هذا الاختلال في بيئه العالم اليوم، وهو ما يشكو منه أولو الألباب في كل مكان.

#### ١. التغيرات الجوهرية في المناخ العام:

من آثار هذا الاختلال في توازن البيئة: التغيرات الجوهرية التي أصبحت ملحوظة في المناخ العام.

فلقد أدت إقامة السدود وإنشاء الخزانات على مجاري الأنهار أو الأودية إلى إحداث تغييرات جوهرية في المناخ العام لتلك البيئات التي توجد بها، ولقد تمثل ذلك في ارتفاع معدلات البحر والرطوبة النسبية، هذا فضلاً عن التأثيرات الضارة بالقشرة الأرضية السطحية في هذه المناطق، وقد تمثل ذلك في حدوث فوالق وزلزال حسبما تشير إليه بعض النظريات الجيولوجية الحديثة، ومن ذلك ما حدث في منطقة بحيرة السد العالي وما جاورها من بعض مناطق محافظة أسوان في أوائل الثمانينيات من هذا القرن.

كما قد أدت تلك التغيرات مجتمعة أو منفردة إلى تدمير بيئات مناسبة لمجتمعات حيوانية خاصة، لتحول محلها حيوانات أخرى تناسبها وتتلاءم معيشتها مع تلك الظروف البيئية الجديدة.

#### ٢. التصحر:

معنى التصحر وأسبابه:

التصحر: مصطلح حديث يقصد به زحف العوامل الطبيعية (الرماد، الثلوج، الرياح أو الحرارة) على الأرض الزراعية بصورة تؤدي إلى اكتساحها فتتحول في النهاية إلى أرض متدهورة إنتاجياً وطبيعياً.

### **أسباب طبيعية:**

تمثل تلك الأسباب اللاحادية في التغيرات المناخية القاسية، كالبرودة أو الحرارة الشديدة القاسية، وكالأمطار الغزيرة أو الجفاف المميت والرياح العاصفة المدمرة والفيضانات المائية المغرقة التي تؤدي إما إلى جرف الطبقة السطحية من التربة أو ردمها بالرمال المتحركة، وهذه العوامل في الغالب الأعم جند من جند الله يسلطها على من يشاء من عباده، فهي آيات دالة على قدرة الله وحده، لا راد لها ولا مخفف لخدتها إلا هو، ولذلك فإننا نجد في الشريعة الإسلامية صلوات خاصة بمثل هذه الفوائج، كصلاة الاستسقاء، وصلوة الخوف، وصلوة الحاجة، وقد حدث في عهد سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - جدب ومجاعة أجهدت الناس، واستمرت عاماً كاملاً سمي "عام الرماد" لأن وجه الأرض قد تغير وأغبر وصار رماداً، وكانت مذكراً قوياً بالله، حيث لهجت الألسنة بالضراعة لله والرجوع إليه، فهو الذي يكشف السوء.

### **أسباب آدمية:**

وتتمثل هذه الأمور في اليأس الإنسانية العابثة، والتي تصدر عن فكر قاصر، يزين للناس التدخل في الأنظمة البيئية المحكمة والمتوازنة بصورة أناانية وجامحة، مما أدى إلى إرباكها وتدهورها وإصابتها في مقتل.

### **أخطار التصحر:**

تمثل هذه الأخطار في تلك الأرقام والإحصاءات التي تدل بوضوح على ما يلتهمه غول التصحر سنوياً من مقدرات الحياة الطبيعية فيما يلي :

- تدهور ٢١ مليوناً من الهكتارات من الأراضي الزراعية، بحيث أصبحت زراعتها غير مجده اقتصادياً.
- يسبب التصحر خسائر اقتصادية تقدر بنحو ٢٦ ألف مليون دولار سنوياً.

● يقدر معدل زحف الصحراء في السودان بنحو ١٠ كيلو مترات سنوياً، كما يقدر معدل انخفاض الغابات في المغرب بنحو ٣٠ ألف هكتار في الفترة من ١٩٤٠ إلى ١٩٨١م، أما في تونس فقد بلغ معدل انخفاض غابات الصنوبر نحو ١٨٠٠ هكتار سنوياً.

وقد بلغ معدل تدمير الغابات في العالم فداناً واحداً في كل ثانية، كما بلغ عدد السكان المتضررين من التصحر ٥٧ مليون شخص طبقاً لإحصاء عام ١٩٧٧م، في حين ارتفع هذا المعدل إلى ١٣٥ مليون نسمة طبقاً لإحصاء عام ١٩٨٤م<sup>(١)</sup> فكم يكون العدد الآن، ونحن في سنة ٢٠٠٠.

وقد كتب أحد الباحثين كتاباً جعل جزءاً من عنوانه (الطبيعة بين فكي الوحش : التلوث والتصحر).

### ٢. الأضرار المناخية (ارتفاع حرارة الأرض)،

ومن اختلال التوازن: ارتفاع حرارة الأرض، وهو من الأضرار المناخية، التي غداً جماهير الناس يلمسوها في حياتهم وأثرها عليهم.

فلقد أدى الاستهلاك الهائل والمذهل لمليين الأطنان من الوقود يومياً في المجتمعات الصناعية، إلى تصاعد ملايين الأطنان من غازات ثاني أكسيد الكربون والميثان وغيرها من الملوثات، مما قد يؤدي إلى رفع درجة حرارة الأرض بمرور الوقت، وقد حذر العالم الأميركي «جييمس هانسن» مدير معهد «جودارد» لدراسة الفضاء من خطورة ارتفاع درجة حرارة الأرض، نظراً للتصاعد المستمر لغاز ثاني أكسيد الكربون والميثان والملوثات الأخرى، وكان هذا التحذير في عام ١٩٨٨، وتفسير ذلك هو أن تراكم هذه الغازات يؤدي إلى تكوين ما يشبه الحاجز الزجاجي للغلاف الجوي للأرض، مما يسمح بدخول أشعة الشمس ويحول في نفس الوقت دون خروج معظمها وإعادتها إلى الفضاء، وهو ما يعرف بظاهرة (الصوبية).

---

(١) انظر: البيئة في الفكر الإنساني والواقع الإنساني ص ٥٨ - ٦٠.

#### **٤. ارتفاع مستوى سطح مياه البحر:**

ولهذه المشكلة صلة قوية بالمشكلة السابقة، حيث يترتب على ارتفاع درجة حرارة الأرض إذابة الجليد في المناطق القطبية، فيرتفع مستوى سطح مياه البحر ليغمر المدن الساحلية ومصبات الأنهار.

#### **٥. هطول الأمطار الحمضية:**

وقد لوحظ هطول تلك الأمطار فوق أراضي كثيرة من الدول الصناعية والدول المجاورة لها، حيث تسبب أكسيد التتروجين والكبريت الناتجة من حرق الوقود في تكوين هذه الأمطار الحمضية، وقد دقت نواقيس الإنذار لأول مرة حول زيادة حموضة التربes في أوروبا وشرق أمريكا الشمالية عام ١٩٦٠ م، ويعتبر المطر الحمضي ناتجاً مباشراً للقيام بتنقية الجو بتنظيف نفسه، إذ تقوم قطرات الصغيرة من الماء والتي تكون الغيوم بامتصاص الجسيمات المعلقة وأثار الغاز المذابة باستمرار، ومع تكشف هذه الرواسب في مياه الغيوم، فإنها تغسل الملوثات وتزيلها من المحيط الجوي، ولا يمكن إزالة جميع بقايا الغازات بالترسيب، حيث نجد أن ثاني أكسيد الكبريت ( $\text{SO}_2$ ) وأكسيد النيتروجين المنبعثة في الجو تحول كيميائياً إلى مركبات تندمج بسهولة مع قطرات الغيوم كأحماض الكبريتيك ( $\text{H}_2\text{SO}_4$ ) والنتراتي ( $\text{HN}_3\text{O}_3$ ) وما يزيد من سرعة هذه التفاعلات جزيئات الأوزون ( $\text{O}_3$ ) سواء القادمة من طبقة (Stratosphere) أو تلك التي تتكون في الطبقات السفلية من المحيط الجوي، وخاصة طبقة (Troposphere) بتأثير الملوثات التي تحتوي على النيتروجين والكبريت.

#### **٦. تآكل الأذون:**

تساعد مركبات الكلورووفلوروكربون المستخدمة في أجهزة التبريد، وفي عبوات مستحضرات التجميل والمبىدات والمواد الرغوية المستخدمة في إطفاء الحريق، تساعد على تآكل طبقة الأوزون التي أشرنا إليها من قبل، فيترتب على ذلك آثار بيئية خطيرة<sup>(١)</sup>.

---

(١) انظر: البيئة في الفكر الإنساني والواقع الإيماني.

(٤)

### **بماذا تفسد البيئة؟**

**ظهور الفساد في البر والبحر وأسبابه:**

- ١- تغيير خلق الله.
- ٢- الظلم.
- ٣- العلو في الأرض.
- ٤- اتباع الهوى.
- ٥- الانحراف عن الميزان الكوني.
- ٦- الكفر بأنعم الله.

## بماذا تفسد البيئة وتتلوث؟

من المباحث المهمة هنا: البحث عن الأسباب والعوامل التي تؤدي إلى فساد البيئة وتلوثها واحتلال توازنها، وانقلابها نعمة على الإنسان، بعد أن كانت نعمة له، ورحمة به.

والنظرية الإسلامية هنا واضحة تمام الوضوح، وهي: أن تصرفات الإنسان المنحرفة هي السبب الأول وراء ذلك.

وفي هذا يقول الله تعالى: «**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**» (الروم: ٤١).

والفساد المذكور في هذه الآية الكريمة لا يراد به الفساد المعنوي من المعاصي والمنكرات وعمل السيئات، فإن هذا هو سبب الفساد، المذكور في قوله تعالى في الآية (بما كسبت أيدي الناس).

فالفساد هنا هو التبيحة والشمرة المرة لما كسبت أيدي الناس من المعاصي والمجاودات الأخلاقية.

ولهذا فسروا الفساد في البر والبحر - كما في (روح المعاني) للآلوزي<sup>(١)</sup> - بالجدب والموتان وكثرة الحرق والغرق، وإخفاق الصيادين، ومحق البركات من كل شيء وقلة المنافع في الجملة، وكثرة المضار.

وقال الطاهر بن عاشور في تفسيره:

**«وفساد البر يكون بفقدان منافعه وحدوث مضاره، مثل حبس الأقوات من**

<sup>(١)</sup> ج ٤٧ / طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الزرع والشمار والكلا، وفي موتان الحيوان المتفق به، وفي انتقال الوراثة التي تصاد من جراء قحط الأرض إلى أرضين أخرى، وفي حدوث الجواح من جراد وحشرات وأمراض.

وفساد البحر كذلك يظهر في تعطيل منافعه من قلة الحيتان واللؤلؤ والمرجان (فقد كانا من أعظم موارد بلاد العرب)، وكثرة الزوايغ الحائلة عن الأسفار في البحر، ونضوب مياه الأنهر وأنجاس فيضانها الذي به يستقي الناس».

ويجوز أن يكون المعنى أن الله تعالى خلق العالم على نظام مُحكم ملائم صالح للناس فأحدث الإنسان فيه أعمالا سيئة مفسدة، فكانت وسائل لأمثالها:

وَهُلْ يَنْبَتُ الْخَطْمَىٰ إِلَّا وَشَيْجَهُ؟

فأخذ الاختلال يتطرق إلى نظام العالم قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا إِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۖ ثُمَّ رَدَّنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۚ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (التين: ٦-٤) <sup>(١)</sup>.

وي يكن أن نضيف في عصرنا مع فساد البر والبحر: فساد الجو أيضا، فهو من عناصر البيئة الرئيسية، وقد أدخلنا عليه كثيرا من ألوان الفساد في عصرنا.

بين القرآن أن ظهور الفساد في البر والبحر إنما هو (بما كسبت أيدي الناس) أي ليس ظلما من الله لهم، وإنما هم الذي جنوا على أنفسهم ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (آل عمران: ١٨٢).

وقد قرر القرآن هذه الحقيقة بجلاء: أن كل ما يصيب الناس من بلاء وكوارث في هذه الدنيا إنما هو بسوء أفعالهم، وصنع أيديهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنِ كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٣٠).

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٢١/١١٠-١١٢) بتصرف.

ومعنى أنه (يعفو عن كثير) أنه لا يؤخذ الناس بكل ما كسبت أيديهم، لأنه لو فعل ذلك لهلك كل من في الأرض بذنبهم، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَأْبٍ ﴾ (النحل: ٦١) ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهِيرَهَا مِنْ دَأْبٍ ﴾ (فاطر: ٤٥) .

ولهذا قالت الآية التي معنا ﴿ لِيَدِيقُهُمْ بَعْضُ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم: ٤١) أي أنه سبحانه لا يؤخذهم بكل ما عملوا، وإنما يديقهم جزاء بعض ما عملوا، ويعفو عن كثير، فضلا منه ورحمة .

ومن لطائف ما في هذه الآية أنه تعالى ختمها بقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم: ٤١) أي أن الله تعالى حين ينزل بأسه ببعض عباده بسبب ما اقترفوا من معاصي وموبقات ، لا يفعل ذلك انتقاما منهم ، بل أدبا لهم ، وتنبيها لهم من غفلتهم ، لعل هذا الأدب الإلهي يوقظهم من سباتهم ، ويردهم بعد شرود إلى ربهم ، ولি�قولوا ما قال أبواهم آدم وزوجه : ﴿ قَالَ رَبُّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (الأعراف: ٢٣) .

إن فساد البيئة إنما هو من فساد الإنسان ، ولن تصلح البيئة إلا إذا صلح الإنسان . ولن يصلح الإنسان إلا إذا صلحت نفسه التي بين جنبيه ، أي صلح عقله وضميره ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُولُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد: ١١) .

#### ١- تغيير خلق الله :

ومن أعظم ما يفسد البيئة ، ويخرجها عن طبيعتها المهيأة لصلاح الإنسان : ما عبر عنه القرآن أبلغ التعبير ، وهو «تغيير خلق الله» أو بتعبير آخر : تغيير (الفطرة) التي فطر الله الناس ، وقطر الأشياء عليها .

وهو ما توعد به الشيطان اللعين أن يفسد به بني آدم ويضلهم عن طريقهم ، حين قال : ﴿ وَلَا أَضِلُّنَّهُمْ وَلَا مُنِيبُهُمْ وَلَا مُرْتَهِنُهُمْ فَلَيَسْتَكُنُ آذَانُ الْأَنْعَامِ وَلَا مُرْتَهِنُهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ

**خَلَقَ اللَّهُ وَمَنْ يَتَّخِدُ الشَّيْطَانَ وَلَيْاً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرًا نَّارِيًّا مُبِينًا** ﴿١١٩﴾ .

تبنيك آذان الأنعام الذي ذكره الشيطان، هو نوع من التغيير والإضلال الذي لبس به الشيطان على الإنسان، وأدخله في أودية الضلالات والأوهام، ولا سيما فيما يتعلق بالأنعام فجعل منها البحيرة والسائلة والوصيلة والحاامي، وحرموا منها وحللوا، ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرَثٌ حَجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءَ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِمتَ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذَكُّرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتَرَأَ عَلَيْهِ سَيِّجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ إلى أن قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتَرَأَ عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهَتَّدِينَ﴾ (الأنعام: ١٣٨ - ١٤٠)

وأي خسارة أفدح من أن يستحل الإنسان المحرمات الكبيرة القاطعة مثل قتل ولده وفلدة كبدته، كما كانوا يتذدون البنات، وأن يحرم الحلال الطيب مثل الأنعام التي خلقها الله للإنسان، وجعلها رزقا له ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهَتَّدِينَ﴾.

**﴿وَلَا مُرْنَاهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾** (النساء: ١١٩) هذا هو ما توعد به الشيطان ونفذه للأسف في الكثيرين من بني الإنسان. **﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَهِّ** فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين ﴿سباء: ٢٠﴾ .

تغيير خلق الله، يعني: خروج الإنسان من سوء الفطرة واستقامتها إلى الميل والانحراف إلى اليمين وإلى اليسار.

إذا خرج الإنسان عن فطرة الله تعالى في نفسه، وفطرة الله في الأشياء المخلوقة من حوله، فسيضيع ويشقى، ويجد سنن الله تعالى في الكون وفي الإنسان ضده.

وهكذا كل من خرج على الفطرة عاقبته الفطرة نفسها، وعاقبه القدر

الأعلى أيضاً، ويبيّن عقاب الله تعالى المرتقب في الآخرة (ولعذاب الآخرة أشد وأخزى).

إن الذي حول الإنسان من بشر مكرم إلى آلة صماء، قد غير فطرة الله، وغير خلق الله سبحانه.

والذي حول الإنسان إلى سبع مفترس، أو إلى حيوان شره، لا هم له إلا بطنه وشهوته، قد غير فطرة الله، وغير خلق الله.

والذي حول الإنسان المنتج المكلف بعمارة الأرض، إلى مجرد مستهلك، ومستهلك يُسراف، قد غير فطرة الله، وغير خلق الله.

والذي حول الماء الذي أنزله الله من السماء ماء طهوراً إلى ماء ملوث بخلافات المصانع وغيرها، قد غير فطرة الله، وغير خلق الله.

والذي حول النبات الطبيعي النافع إلى نبات ضار بواسطة الكيماويات، قد غير فطرة الله، وغير خلق الله.

والذي حول الهواء الذي صرفه الله بين السماء والأرض، والذي خلقه الله نافعاً للناس، إلى هواء ملوث بأثار ما صنع الإنسان وتجاوز فيه، قد غير فطرة الله، وغير خلق الله.

والذي حول البقر وغيره من الأنعام من حيوان أكل للعشب إلى حيوان يطعم البروتينات الحيوانية المصنعة، حتى أدى إلى جنون البقر وغيره، قد غير فطرة الله، وغير خلق الله.

والذي غير التربة التي خلقها الله صالحة للإنبات وللسكنى إلى تربة ملوثة، قد غير فطرة الله، وغير خلق الله.

والذي غير طبيعة الأرض كلها، التي جعلها الله لأهلها مهاداً وفراشاً وبساطاً ومستقراً، إلى أرض مهددة بالاضطراب والدمار من كل جانب، قد غير فطرة الله، وغير خلق الله.

والذي أجرى التجارب النووية في باطن الأرض ، ولوث ظاهرها بالنفايات الذرية ، والإشعاعات الضارة ، قد غير فطرة الله ، وغير خلق الله .  
وما أكثر ما أفسد الإنسان حينما استجاب لنداء الشيطان وأمره للناس أن يغيروا خلق الله ، فأطاعوه واتبعوه ، فخسروا خساراناً مبيناً .

## ٢- الظلم،

ومن أعظم ما يؤدي إلى فساد البر والبحر أو فساد البيئة : الظلم . سواء أكان ظلم الإنسان لنفسه ، أم ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، أم ظلم الإنسان للبيئة وعنابرها ومكوناتها المختلفة من الحيوانات والنباتات والجمادات من التربية والماء والهواء وغيرها .

وإذا كان العدل والإحسان مطلوبين من الإنسان أبداً في التعامل مع البيئة باعتبارهما مما أمر الله تعالى به وفرضه على عباده ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ (النحل: ٩١) .

فإن الظلم والإساءة مما حرم الله تعالى على عباده ، في التعامل مع عناصر البيئة ، كما في التعامل مع الإنسان .

والظلم من الذنوب التي يعجل الله العقوبة عليها في الدنيا قبل الآخرة ، حتى لا يتمادي الظالمون في ظلمهم ، وخصوصاً ظلم المستضعفين من الناس ، الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ، ولا يجدون من يساندهم أو يدافعوا عنهم ، هنا يتکفل القدر الأعلى بالثار لهم والدفاع عنهم .

اقرأ معي قول الله تعالى : ﴿وَتَلَكَ الْقَرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لَمَهْلِكَهُمْ مَوْعِدًا﴾ (الكهف: ٥٩) ﴿وَفَتَلَكَ بَيْوَهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (النمل: ٥٢) .

﴿كَمَثَلَ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرَثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكْتَهُمْ وَمَا ظَلَمُهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١١٧) .

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره: إن الله يبقي الدولة الكافرة إذا كانت عادلة، ويزيل الدولة المسلمة إذا كانت ظالمة، أي أن الظالم لا ينفعه إسلامه، بعد أن قضى عليه ظلمه وبغيه علىخلق ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا يَغْيِرُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم﴾ (يوسوس: ٢٣).

وقد قال تعالى في كتابه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيَهْلِكَ الْقَرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود: ١١٧).

فالصلحون لا يهلكهم الله، وإن لم يكونوا مسلمين، لأن إصلاحهم نفعهم، وأجل عقابهم إلى الآخرة. وقوله تعالى (بظلم) تتحتمل معنيين: الأول: أن يهلكهم ظالم لهم. والثاني: أن يفسر الظلم بالشرك، كما قال تعالى على لسان لقمان ﴿إِنَّ الشَّرِكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣).

فمعنى الآية: وما كان ربك ليهلك القرى بسبب الشرك، وأهلها مصلحون. كأنما تشير الآية إلى أن الشرك إنما يهلك أصحابه إذا اقترن بالفساد والظلم.

### ٣. العلو في الأرض:

ومن أسباب فساد البر والبحر: علو الإنسان في الأرض: أي طغيانه واستكباره بغير الحق، وتجاوزه حده، كما تمثل ذلك في فرعون، الذي قال فيه القرآن: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَى الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٤).

وأي إفساد أعظم من تذبح الذكور، واستحياء الإناث، فهو يريد أن يقضي على هذه السلالة، وسبب ذلك استضعفافها والاستهانة بأمرها. واستعلاؤه عليها، ولذا قال تعالى عنه في سورة أخرى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الدخان: ٣١).

ولا عجب أن أدى به هذا العلو إلى (التأله) وادعاء الربوبية للناس **(فحشر فنادى ٢٣)** **﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾** (النازعات: ٢٤ - ٢٣) وفي سياق آخر قال: **﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عِلِّمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾** (القصص: ٣٨).

إن هذا العلو المستكبر المتأله هو الذي انتهى بفرعون وملئه إلى الهلاك والدمار **﴿وَدَمْرَنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾** (الأعراف: ١٣٧).

وما صنعه فرعون قدما في بلد واحد هو مصر، يصنعه (فرعون الحديث) في بلاد شتى من عالمنا. وفرعون الحديث هنا هو إنسان الحضارة الغربية المعاصر، الذي علا في الأرض و(تأله) فيها، وإن لم يدع الألوهية قوله، فهو يمارسها فعلاً، ويتصرف في هذا الكون تصرف الإله الذي لا يسأل عما يفعل، لأنـهـ كما عبر بعض علمائهم وفلسفتهمـ أصبح مالكا للطبيعة، بعد أن قهرها وانتصر عليها.

#### ٤. اتباع الهوى:

ومن أعظم ما يفسد البيئة كذلك، ويجلب الفساد في البر والبحر والجو: اتباع الإنسان لهواه، وركضه وراء شهواته، وإشباع غرائزه الدنيا، على حساب المثل العليا، وخضوع الإنسان لنداء أنانيته وفرديته، ولو جار ذلك على حقوق غيره، وترجيحه لرغبات يومه، دون التفات إلى غده. فهذا هو الذي ينزل بالإنسان من مخلوق راشد يجعل شهواته تحت سلطان عقله، إلى مجرد حيوان تسيره غريزته، فلا عقل له، ولا ضمير له. وفي هذا يقول القرآن **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَّتُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَشَوِّي لَهُمْ﴾** (محمد: ١٢) وقال عز وجل: **﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهًا هَوَاهُ أَفَإِنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾** **﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامُ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾** (الفرقان: ٤٣، ٤٤).

وإنما كانوا أضل سبيلا من الأنعام لأمرين:

الأول: أن الأنعام لم تؤت ما أوتوا من العقل والإرادة والمواهب الروحية، وبالتالي لم ينزل لها كتاب، ولم يبعث لها رسول.

والثاني: أن الأنعام قد أدت مهمتها المنوط بها، فاتت درها ونسلها، وحملت الأنقال وأثارت الأرض وسقت الحرش، ولم تتمرد على أداء رسالتها يوما.

أما الإنسان فرغم ما أوتي من الملائكة والقدرات، لم يؤد رسالته التي كلف بها، فلا غرو أن يكون أحط من الأنعام، وأضل سبيلا منها.

وإنما أنزل الله كتبه، وبعث رسليه، ليخرجوا الناس من العبودية لأهوائهم إلى العبودية لله وحده، واتباع شريعته، وبغير هذا يحدث الفساد في الكون كله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ اتَّبَعُ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ (المؤمنون: ٧١).

وقال تعالى لنبيه داود ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلُّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (ص: ٢٦).

وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِنْ مَنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ (القصص: ٥٠).

#### ٥- الانحراف عن الميزان الكوني:

ومن أسباب ظهور الفساد في البر والبحر: انحراف الإنسان عن (الميزان الكوني) الذي أقام الله تعالى عليه هذا العالم، فقد خلق كل شيء فيه بقدر، ووضع كل شيء فيه بحساب ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد: ٨) ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدْرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ (المؤمنون: ١٨) ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيًّا وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُوزُونٍ﴾ (الحجر: ١٩).

وآيات كثيرة دلت على أن كل شيء في هذا الكون الكبير مخلوق بمقدار

وميزان، ومن أجل الآيات وأظهرها دلالة على هذا المعنى آيات سورة الرحمن: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۚ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدُانَ ۚ وَالسَّمَاءُ رَفِعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۚ إِلَّا تَطْغُوا فِي الْمِيزَانِ ۚ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۚ﴾ (الرحمن: ٩ - ٥).

فأشارت هذه الآيات إلى الميزان الكوني الذي قرنه الله برفع السماء، ولا يظن ظان أن هذا الميزان هو الذي توزن به الأشياء المشتراء من السوق، فهذا يقرن بالكيل، ولا يقرن برفع السماء.

وأمرت الآيات بإقامة الوزن بالقسط، أي العدل، ونهت عن (الطغيان) في الميزان، وهو الإسراف والإفراط، كما نهت عن (الإحسار) في الميزان، وهو التقصير والتفريط. ومحظوظ هذا هو الوقوف عند حد الوسط والاعتدال. وهو ما تميزت به هذه الأمة ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

وإن الفساد إنما يحدث في الأرض بتجاوز العدل أو القسط، والانحراف إلى الطغيان أو الإحسار.

وإن الخير كل الخير في إقامة الوزن بالقسط في كل شيء، وهو ما بعث الله به رسلاه وأنزل به كتبه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُولَّ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥).

والقسط مطلوب في تعامل الإنسان مع نفسه، وتعامل الإنسان مع أسرته، وتعامل الإنسان مع قومه، وتعامل الإنسان مع خصومه، فلا يجوز أن ينحرف الإنسان عن القسط لعاطفة محبة أو عداوة ﴿كُونُوا قَوَامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ (النساء: ١٣٥) ﴿وَلَا يَجْرِيَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ إِلَّا تَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨).

وكذلك يتطلب القسط في تعامل الإنسان مع البيئة بعناصرها المختلفة، بلا

طغيان ولا إخسار في الميزان ، أي بلا إفراط ولا تفريط . وهذا هو العدل والاعتدال .

فإذا خرج الإنسان عن هذا الحد ، فطغى في الميزان أو أخسر فيه ، فقد أساء وتعدى ، فإذا استمر في ذلك ، ولم يراجع نفسه ، ويشب إلى رشده ، ويتب إلى ربها ، فقد استحق عقوبة الله تعالى ، وكان تجاوزه ذلك سببا في ظهور الفساد في البر والبحر .

#### ٦. الكفر بأنعم الله:

ومن أسباب فساد البيئة أو ظهور الفساد في البر والبحر : الكفران بأنعم الله تعالى . فقد آتى الله الإنسان نعما كثيرة هيأله أسبابها ، ووفر له مصادرها ، ويسر له سبلها ، وكلما كانت حاجته إلى هذه النعم أشد وأكثر ، كان عطاوه تعالى فيها أعظم وأوفر .

حتى إن أعلى النعم وأنفسها وأعظمها عند الإنسان هي أرخصها ، بل هي في الغالب تتوفر له مجانا بلا مقابل ، مثل الماء والهواء ، والشمس والضياء . فإن الله تعالى وفرها للعباد بكميات وافرة ، تفي بمتطلبات الإنسان وحاجاته دون أن يحتكرها أحد ، إلا ظلما ، كالذين يحتكرون الماء العام ، وهو في الأصل ملك للناس كافة .

ييد أن الإنسان لم يرع حق هذه النعم الجليلة ، ولم يؤد شكرها ، كما يجب ، بل استخدمها في غير ما خلقت له ، فعصى الله تعالى بها ، أي أنه اتخذ نعم الله أدوات في معصية الله . وهذا هو الكفران بالنعم ، الذي يؤدي إلى زوالها ، ويوجب لفاعله العقوبة من واهب النعم سبحانه .

وقد قال عز وجل : ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم : ٧) .

فكل من كفر بأنعم الله استحق عذابه جزاء وفاقا ، ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (آل عمران : ١٨٢) .

ولقد أشار القرآن إلى قرية تغير حالها من سعادة إلى شقاوة، ومن أمن إلى خوف، ومن سعة إلى ضيق بسبب هذا الكفران. قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرُتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (النحل: ١١٢).

ومثل هذه القرية القوم الذين أشار إليهم القرآن في سورة أخرى، إذ قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفَرُوا وَأَحْلَلُوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ (إبراهيم: ٢٨).

كما ذكر القرآن لنا قصة سباء، وما من الله به عليهم من نعمة، وكيف قابلوا هذه النعم بالكفران، فكان جزاؤهم هلاكها وحرمانهم منها، كما قال تعالى: ﴿هُلْ لَقَدْ كَانَ لَسِيَاً فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةً جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشَمَائِلٍ كَلُّوا مِنْ رِزْقٍ رِّيْكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةً طَيِّبَةً وَرَبُّ غَفُورٍ﴾ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَاحِيهِمْ جَنَّاتِنِيْ ذَوَاتِيْ أَكْلُوهُ خَمْطِرٌ وَأَثْلِيْ وَشَيْءٌ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٌ﴾ (١٦) ذَلِكَ جَزْيَتَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهُلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ﴾ (١٧) (سبأ: ١٥ - ١٧).

(٥)

## وسائل إسلامية معاصرة لرعاية البيئة

١- تربية الناشئة تربية موصولة بالدين.

٢- تثقيف الكبار تثقيفاً موصولاً بقيم الإسلام.

٣- رقابة الرأي العام بإحياء (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

٤- سلطة التشريع والعقاب.

٥- التعاون مع المؤسسات المحلية والعالمية.

## **وسائل إسلامية معاصرة لرعاية البيئة**

لإسلام وسائل عدّة لحماية البيئة، وتنميّتها وتحسينها، وعلاج مشكلاتها التي أمسى العالم كله يشكو من آثارها.

وهذه الوسائل كلها تتعلّق بدور الإنسان في البيئة، إذ الطبيعة من حولنا بشمسمها وقمرها، وليلها ونهارها، وبحارها وصغارها... لا نستطيع أن نتحكّم فيها، من ناحية، ولأنّها لا مشكلة منها ولا خطر في ذاتها، إنما المشكلة تنبع من صلة الإنسان بها، ونظرته إليها، وتصرّفه فيها، وتعامله معها.

فإذا أصلحنا الإنسان، فقد صلحت الحياة كلها من حوله، وإنما يصلح الإنسان من داخله، لا من خارجه، ومن باطنـه لا من ظاهرـه، ومن نفسه التي بين جنبيـه لا من غلافـه البدنيـ. وهذه سنة ثابتة قررـها القرآنـ الكريمـ حينـ قالـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١) ومن المؤكـدـ: أنه لا يصلحـ الأـنـفـسـ شـيـءـ مثلـ الإـيـانـ، فهوـ سـبـيلـ الـخـلاـصـ، وـطـوقـ النـجـاةـ.

هذه الوسائل الإسلامية تتمثل فيما يليـ :

### **١- تربية الناشئة**

أولـىـ هذهـ الوـسـائـلـ هيـ التـرـيـةـ وـالـتـعـلـيمـ، وـخـصـوصـاـ لـلـنـاشـئـةـ فـيـ الـخـضـانـاتـ وـالـمـارـسـ، بـمـسـتـوـيـاتـهـ الـمـخـلـفـةـ، حـتـىـ الـجـامـعـةـ.

فمن الواجب غرس فكرة العناية بالبيئة والمحافظة عليها، والتعامل معها بـ(الإـحسـانـ) الذي أمرـ اللهـ بهـ، وكتـبهـ علىـ كلـ شـيـءـ، كما جاءـ فيـ الحـدـيـثـ: «إـنـ اللهـ كـتـبـ الـإـحسـانـ عـلـىـ كـلـ شـيـءـ» وـبـ(الـرـفـقـ) الذي يـحـبـهـ اللهـ تعـالـىـ فـيـ الـأـمـرـ كـلـهـ، وـمـا دـخـلـ فـيـ شـيـءـ إـلـاـ زـانـهـ، وـلـاـ نـزـعـ مـنـ شـيـءـ إـلـاـ شـانـهـ.

وبالاعتدال الذي يجعل الإنسان ينتفع بخيرات البيئة بلا شح ولا إسراف، انتفاع عباد الرحمن ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان : ٦٧).

وبشكراً النعمة الذي يجب أن يتصرف به كل مؤمن، فهو الذي يحفظها عليه، بل يزيدها وينميها. وعلى المؤمن أن يقول ما قال سليمان : ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَلُوَّنِي أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبَّيْ غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل : ٤٠).

كما عليه أن يتعامل مع البيئة ومكوناتها بتقوى الله تعالى ، وهي الشعور برقابته عز وجل ، وأنه لا يضيع عنده عمل عامل من ذكر أو أنثى ، وأنه سبحانه سيجزي الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى .

هذه المعاني يجب أن نغرسها في عقول أطفالنا وفي وجدانهم منذ نعومة أظفارهم ، فإن التعليم في الصغر ، كالنقش على الحجر ، وهذه السن هي التي تتكون فيها العادات ، وتكتسب الفضائل أو الرذائل . وقد قال الشاعر :

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت      ولن تلين إذا قومتها الخشب !

ومن اللازم هنا : أن يدخل جزء من (علم البيئة) وضرورة رعايتها والمحافظة عليها في المناهج والكتب الدراسية بالقدر الملائم ، وبالأسلوب المناسب لسن الطالب ومداركه ، وبالطريقة المشوقة التي تشده إلى هذا اللون من الثقافة ، الذي يجب أن يرتبط بالدين ، باعتباره المؤثر الأول في حياة الإنسان عامة ، والمسلم خاصة .

ولا يجوز للأباء والأمهات أن يلقوا كل العبء على المدرسة ، ويتخليا عن واجبهم في الرعاية التربوية ، بل ينبغي أن يتعاون البيت والمدرسة في هذه التربية المنشودة ، بحيث يكمل كل منهما الآخر ، في تنشئة جيل المستقبل ، الذي يؤدي واجبه كما يعرف حقه ، ولا يقتصر على طلب الحقوق ، مع التقصير في الواجبات .

## ٢- التوعية والتثقيف للكبار،

والوسيلة الثانية، هي : التوعية والتثقيف للكبار وللجماهير بصفة عامة، وذلك عن طريق المؤسسات الثقافية التي تعمل على الرقي بفكر الأمة، وتسمو بأذواقها واتجاهاتها العقلية والنفسية، وتصحح مفاهيمها الخاطئة، وتقوم أفكارها المنحرفة ، متعاونة مع أجهزة الإعلام الوعي الهاذف ، الذي يبني ولا يهدم ، ويصلح ولا يفسد ، بحيث ينشئ تصوراً معرفياً بيئياً جديداً منبثقاً من التصور الإسلامي العام لله سبحانه وللإنسان وللكون وللحياة ، والوجود . فالثقافة هي التي تغير الأفكار والأذواق والميول ، وتكون اتجاهات الأفراد، خيرة كانت أم شريرة .

كما لا بد أن يدخل إصلاح البيئة ، والحرص على سلامتها ونماذجها ، وأداؤها لما يطلب منها على الوجه الأمثل . . في مناهج الإعلام مقروءاً ، أو مسموعاً ، أو مرئياً . وأن تعدد برامج ثقافية ملائمة ، على شتى المستويات ، بعضها أكاديمي يصلح للخاصة ، وبعضها جماهيري ينفع العامة .

بل لا بد أن تدخل هذه المعاني والمفاهيم البيئية ضمن الأعمال الدرامية من التمثيليات والمسلسلات ونحوها ، لما فيها من تشويق ، وما لها من تأثير بالغ على الناس .

ولا بد للإعلام الديني أن يقوم بمهنته في التوعية والترشيد والتوجيه ، المعتمد على القرآن والسنة وهذى السلف الصالح ، عن طريق خطبة الجمعة ، ودرس المسجد ، والمحاضرات الدينية ، فلا ريب أن للمسجد تأثيره الكبير على عقول المسلمين وضمائرهم ، إذا تهيأ له الخطيب الصالح الذي يفقه دينه ويفقه عصره .

## ٣- رقابة الرأي العام،

والوسيلة الثالثة، هي : رقابة الرأي العام ، الذي يمثل (الضمير الجماعي) للأمة ، بمقتضى فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، التي ميز الله بها

هذه الأمة ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أَخْرِجْتَ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَاوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

وهو من الأوصاف الأساسية لمجتمع المؤمنين والمؤمنات، كما وصفه الله تعالى في كتابه حيث قال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلَيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَوْلَئِكَ سَيِّرُهُمُ اللَّهُ﴾ (التوبه: ٧١).

فقدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الفرائض المعروفة: الصلاة والزكاة، ليشعر بأهميته في الدين. وبهذا يتكون الضمير الاجتماعي للأمة، وتتقرر رقابة الرأي العام الوعي على أوضاعها، والسهر على استقامتها.

ولا ريب أن إصلاح البيئة ورعايتها من المعروف، وأن إفسادها وتلوثها والاعتداء عليها من المنكر.

ومعنى هذا: أن كل مسلم مسئول مسئولية تضامنية عن سلامه البيئة وصلاحها، وإذا رأى من يجور عليها بتلوث أو إتلاف أو إفساد، وجب عليه أن ينهاه عن ذلك، بل المطلوب أساساً أن يغير هذا المنكر بقدر استطاعته، بيد أنه إن كان ذا سلطة، فإن لم يستطع فببساطة، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان.

وبهذا يحاصر المنكر والفساد حصاراً أديباً، ويبقى في أضيق نطاق ممكن.

ويدخل في هذا المجال: إنشاء (الجمعيات الأهلية) للمحافظة على البيئة، وهذا من التعاون على البر والتقوى. وهذه الجمعيات هي البديل الشعبي عن دور (المحتسب) في عصور الحضارة الإسلامية.

وقد كان (المحتسبون) قد يقومون بهذا الواجب الاجتماعي، وكانوا يفرضون رقابة قوية - بسلطان الشرع - على أفراد المجتمع وطوائفه المختلفة، ومؤسساته المتنوعة، بما لهم من كفاية وأعوان وسلطة فيها طرف من هيبة القضاء، وطرف من قوة الشرطة، وقدرتهم على التنفيذ.

#### ٤- سلطة التشريع والعقاب:

وتبقى الوسيلة الرابعة، وهي : التشريع وسلطة القانون ، الذي يلزم ويعاقب من لا يلتزم ، عن طريقولي الأمر . ولإلى ذلك أشار القرآن بقوله : «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا إِلَيْكُمْ مَّعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُولُوا إِنَّمَا يُنَزَّلُ إِلَيْكُمْ مِّنْ كِتَابٍ يُنَزَّلُ إِلَيْكُمْ وَمِمَّا تَرَكَ الْأَوْلَاءِ وَالْمِيزَانَ أَنْ يَعْلَمَ الْمُحْسِنُونَ وَالْمُنْظَمَاتِ الْمُشَدِّدَاتِ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ» (الحديد: ٢٥) فمن لم يصلحه الكتاب والميزان أصلحه الحديـد ذو البأس الشدـيد . وفي الحديث الصحيح : «كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته»<sup>(١)</sup> .

ولقد قال الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» فإذا كان القرآن ينمـي حـوافـز الإيمـان وينـشـع الضـمائـر الـحـيـة ، فإنـ السـلطـان يـقـفـ بالـمرـصـادـ لـكـلـ مـنـ يـتـجاـوزـ الـحدـودـ .

ولهـذا كانـ لاـ بدـ منـ دـخـولـ المـحـافـظـةـ عـلـىـ الـبـيـثـةـ ، وـمـعـاقـبـةـ مـنـ يـجـورـ عـلـيـهـاـ ، فيـ التـشـريـعـاتـ الـلـازـمـةـ لـلـأـمـةـ .

وعـندـنـاـ مـنـ عـمـومـاتـ النـصـوصـ ، وـمـنـ مـصـالـحـ الـمـرـسـلـةـ ، وـسـدـ الذـرـائـعـ ، وـمـنـ الـقـوـاعـدـ الـفـقـهـيـةـ مـاـ يـعـيـنـنـاـ عـلـىـ إـنـشـاءـ قـانـونـ لـلـبـيـثـةـ ، وـفـقـ هـذـهـ الـقـوـاعـدـ الـشـرـعـيـةـ :

لا ضرر ولا ضرار .. الضرر يزال .. والضرر يدفع بقدر الإمكان .  
يتحمل الضـرـرـ الـأـدـنـىـ لـدـفعـ الـضـرـرـ الـأـعـلـىـ .. يـرـتكـبـ أـخـفـ الـضـرـرـيـنـ .. درـءـ الـمـفـسـدـةـ مـقـدـمـ عـلـىـ جـلـبـ الـمـصـلـحةـ .. مـاـ لـاـ يـتـمـ الـوـاجـبـ إـلـاـ بـهـ فـهـوـ وـاجـبـ .. مـاـ أـبـيـعـ أـدـىـ إـلـىـ الـحـرـامـ .. الـضـرـورـاتـ تـبـيـعـ الـمـحـظـورـاتـ .. مـاـ أـبـيـعـ لـلـضـرـورـةـ يـقـدـرـ بـقـدـرـهـاـ . الـحـاجـةـ تـنـزـلـ مـنـزـلـةـ الـضـرـورـةـ .. مـاـ بـنـيـ عـلـىـ باـطـلـ فـهـوـ باـطـلـ .. الـأـمـورـ يـقـاصـدـهـاـ . الـعـادـةـ مـحـكـمـةـ .. مـاـ قـارـبـ الشـيـءـ يـأـخـذـ حـكـمـهـ .. النـادـرـ لـاـ حـكـمـ لـهـ .. لـلـأـكـثـرـ حـكـمـ الـكـلـ .

إـلـىـ آـخـرـ تـلـكـ الـقـوـاعـدـ الـمـعـرـوفـةـ الـتـيـ أـلـفـتـ فـيـهاـ كـتـبـ .

(١) مـتـفـقـ عـلـيـهـ عـنـ اـبـنـ عـمـرـ .

وعلى الدولة أن تتخذ من الإجراءات الإدارية والاقتصادية، ما يحفظ البيئة، ويرم ما خرب منها، ويصلح ما فسد، إلى جوار الإجراءات الوقائية، التي تمنع الفساد قبل وقوعه.

بالإضافة إلى عقوبة من يعتدي على أي مكون من مكونات البيئة بأي صورة من الصور: بالتلويث أو بالإسراف في الاستهلاك، أو بالإخلال بالتوازن، أو غير ذلك من أشكال الإفساد في الأرض.

ومن المعروف فقها: أن العقوبات نوعان: نصية كالحدود، واجتهادية كالتعزير. وهو عقوبة على كل معصية لا حد فيه ولا كفارة. ولا شك أن منها قضايا العدوان على البيئة.

وعلى أولي الأمر الشرعيين واجبات كثيرة نحو حماية البيئة وتنميتها، وإلزام الأفراد والشركات والمؤسسات بواجبهم نحوها. وإلزامهم بإزالة الأضرار الناشئة عن أعمالهم، وإصلاح الواقع التي تسببو في تدهورها، ودفع تعويضات عن الأضرار التي يحدثونها في الطبيعة ولا يمكن إزالتها أو معالجتها.

وعلى أولي الأمر كذلك إيقاف المشروعات المضرة بالبيئة، وإن كان فيها بعض النفع لأن العبرة بالأغلب. فما كان إثمها أكبر من نفعه فهو محروم. وعليهم عقاب كل من يتعدى أو يقصر في تنفيذ العقود المتعلقة بالبيئة، لأن من أمن العقوبة أساء الأدب.

#### ٥. التعاون مع المؤسسات الإقليمية والعالمية:

والوسيلة الخامسة هي: التعاون مع الجماعات والمؤسسات الأهلية والرسمية الإقليمية والدولية للمحافظة على البيئة، ومقاومة كل ما يهددها من الاستنزاف والتلوث والإفساد، والإخلال بالتوازن الطبيعي والكوني، وهو ما دعا أحد الباحثين أن يؤلف كتاباً جعل عنوانه: «يا سكان الأرض اتحدوا» أي ضد الأخطار الكبرى التي تنذر البشرية بشر مستطير إذا لم يتداركهم الله

برحمته، ويسارعوا إلى العمل معاً لسد الخلل، وترميم الخراب، وإصلاح الفساد، ويد الله مع الجماعة.

ولقد خاطب الله الناس جميعاً بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًا﴾ (فاطر: ٦) فعندما يكون العدو واحداً، يجب أن يتحد الموقف ضده، وشيطاناً اليوم يتمثل في الذين يفسدون البيئة، ويخربونها بقصد أم بغیر قصد. فهم أعداء الإنسانية جميعاً، وعلينا أن نجند كل القوى لمقاومتهم، وردهم إلى رشدهم.

هذه هي الوسائل الأساسية التي يتخدّها الإسلام للمحافظة على البيئة وصلاحها، وهو يرحب بكل وسيلة يبتكرها البشر في هذا المجال، إذا لم يكن فيها ما يخالف قيم الإسلام وشرائعه، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدتها فهو أحق الناس بها.

(٦)

### **رعاية البيئة هي واقعنا التاريخي**

- ١ - رعاية البيئة من خلال مؤسساتنا الحضارية.
- ٢ - رعاية البيئة من خلال التشريع.
- ٣ - رعاية البيئة من خلال نظام الحسبة.

## رعاية البيئة في واقعنا التاريخي

لم تكن التعاليم والأحكام الإسلامية في رعاية البيئة وإصلاحها وحمايتها مجرد أفكار طوباوية، أو مفاهيم فلسفية، أو حبر على ورق كما يقال، بل كانت أوامر إلهية، وتوجيهات ربانية، يجب على المسلمين أن ينفذوها بمقتضى إسلامهم، وبحكم إيمانهم. فليس الإيمان بالتمني ولا بالأدعاء، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَخْسَنَ عَمَلاً﴾ (الكهف: ٣٠).

ولا غرو أن نجد (رعاية البيئة) أمراً ملماوساً ومشهوداً في الواقع التاريخي لحضارتنا الإسلامية، وخصوصاً في عصور ازدهارها.

طبقت ذلك الشعوب والجماهير الإسلامية بمقتضى وعيها الديني، وحسها الإيماني، والتزامها الأخلاقي، ويقينها الراسخ بأن سعادتها في الدنيا، وفلاحها في الآخرة، مرهون بامتثال ما أمر الله به، واجتناب ما نهى الله عنه، وهو سبحانه قد أمرهم بكل خير، ونهى عن كل شر. ومن الخير الذي أمرهم به وحذفهم عليه: العناية بالبيئة وإصلاحها وحمايتها من كل فساد أو تلوث أو إضرار. وما نهياهم عنه الإفساد في الأرض، والخروج عن حد الاعتدال في التعامل مع عناصرها بالطغيان أو الإحسار في الميزان.

## رعاية البيئة من خلال المؤسسات الحضارية:

كما أن (المؤسسات العامة) في الحضارة الإسلامية، كان لها نصيبها في رعاية البيئة والمحافظة عليها.

ومن هذه المؤسسات التي كان لها أثرها ودورها الذي لا يتجدد:

١- مؤسسة الخلافة: أو الإمامة العظمى أو رئاسة الدولة، أو السلطة التنفيذية العليا وأعوانها.

فقد رأينا الخلفاء يعنون بأمر البيئة ، بأنفسهم وبولاتهم وأعوانهم ، كما رأينا عمر بن الخطاب يحث أحد الصحابة على غرس الشجر في أرضه ، ويشاركه بيده في الغرس .

ورأيناه يوصي بالرفق بالحيوان، وينكر على من قسا عليه.ويرى أنه وهو بالحجاز- مسئول عن هلاك جدي بشط الفرات بالعراق.

ورأيناه يشجع على إحياء الموات، ومن أقطع أرضاً، ولم يعمرها ولم يحيها انتزعها منه وأعطها لغيره.

ورأينا عمر بن عبد العزيز يفعل مثل ذلك، وينهى الحمالين الذين يحملون على الإبل ألا يزيدوا في حمولتها عن مقدار معين.

والأمثلة كثيرة على تدخل الخلفاء والأمراء فيما يتعلّق بالبيئة إيجاباً أو سلباً، أمراً أو نهياً.

٢- وهناك (مؤسسة القضاء) فيستطيع القاضي أن يحكم بالتعزير على كل من أساء إلى البيئة، إذا اشتكت بعض الناس إليه احتساباً، أو رأى أحدهم من يؤذى الناس في طريقهم العام، أو يلوث مياههم، أو رأى من يهمل بهائمه وأنعامه، ولا يطعمنها أو يسقيها، قسوة عليها، وقد نقلنا كلام أبي علي الرحال المغربي في ذلك، وهو كلام قوي تؤيده الأدلة الشرعية. ومن حق القضاة أن يصدر أحكامه بالتأديب والعقاب.

٣- وهناك (مؤسسة الحسبة) ولها دور كبير في الإشراف والإرشاد والرقابة والتأديب ، وقد كانت تتدخل في كثير من أمور الحياة الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية ، وستتحدث عنها بتفصيل أكثر .

٤. وهناك مؤسسة الوقف الخيري . وهي مؤسسة انتشرت في العالم الإسلامي منذ عهد النبوة والصحابة ، وتقوم على أساس الصدقة الجارية (الدائمة) بأن يحبس الإنسان (الأصل المالي) ويسبّل ثمرته ، وأن يجعلها موقوفة على الخيرات ، وسد الثغرات في حياة الناس .

ولقد كان للأوقاف - أو الحبوب - الإسلامية دور غير منكور في الحضارة الإسلامية ، وتناولت أدق جوانب الحياة ، وسدت ثغرات كثيرة ، ولبت حاجات شتى في الحياة ، مثل بناء (المارستانات) أي المستشفيات التي تعالج المرضى مجانا ، وتطعمهم مجانا . ومثل الوقف على المدارس ، والاستراحات في طرق الأسفار ، و(السبيل) التي يشرب منها الناس .

بل هي لم تقتصر على حاجات البشر وحدهم ، بل شملت حاجات بعض الحيوانات ، حتى رأينا من خيارات المسلمين من ينشئ وقفًا للكلاب الضالة التي ليس لها مالك .

٥. وهناك (مؤسسة الزكاة) . وهي الشعيرة التعبدية والفردية المالية ، والداعمة الثالثة من دعائم الإسلام بعد الشهادتين وإقام الصلاة . وقد قرناها الله في القرآن بالصلاحة في ثمانية وعشرين موضعًا . وجعلها نظاماً تشرف عليه الدولة تحصيلاً وتوزيعاً ، بوساطة جهاز (العاملين عليها) الذين يجبونها من أغنياء كل إقليم ليردوها على فقراءه .

ولقد قامت الزكاة بدورها في معالجة مشكلة الفقراء والمساكين والغارمين وأبناء السبيل من أصحاب الحاجات ، وكانت أول نظام للمساعدات الحكومية في التاريخ ، بل كانت الدولة الإسلامية أول دولة في العالم تحارب وتتجيش الجيوش من أجل حقوق الفقراء في أموال الأغنياء .

ومن المعلوم أن مشكلة الأعداء الثلاثة : الفقر والمرض والجهل ، تعد من أعوص المشاكل التي تعرّض رعاية البيئة والإحسان بها . وللزكاة دور أساسي في معالجتها .

ـ وهناك (مؤسسة الفتوى والإرشاد الديني) والذي يقوم به علماء الدين في المساجد والزوايا، في خطبهم ودروسهم ومواعظهم، وفتواهم لمن يسألهم عن أحكام الشرع في القضايا المختلفة، ومنها ما يتصل بالبيئة.

ومن المؤكد أن الأمة الإسلامية أمة دينية، كما يشهد بذلك من يعيشها ويسبّر أغوارها، فهو يستيقن بأن الدين هو الموجه الأول لتفكيرها، والمحرك الأول لمشاعرها، والمحدد الأول لسلوكها. ومن أراد أن يخاطب هذه الأمة بغير لغة الدين، أو يحركها بغير بواعث الدين، فستذهب محاولاته صيحة في واد، ونفخة في رماد كما يقال.

وقد كان الفقه الإسلامي هو مصدر الإفتاء لمن يفتون من العلماء، كما كان مصدر القضاء لقضاة الأمة، وإن اختلفت مذاهبهم. وكذلك كان مرجع الأمراء والمنفذين، الذين كانوا يرجعون عادة إلى الفقهاء. وإن لم يقن الفقه الإسلامي في صورة مواد قانونية إلا في العصر الأخير للعثمانيين، الذين كانوا يحكمون جل العالم الإسلامي لعدة قرون.

و سنلقي ضوءاً كاشفاً على ذلك في الصفحات التالية بتوفيق الله تعالى.

### رحابية البيئة من خلال نظام الحسبة

قد يقول قائل: لا ننكر أن التعاليم الإسلامية والأحكام الشرعية المتعلقة بالبيئة ذات قيمة كبيرة من الناحية الفكرية، والتصور النظري، ولكن النظر شيء والتطبيق شيء آخر، فكم من أفكار مثالية، وأحلام طوباوية، يحلق في أجواءها بعض البشر الحالين، ولكنها لم تجد طريقها إلى الواقع العملي، مثل جمهورية أفلاطون، والمدينة الفاضلة للفارابي، وأمثالهما.

وأقول لهؤلاء: إن المزية الواضحة لشريعتنا أنها شريعة واقعية، وأنها تتعامل مع الإنسان، كما هو، بغرائزه الهاابطة، وأشواقه الصاعدة، بقوته وضعفه، واستقامته وانحرافه، ورشده وغيه. ولهذا لم يصعب تطبيقها في واقع الحياة، يوم كان أمر المسلمين بأيديهم، وكانوا سادة في ديارهم، ولم

يتخلوا عن هذه الشريعة يوماً، إلا تحت وطأة الاستعمار، الذي أحل قوانينه وأنظمته الوضعية محل الشريعة الإسلامية.

هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى إذا نظرنا إلى الواقع التاريخي في حضارتنا الإسلامية، نرى أن العناية بالبيئة ونظامها وحمايتها، وأن الفكر البيئي والحس البيئي، كل ذلك كان قائماً وبينما في الحياة الإسلامية.

ومن أبرز ما يدل على تلك الظاهرة: (نظام الحسبة) الذي اشتهر بين المسلمين، وبدأ منذ عهد النبوة، ثم في عهد الخلفاء الراشدين، ولاسيما عمر، ثم ثما واتسع في العهود التالية، وخصوصاً عهداً العباسين، وهو نظام يجمع بين الإرشاد والرقابة والقضاء والتنفيذ. وقد وزعت اختصاصاته في عصرنا على عدة دوائر أو وزارات ومؤسسات. ولكن (المحتسب) كانت له منزلة خاصة، وهيبة خاصة، وسلطة خاصة، حتى إنه كان يحتسب على المعلمين والقضاة والأئمة والوعاظ والأمراء أنفسهم.

ومن قرأ بعض كتب الحسبة يتبين له هذه الحقيقة جلية كالشمس، كما نرى في (نهاية الرتبة في طلب الحسبة) للشيزري، ومثله لابن بسام المحتسب، وفي (معالم القرية في آداب الحسبة) للقرشي، وفي نصاب الاحتساب للسنامي.

إن مؤسسة (الحسبة) نكاد لا نجد لها نظيراً في الحضارات الأخرى. فهي تختص في شطر كبير منها بالعمل على التطبيق العملي للفتاوى والأحكام المتعلقة بالحفاظ على البيئة من التلوث، سواء كان تلوثاً مباشراً بمختلف الملوثات الغازية والسائلة والبيابسة، أم كان تلوثاً غير مباشر بالإخلال بالتوازن الكمي والكيفي للمكونات البيئية.

وقد سجلت لنا المدونات الكثيرة في الحسبة كيف كانت هذه المؤسسة تسهر عملياً بأجهزتها وأعوانها على المراقبة الدورية الدائبة في مختلف المدن والأرياف الإسلامية، لأحوال المصانع والمتأجر والأسواق وحظائر الحيوانات ومزارع الخضر والفواكه، لتمكّن كل ما من شأنه أن يلوث البيئة من أدخنة وعفنونات وسموم، ومن إتلاف لأشجار وحيوانات، وذلك للحفاظ عليها

من الخلل المضى بالحياة في صوره المختلفة . وحينما ينضم هذا الإجراء العملي التطبيقي الذي دأبت عليه الحضارة الإسلامية للصيانة من التلوث إلى تلك الفتوى والأحكام النظرية المواكبة للتطور الحضاري في هذا الشأن ، فإنه يتبيّن مدى ما كانت عليه الحضارة الإسلامية من رفق بالبيئة بالحفاظ عليها من التلوث ، ومدى ما أنجزت في ذلك نظرياً وعملياً .

وإذا نظرنا نظرة مقارنة في هذا الشأن بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ، فإننا نجد أن الحضارة الغربية لم تكن تصبّحها في نشأتها ولا في لاحق أطوارها ثقافة توجه إلى صيانة البيئة من التلوث ؛ ولذلك فقد كان التلوث يصاحبها ويتطور بتطورها ، حتى وصل إلى ما وصل إليه من وضع خطير ، حينما بلغت هي أوجها من التطور ، وحيثندل أصبحت مشكلة تؤرق أهل هذه الحضارة الذين غدوا لا يهتدون إلى حلٍ ناجع لها لما بلغت من مدى بعيد في التراكم والتفاقم<sup>(١)</sup> .

#### نماذج من عنایة المحتسبين بسلامة البيئة ونظافتها:

لقد ركزت كتب الحسبة كلها على سلامية البيئة ونظافتها ، وخصوصاً كل ما يتعلق بالإنسان في غذائه وسقائه وطهارته . وذكرت في ذلك أموراً في غاية الدقة ، تدل على مدى اليقظة والاهتمام بشئون الإنسان وببيئته ، وحمايتها من كل تلوث يضر ويؤذى .

وأكتفي بأن أنقل هنا فقرات من كتاب الشيزري (نهاية الرتبة) ، لأنه أولها وعمدتها ، ومرجع كل من كتب بعده . حتى إنهم نقلوا ألفاظه بعينها ؛ لنرى مدى عنایتهم بنظافة البيئة وسلامتها من كل ما يضر الإنسان .

#### في الحسبة على الخبازين:

قال رحمة الله في (الحسبة على الخبازين):

ينبغي أن ترفع سقائف حواناتهم ، وتفتح أبوابها ، ويجعل في سقوف

(١) انظر : قضايا البيئة من منظور إسلامي للدكتور عبد المجيد النجار .

الأفران منافس واسعة يخرج منها الدخان، لثلا يتضرر بذلك الناس. وإذا فرغ الخباز من إحمائه مسح داخل التنور بخرقة نظيفة، ثم شرع في الخبز.

ويكتب المحتسب في دفتره أسماء الخبازين ومواضع حواناتهم، فإن الحاجة تدعوه إلى معرفتهم؛ ويأمرهم بنظافة أوعية الماء وتغطيتها، وغسل المعاجن ونظافتها، وما يغطي به الخبز، وما يحمل عليه.

ولا يعجن العجان بقدميه ولا بركتيه ولا برفقيه، لأن في ذلك مهانة للطعام، وربما قطر في العجين شيء من عرق إبطيه ويدنه، فلا يعجن إلا وعليه ملعقة (ثوب من غير كم) أو بشت مقطوع الأكمام؛ ويكون ملثماً أيضاً، لأنه ربما عطس أو تكلم، فقطر شيء من بصاقه أو مخاطه في العجين. ويشد على جبينه عصابة بيضاء، لثلا يعرق فيقطر منه شيء في العجين؛ وإذا عجن في النهار فليكن عنده إنسان في يده مذبه يطرد عنه الذباب<sup>(١)</sup>.

فانظر - أخي القارئ - إلى هذه التفصيات العجيبة التي يرشد إليها المحتسب، وينبه عليها الخبازين، ويراقبهم في تنفيذها، ويؤدبهم إذا أخلوا بها، وله السلطة والقدرة على التنفيذ.

#### في الحسبة على الفرانين:

وقال رحمة الله في (الحسبة على الفرانين):

يفرقهم المحتسب على الdroوب والمحال وأطراف البلد، لما فيه من المرافق، وعظم حاجة الناس إليهم. ويأمرهم بإصلاح المداخن، وتنظيف بلاط الفرن في كل ساعة، من اللباب المحترق، والشرر المتطاير، والرماد المتناشر، لثلا يلتصق في أسفل الخبز منه شيء. و يجعل الفرن بين يديه إجازة<sup>(٢)</sup> نظيفة للماء، فإذا فرغ من الخبز أراق ما بقى فيها، لأنه إذا بقى فيها تغيرت رائحته؛ ثم يغسلها من الغد.

(١) نهاية الرتبة في طلب الحسبة للشيزري تحقيق السيد البار العربي. نشر دار الثقافة - بيروت ص ٢٢.

(٢) الإجازة في اللغة الإناء الذي تغسل فيه الثياب. (لسان العرب).

وينبغي أن يكون له مخبزان، أحدهما للخبز والأخر للسمك، ويجعل السمك بعزل عن الخبز، لئلا يسيل شيء من دهنه على الخبز<sup>(١)</sup>.

#### الحسبة على الرواسين وقلائي السمك والطباخين:

وقال رحمة الله في (الحسبة على الرواسين) أي بائعي رءوس المواشي : يأمرهم بنظافة س茅ط الروس والأكارع<sup>(٢)</sup> بماء الشديد الحرارة، وجودة تنقية الشعر والصوف منها ، ثم تغسل بعد ذلك بماء البارد، غير الذي س茅طت فيه . ويجب على الرواس أن يضم إصبعه في الخياشيم ، ويغسل داخلها ، بعد أن يدق مقدمها ، وينزل ما فيه من القذا والوسعن والدود المتولد، إن كان هناك منه شيء<sup>(٣)</sup> .

#### وقال في (الحسبة على قلائي السمك) :

يؤمرون كل يوم بغسل قفافهم وأطباقهم التي يحملون فيها السمك، ويشرون فوقها الملح المسحوق ، كل ليلة بعد الغسيل؛ وكذلك يفعلون بموازينهم الخوص ، لأنهم إذا غفلوا عن غسلها فاح نتنها وكثرة سخها ، فإذا وضع فيها السمك الطري تغير ريحه وفسد طعمه . ويبالعون في غسل السمك بعد شقه وتنظيفه وتنقية من جلد وفلوشه ، ثم يشرون عليه الملح والدقيق<sup>(٤)</sup> ... إلخ.

#### وقال في الحسبة على الطباخين:

يؤمرون بتغطية أوانيهم ، وحفظها من الذباب وهوام الأرض ، بعد غسلها بماء الحار والأشنان<sup>(٥)</sup> .

(١) نهاية الرتبة ص ٢٢.

(٢) الأكارع جمع الجماع لأكريع وكراع ، وهو الجزء المستدق العاري من اللحم من ساق البقر والغنم .  
(لسان العرب).

(٣) المصدر السابق ص ٣٢.

(٤) نفسه ص ٣٣.

(٥) نفسه ص ٣٤.

## الحسبة على السمافين:

وقال في (الحسبة على السمافين) أي بائعي السمن :

ويعتبر المحتسب عليهم المخلل على اختلاف أجنسه - إذا طرح عليه الكرج<sup>(١)</sup> - وكلما كان مجسه يابساً قوياً أعيد إلى الخل الثقيف<sup>(٢)</sup>، وكلما لأن مجسه رُمي به ، فإنه قد فسد . ومتى حمضت عندهم الكوامخ يأمر المحتسب بإراقتها خارج البلد ، فإنها لا تصلح بعد حمضها . وكلما تغير عندهم - أو فسد وَدَدَ - شيء من الجبن المكسود في الخواب والشحوم والأدهان ، فلا يجوز لهم بيعه لما فيه من الضرر بالناس ؛ وكذلك الكبر<sup>(٣)</sup> إذا دود في خواصيه .

وينبغي أن تكون بضائعهم مصونة في البراني والقطارميز<sup>(٤)</sup> ، لثلا يصل إليها شيء من الذباب وهوام الأرض ، أو يقع عليها شيء من التراب والغبار ونحو ذلك ؛ وإن وضعوها في قفاف الخوص فلا بأس بها إذا كانت مغطاة بالميازير<sup>(٥)</sup> ؛ وتكون المذبحة في يده ، يذب عن البضاعة بها الذباب . ويأمرهم المحتسب بنظافة أنواعهم ، ويأمرهم بغسل مغارفهم وأنيتهم وأيديهم ، ومسح موازيينهم ومكاييلهم على ما ذكرناه . ويتفقد المحتسب أصحاب الحوانين المنفردة في الحارات والدروب الخارجية عن الأسواق ، ويعتبر عليهم بضائعهم وموازيينهم في كل أسبوع ، على حين غفلة منهم ، فإن أكثرهم يدلس بما ذكرناه<sup>(٦)</sup> .

(١) الكرج في الفارسية القطعة من البطيخ (Steingass: Pers.Eng.Dict.) ، وفي العربية توصف الأشياء التي تفسد وتعلوها خصمة بأنها مكرجة (لسان العرب) ؛ وربما كان المقصود هنا بالكرج ما فسد من قشر البطيخ المخلل .

(٢) المقصود بذلك الخل الشديد الحموضة . (أقرب الوارد) .

(٣) الكبر نبات شوكي (النويري: نهاية الأرب، ج ١٢، ص ١٥٧)، ويعمل منه كامنخ بالريف بمصر حتى الوقت الحاضر .

(٤) القطارميز . ومفردتها قطر ميز . وعاء من الفخار قصير العنق واسع الفوهة .

(٥) الميازير . ومفردها مثير . رداء قصير يستر الجسم من السرة إلى أسفل ، والمقصود بالثير هنا الغطاء .

(٦) نهاية الرتبة: ٦٠ - ٥٩ .

## **الحسبة على الحمامات:**

**وقال في (الحسبة على الحمامات وفومتها):**

وينبغي أن يأمرهم المحتسب بغسل الحمامات وكتسها وتنظيفها بالماء الظاهر، غير ماء الغسالة، يفعلون ذلك مراراً في اليوم. ويذكرون البلاط بالأشياء الخشنة، لثلا يتعلق به السدر والخطمي والصابون، فتنزلق أرجل الناس عليها. ويغسلون الخزانة من الأوساخ المجتمعة في مجاريها، والعكر الراكد في أسفلها في كل شهر مرة، لأنها إن تركت أكثر من ذلك تغير الماء فيها في الطعم والرائحة. وإذا أراد القائم الصعود إلى الخزانة لفتح الماء إلى الأحواض، فينبغي أن يغسل رجليه بالماء ثم يصعد، لثلا يكون قد خاض في الغسالات. ولا يسد الأنابيب بشعر المشاطة، بل يسدتها بالليف والخرق الظاهر، ويشعل فيها البخور في كل يوم مرتين، سيما إذا شرع في غسلها وكتسها. ومتى بردت الحمام، فينبغي أن يبخرها القيم بالخزامي<sup>(١)</sup>، فإن دخانها يحمي هواها، ويطيب رائحتها. ولا يحبس ماء الغسالات في مسيل الحمام، لثلا تفوح رائحتها؛ ولا يدع الأساكفة وغيرهم يصبغون الجلود في الحمام، فإن الناس يتضررون برائحة الدباغة؛ ولا يجوز أن يدخل المجدوم والأبرص إلى الحمام.

ويلتزم المحتسب أن يتفقد الحمام في كل يوم مراراً، ويعتبر ما ذكرناه<sup>(٢)</sup>.

هذا غيض من فيض، مما اهتمت به كتب الحسبة التي صنعتها أصحابها لتكون دليلاً ومرشداً تفصيلياً للمحتسين، وبعض مؤلفيها - كابن البسام - كان محتسباً.

## **عنابة الجانب التشريعي بالبيئة:**

**وإذا كان فقهنا الإسلامي يمثل التشريع الحي الذي كان يحكم الأمة خلال**

(١) الخزامي - ومفرده خزاماً - عشبة طويلة العيدان، طيبة الرائحة.

(٢) المصدر السابق ص ٨٧-٨٨.

عصور الحضارة الإسلامية، في شتى أنحاء العالم الإسلامي، إذ كان هو المرجع الفذ للقضاة والحكام، وقد رأينا الخلفاء الراشدين مثل العمررين - ابن الخطاب وابن عبد العزيز - ينفذون الأحكام الشرعية ويراقبونها في حياة الناس، كما رأينا في مواقفهم الحاسمة من الإحسان والرفق بالحيوان، وكما رأينا كتب الفقه توجب على القضاة أن يتدخلوا لرفع الظلم عن المظلوم، وإن لم يستطع رفع مظلمته إليهم، مثل البهائم.

ورأينا مثل الشيخ أبي علي الرحالة المالكي المغربي يدافع عن الطيور التي يحبسها الناس ويتهلكون بها، وقد يغفلون عنها، فتهلك وتضيع. إلى آخر ما عرضناه من روائع فقهنا الواقعي المتجاوب مع أحداث الحياة.

على أننا نستطيع أن نجد (تشريعات مقتنة) في المحافظة على البيئة في العصر الأخير للدولة العثمانية التي حكمت الوطن الإسلامي لعدة قرون. وهذه التشريعات المقتنة في مواد، تتمثل في (مجلة الأحكام العدلية) الشهيرة، التي قنت القانون المدني على المذهب الحنفي، وفيه كثير من المواد المتعلقة بحماية البيئة، في مجالات عدّة.

وأكفي هنا بمادة أو مادتين من مواد (المجلة) المذكورة.

إحداهما: المادة رقم (١٢٠٠) والتي يقول نصها - كما في (درر الحكم)  
شرح مجلة الأحكام):<sup>(١)</sup>

«يدفع الضرر الفاحش بأي وجه كان. مثلاً لو اتّخذ في اتصال دار دكان حداد أو طاحونة، وكان يحصل من طرق الحديد، أو دوران الطاحون، وهنّ لبناء تلك الدار، أو أحدث فرنا أو معصرة، بحيث لا يستطيع صاحب الدار السكّنى فيها، لتلذيه من الدخان أو الرائحة الكريهة، فهذا كلّه ضرر فاحش، فتدفع هذه الأضرار بأي وجه كان. وكذلك لو كان لرجل عرصة متصلة بدار آخر، وشق فيها قناة، وأجرى فيها الماء منها لطاحونة، فحصل وهن لحائط

١) ج ٣ ص ٢٧٤ - ٢٧٧.

الدار، أو اتخد أحد في أساس جدار جاره مزيلة، وألقى القمامات عليها فأضر بالجدار فلصاحب الجدار طلب دفع الضرر، وكذلك لو أحدث بيدها في قرب دار آخر وتؤذى صاحب الدار من غبار البيدر بحيث أصبح لا يستطيع السكنى في الدار فيدفع ضرره، كما أنه لو أحدث أحد بناء مرتفعا في قرب بيده آخر وسد مهب الريح فيزال لأنه ضرر فاحش. كذلك لو أحدث أحد مطبخا في سوق البازارين وكان دخان المطبخ يصيب أقمشة جاره ويضرها فيدفع الضرر. وكذلك لو انشق بالوع دار أحد وجرى إلى دار جاره وكان في ذلك ضرر فاحش فيجب تعمير البالوع المذكور وإصلاحه بناء على دعوى الجار».

هذه مادة واضحة الدلالة على الاهتمام بالبيئة، وقد ذكر شارحها السيد على حيدر عشرين مسألة مهمة متفرعة عليها، مسندة إلى مصادرها من الفقه الحنفي نختار عددا منها.

١ - مثلاً لو اتخد أحد دكان حداد أو نجار أو طاحونا في جوار دار آخر بعد إنشاء تلك الدار فحصل من طرق الحديد أو من شغل التجارة أو من دوران الطاحون وهن لبناء تلك الدار أو أحدث بجوار الدار المذكورة فرنا دائمياً كفرن السوق، أو أحدث معصرة أو مصبنية بحيث لا يستطيع صاحب الدار السكنى فيها، لتأديبه من الدخان ومن الرائحة الكريهة، أو اتخد أحد دكان حلاج متصلة بدار آخر، وكان صاحب الدار لا يستطيع السكنى فيها من صوت الحلاج، فكل ذلك ضرر فاحش يدفع ويزال بأي وجه كان لأن بعض هذه الأضرار يوجب وهن البناء، وببعضها يوجب منع المواجه الأصلية من السكنى في الدار. (الطحطاوي في مسائل شتى من القضاء، والأنقروي في الحيطان).

وقد أشير شرعاً بأن المقصود من الفرن هو الفرن الدائمي أو فرن السوق، أما الفرن الذي يتخد خصيصاً للدار فهو جائز (رد المحتار على البازارية).

٢ - كذلك لو نصب أحد منوالاً لاستخراج الحرير وكان في ذلك ضرر للجيران من الدخان، ومن رائحة الديدان، يمنع (علي أفندي عن القنية).

- ٣- إذا اتخد أحد داره حماماً، وحصل ضرر فاحش للجيران من دخانه، يمنع  
ما لم يكن دخان الحمام بقدر دخان الجيران (الهندي).
- ٤- إذا بني أحد مطبيخاً قرب دار أحد القديمة، وكان دخان المطبخ يدخل إلى  
دار صاحب الدار، فيدفع إذا كان الضرر فاحشاً (أبوالسعود المصري).
- ٥- إذا أنشأ أحد مسلخاً في قرب أحد المساجد، وتآذى المصلون من رائحة  
الحيوانات المذبوحة، ومن أرواثها الكريهة فإذا أعلم القاضي ذلك يمنعه  
(علي أفندي).
- ٦- إذا استمر أحد في إجراء الدباغة في داره، وتآذى الجيران يمنع. أما إذا  
أجرى هذه الصنعة نادراً فلا يمنع (الدر المختار).
- ٧- إذا زرع أحد رزاً في مزرعته، وتجاوزت المياه إلى مزرعة الجار فأفسدتها،  
يمنع، وكذلك لو اتخد أحد داره الواقعة في طريق غير نافذ زريبة للأغنام،  
وتآذى الجيران من رائحة الروث، ومن عدم الأمان من الرعاة،  
يمنع (الخانية).
- ٨- إذا كان الطابق السفلي من دار ملوكاً لأحد والعلوي منها ملوكاً آخر  
فأسكن صاحب العلوى حيوانات في داره فسالت أبوالها إلى الطابق  
السفلي، وكان في ذلك ضرر فاحش على صاحب السفلي يمنع (علي  
أفندي).
- ٩- إذا اتخد أحد في عرصته المملوكة مزبلة في أساس جدار جاره، وألقى  
القمامة عليها أو كوم التراب فيها، وتضرر الحائط فلصاحب الحائط أن  
يطلب دفع ضرره (علي أفندي).
- ١٠- إذا اتخد أحد أصحاب الطريق الغير النافذة مزبلة في أساس حائط جاره  
وكان في ذلك ضرر فاحش يمنع (التنقيح).
- ١١- وكذلك لو أحدث أحد بيدها قرب دار أحد وكان غبار البيدر يؤذى

صاحب الدار مما يجعله بدرجة لا يستطيع السكنى في الدار فيدفع ضرره (علي أفندي).

١٢ - إذا أحدث أحد مطبخا في سوق البازار وكان دخان المطبخ يصيب أقمشة جاره يدفع الضرر (علي أفندي).

١٣ - وكذلك لو انشق بالوع دار أحد، وسال في دار الجار، فيجب تعمير وإصلاح البالوع، بناء على دعوى الجار لكونه ضررا فاحشا.

٤ - إذا خرب البالوع الذي أحدهه عدة أشخاص تحت الطريق العام واندفعت منه الأقدار إلى الطريق، وتؤذى المارة، فلللمارة أن يكلفو أصحاب البالوع بإصلاحه، أو أن يتعنوا من إسالة أو ساخهم (علي أفندي)<sup>(١)</sup>.

هذه المسائل كلها تدلنا بجلاء على أن القانون - المستمد من الفقه الإسلامي - قد عني بمسألة البيئة، وحمايتها، ومنع كل من يلوثها أو يتعدى عليها. وهي مبنية على قاعدة (لا ضرر ولا ضرار) وأن الضرر إذا كان فاحشا يزال بكل وجہ، وإذا كان يسيرا يتسامح فيه.

والمادة الثانية التي نذكرها هنا هي المادة (١٢١٢) وهي تتعلق باليئنة كذلك. تقول المادة: «إذا أنشأ أحد كنيفا أو بالوعا قرب بئر ماء أحد، وأفسد ماء تلك البئر، فيدفع الضرر، فإذا كان غير ممكن دفع الضرر بوجه ما، فيردم الكنيف أو البالوعة»<sup>(٢)</sup>.

---

(١) انظر: درر الحكم شرح مجلة الأحكام لعلي حيدر، تعریب المحامي فهمي الحقبی. منشورات مكتبة النهضة. بيروت - بغداد (٣/٢٧٤-٢٧٧).

(٢) انظر: درر الحكم (٣/٣٣٩، ٣٤٠).

## خاتمة

### صلاح البيئة بصلاح الإنسان

لقد بينت لنا هذه الدراسة : أن الله جلَّ وعلا قد خلق البيئة بكل مكوناتها وعنابرها، صالحة طاهرة، متوازنة متكاملة، وإنما دخل عليها النقص والفساد والاختلال بصنع الإنسان، وخصوصاً في عصرنا الحديث، وبالأخص في العقود الأخيرة، الذي تفاقمت فيه مشكلات البيئة، وتعاظمت أخطارها.

فقد جنى الإنسان بغروره وحماقته وظلمه وجهره - على البيئة ، فلوثها بعد طهارتها ، وأفسدها بعد إصلاحها ، وأصابها بالاضطراب والخلل في توازنها ، فعاقبها القدر الأعلى على إفساده في الأرض ، بما أصبح يعني من آثاره ، ويشكو منه من الشكوى ، وما ظلم الله الإنسان ، ولكن الإنسان هو الذي ظلم نفسه **﴿فَذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِّلْعَبْدِ﴾** (الحج: ١٠) .

لقد علم الله الإنسان ما لم يكن يعلم ، وسخر له من قوى الطبيعة ما لم يكن يحلم به ، وهيأ له من أسباب التفوق التكنولوجي والإلكتروني والبيولوجي ما فاق به كل خيال ، ولكن الإنسان لم يقابل هذه النعم بالشكر اللائق بها ، ولم يستخدمها فيما يحبه الله ويرضاه ، بل فيما يكرهه ويستحيه . فبدل نعمة الله كفرا ، وانقلبت النعم عليه نقا ، وأمسى العلم وتطبيقاته العملية أداة إهلاك وتدمير ، لا أداة عمارة وتحمير .

وسر ذلك : أن العلم في حضارة الغرب التي تسود العالم اليوم ، لم ينشأ في حضانة الإيمان ، بل نشا وغا بمعزل عن الإيمان ، بل اعتبر نفسه بديلا

لله إيمان، وخصوصاً للدين. فقد قام صراع طويل ممتهن في الغرب بين الدين والعلم، انتهى بانتصار العلم ومكتشفاته على الدين ومعتقداته هناك. أعني: دين الكنيسة الغربية، التي تبنت مفاهيم وأفكاراً رجعية خرافية، وأضفت عليها قداسة دينية، وقاتلت دونها. وهي ليست من دين الله الحق في شيء. فحق لها أن تنهر، وأن يتتصير العلم عليها.

ولا علاج لمشكلات البيئة وأخطارها على البشرية، إلا بعلاج الإنسان نفسه، فهو الذي أفسد البيئة، وعليه أن يصلحها.

والإنسان لا يعالج من خارجه، بل من داخله، من نفسه التي بين جنبيه، فهي أصل الداء، وإصلاحها هو السبيل الفذ للدواء. والقرآن الكريم يقرر هذه القاعدة أو هذه السنة الاجتماعية، فيقول: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

لا بد من التشريعات والعقوبات الزاجرة لمفسدي البيئة، ولكن هذا وحده لا يحل المشكلة من جذورها مالم تصلح ما بنفس الإنسان.

وإنما يصلح ما بنفس الإنسان حقاً بشيء واحد لا شريك له، ولا منافس له، وهو (الإيمان) الحق بالله تعالى وبرسالاته، وبالدار الآخرة. فهذا الإيمان وحده هو القادر على تغيير الإنسان من داخله تغييراً جذرياً، فيعرف نفسه، ويعرف ربه، ويعرف غايته، ويعرف طريقته، ويهتدى للتي هي أقوم ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ (التغابن: ١١).

الإيمان هو الذي يمنحك الإنسان الوعز الذاتي، والضمير الحي، الذي يجعل من ذاته رقيباً على ذاته، ويجعله يخشى الله قبل أن يخشى الناس، ويعمل ما يرضي الله تعالى، قبل أن يرضي الناس.

الإيمان هو الذي يصنع (الأخلاق) التي ترقى بالإنسان، وتوجهه إلى الخير، وتبعده عن الشر، وبها تترى نفس الإنسان وتتظهر ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٩، ١٠).

إن مشكلة البيئة في أساسها وجذورها مشكلة أخلاقية ، وعلاجها الحقيقي إنما يكمن في الرقي بأخلاق الناس ، والعودة إلى إحياء أخلاق العدل والإحسان والرحمة والرفق والاعتدال ، وغيرها من الفضائل التي فقدتها الإنسان المعاصر الذي غره ما وصل إليه من قوة وتقدير ، فقال ما قال قارون **﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِدِّي﴾** (القصص : ٧٨) ولم يقل ما قاله سليمان حين أحضر له عرش بلقيس : **﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَتُلوَّنِي أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبَّيْ غَنِّيٌّ كَرِيمٌ﴾** (النمل : ٤٠).

والإسلام - بنقاء عقيدته ، وكمال شريعته ، وتوازن أخلاقه - هو الجدير أن يقدم للإنسانية في مشكلات البيئة وصفة الدواء ، وهدية الشفاء ، بما تحتوي من توجيهات وتشريعات وأخلاقيات ، ربطها كلها بالإيمان بالله تعالى .

فلعل البشرية تستفيد في سلوكها البيئي من هذه الهدایة الإسلامية ، فهي هداية للبشرية جموعاً : **﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾**<sup>١٥</sup> يهدي به الله من اتبع رضوانه سُبُّلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾١٦﴾ (المائدة : ١٥ ، ١٦) .

## الحتويات

٥	..... من الدستور الإلهي .. ....
٧	..... مقدمة .. ....
١١	..... تمهيد : البيئة ومكوناتها .. ....
١٢	..... ما المراد بالبيئة؟ .. ....
١٩	..... التأصيل الشرعي لرعاية البيئة .. ....
٢١	..... ١ - علم أصول الدين ورعاية البيئة .. ....
٢٥	..... ٢ - علم السلوك ورعاية البيئة .. ....
٣٨	..... ٣ - علم الفقه ورعاية البيئة .. ....
٤٤	..... ٤ - أصول الفقه ورعاية البيئة .. ....
٥٣	..... ٥ - علوم القرآن والسنة ورعاية البيئة .. ....
٥٧	..... الركائز الإسلامية لرعاية البيئة .. ....
٥٨	..... ١ - التشجير والتخصيب .. ....
٦٤	..... ٢ - العمارة والتشمير .. ....
٧٥	..... ٣ - النظافة والتطهير .. ....
٨٣	..... ٤ - المحافظة على الموارد .. ....
١٠٥	..... ٥ - الحفاظ على صحة الإنسان .. ....
١٢٠	..... ٦ - الإحسان بالبيئة .. ....
١٤٣	..... ٧ - المحافظة على البيئة من الإتلاف .. ....
١٥٢	..... ٨ - حفظ التوازن البيئي .. ....
١٥٧	..... الأخطر على البيئة .. ....

١٦٠	.....	١ - خطر التلوث .....
١٩٨	.....	٢ - خطر استنزاف الموارد .....
٢١٤	.....	٣ - خطر اختلال التوازن .....
٢١٩	.....	بماذا تفسد البيئة؟ .....
٢١٩	.....	ظهور الفساد في البر والبحر وأسبابه .....
٢٣٣	.....	وسائل إسلامية معاصرة لرعاية البيئة .....
٢٤١	.....	رعاية البيئة في واقعنا التاريخي .....
٢٥٦	.....	خاتمة .....

رقم الإيداع ٢٠٠١ / ٢٤٨٧

I.S.B.N. 977 - 09 - 0691 - 3 الترقيم الدولي

#### **مطبوع الشرفة**

القاهرة : ٨ شارع سيريه المصري - ت. ٤٠٢٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)  
 بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٠١)

# رعاية البيئة في شريعة الإسلام



**To: www.al-mostafa.com**